مركز دراسات الوحدة العربية

العربية السعودية

مملكة في مواجهة المخاطر

بول آرتس

كارولين رولانتس

هذا الكتاب

في عالم تسوده التحولات، ووطن عربي تلطمه أمواج الانتفاض وتعصف به حروب الانقسامات داخل حدود الدولة الوطنية فيه، تقف العربية السعودية على مفترق طرق.

فهذه المملكة التي تجمع بين التناقضات من أقاصي تطرُّفها، استطاعت أن تحافظ على استمراريتها على مدى العقود الماضية، مستفيدة من ثروة نفطية ضخمة منحتها مكانة جيوستراتيجية عاليةً من جهة، وموارد مالية صنعت للمملكة هيبة ونفوذاً على الساحتين الإقليمية والدولية من جهة أخرى، فضلاً عن استفادة هذه المملكة من احتضان ترابها أحد أهم الأماكن المقدّسة لدى المسلمين.

هذه المصادر الثلاثة لشرعية السلطة (النفط، والمال، والدين) كانت كفيلة بعدم انفجار الموازنة بين تلك التناقضات التي قامت عليها المملكة. لكنّ دولة تجمع بين النموذج الأكثر تطرُّفاً للدين بكل ما يحمل هذا النموذج من تعبيرات لاتاريخية وتكفيرية وعنفية ونافية للآخر ولاغية لحرية الفرد، وبين النموذج «التحديثي» الأكثر تطرّفاً في استهلاكيته وفي تمركز الثروة فيه لدى فئة قليلة من أفراد المجتمع وأُسَرِه مقابل فقر يمس حياة ثلثي أبناء البلد، وفي انغماس مواطنيها في تقانات العولمة وبخاصة وسائل التواصل الاجتماعي وثقافتها، هذه الدولة لا يمكنها الاستمرار في عيش نموذجها محصّنة خلف أسوار تحميها مما يعصف بالمنطقة والعالم من أحداث وتغيير.

فهل إن انتقال الحكم إلى الجيل الثالث من العائلة الحاكمة وما يحمل هذا الجيل معه من صفات وطموحات مغايرة سيبقي المملكة بمنأى عن عاصفة التحولات والتغيير الحاصلة في العالم والمنطقة؟

المؤلفان

- **بول آرتس:** مدرّس العلاقات الدولية في جامعة أمستردام. له عدد من المؤلفات، منها: **العربية السعودية في الميزان: الاقتصاد السياسي، المجتمع، والشؤون الخارجية.**
- **كارولين رولانتس:** محررة رئيسية في شؤون الشرق الأوسط في صحيفة *NRC Handelsblad* ـ هولندا.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web site: http://www.caus.org.lb

الثمن: ٩ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN: 978-9953-82-765-0
9 789953 827650

العربية السعودية

مملكة في مواجهة المخاطر

مركز دراسات الوحدة العربية

العربية السعودية
مملكة في مواجهة المخاطر

بول آرتس كارولين رولانتس

ترجمة

ابتسام الخضرا

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
آرتس، بول
العربية السعودية: مملكة في مواجهة المخاطر/بول آرتس وكارولين رولانتس؛ ترجمة ابتسام الخضرا.
١٧٦ ص.
ببليوغرافية: ١٥٩ ـ ١٧١.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-82-765-0
١. السعودية ـ الأحوال السياسية. ٢. السعودية ـ الأحوال الاجتماعية.
٣. السعودية ـ تاريخ. ٤ ـ التعليم ـ السعودية. ٥. الربيع العربي.
أ. العنوان. ب. رولانتس، كارولين. ج. الخضرا، ابتسام (مترجم)
953.8053

العنوان الأصلي بالإنكليزية
Saudi Arabia: A Kingdom in Peril
By Paul Aarts and Carolien Roelants
(London: Hurst and Company, 2015)

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)
email: info@caus.org.lb
يمكنكم شراء كتب المركز عبر موقعنا الإلكتروني
http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى
بيروت، حزيران/يونيو ٢٠١٦

المحتويات

ملاحظة عامة

الأشخاص السعوديون - أو غيرهم - الذين اقتُبِست أقوالهم في هذا الكتاب جرت مقابلتهم من جانب أحد المؤلفَيْن أثناء زيارتهما العربية السعودية، أو اقتُبِست تغريداتهم من على موقع التويتر. في كل الحالات الأخرى جرى ذكر المصدر في الهوامش.

تهجئة الأسماء والمفاهيم العربية تلتزم أسلوب دار Hurst. وهنا تجدر الإشارة إلى الفرق بين «أل» و«آل». فالمقطع الأول هو أداة تعريف؛ في حين يعني المقطع الثاني «عائلة ...» أو «أسرة ...».

قبيل إرسال هذا الكتاب للطبع، أعلن الملك سلمان عن إجراء عدة تغييرات مهمة تتعلق بتعاقب الوراثة وبالحكومة. والواضح أن التغيير الأهم كان (كما ورد في الإعلان) التخلي الطوعي للأمير مقرن بن عبد العزيز آل سعود عن منصب ولي العهد وما أعقب ذلك من تعيين الأمير محمد بن نايف آل سعود في هذا المنصب. ثمة تحول مهم آخر وهو ترقية الأمير الشاب محمد بن سلمان آل سعود إلى منصب نائب ولي العهد. وبذلك أصبحت معظم السلطات التابعة للملك بيد هذين الأميرين اللذين يترأسان لجاناً تتبع مجلس الوزراء وتقرِّر المسائل الأمنية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، إلى جانب مهامهما؛ واحد كوزير للداخلية والآخر كوزير للدفاع.

بدا ارتفاع شأن الأمير محمد بن سلمان مثيراً للدهشة على نحو خاص؛ إذ جاء تعيينه في منصبه الجديد بعد ثلاثة أشهر فقط من تسلُّمه وزارة الدفاع وإدارة شؤون بلاط والده. لكن هناك من حل محله في المنصب الأخير. هل سيحاول تهميش محمد بن نايف كي يرث العرش عن والده؟ يبدو أن صراعاً على السلطة بدأ يلوح في الأفق.

لم يكن بإمكاننا أن ندرج في الكتاب تلك التغييرات وغيرها التي حصلت في الدوائر السعودية العليا، لكن التغييرات المذكورة لا تغيّر في شيء تحليلنا للوضع الحالي في البلاط الملكي.

كلمة شكر

نود التعبير عن الامتنان لـ بريجي غاليما (Bregie Galema)، فقد تابعتْ رسائل موقع التويتر باللغة العربية لعدة أشهر وزودتنا بها. وقد كان لتلك الرسائل فضل في إغناء مادة الكتاب إلى حد كبير. في المراحل الأولى من إعداد الكتاب، قدّم لنا تيمو فان دن (Timo van Dun) مساعدة قيمة. أخيراً، قام عامر العالم بقراءة المخطوطة كاملة قراءة نقدية.

شرح المصطلحات

مرجع التقليد: بالنسبة إلى الشيعة، يمثل مرجع التقليد أعلى سلطة دينية يدينون لها بالطاعة. وللمؤمنين حرية اختيار مرجعهم. وعادة ما يكون هذا اللقب حكراً على رجال الدين ذوي المراتب العليا ممن يحملون لقب آية الله العظمى. تتبع النسبة الكبرى من الشيعة في العربية السعودية آية الله العظمى علي السيستاني، الموجود في النجف (العراق)، بوصفه مرجعهم.

المطاوعة: يُعرَفون في الغرب باسم «الشرطة الدينية» وفي العربية السعودية باسم «الهيئة». وهم الذراع التنفيذية لـ «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» التي تضم حوالى ٣٥٠٠ موظف وآلاف المتطوعين الناشطين في الأماكن العامة للإشراف على تطبيق أحكام الشريعة.

الصحوة: يشير المصطلح في العربية السعودية، تحديداً، إلى الحركة الإصلاحية التي بدأت في ثمانينيات القرن العشرين. ومن بين قادة هذه الحركة سلمان العودة وسفر الحوالي.

السلفية: حركة تستمد مبادئها من الجيل الأول في المسلمين في بدايات الدعوة الإسلامية (عصر السلفية). ينادي دعاة هذه الحركة بالتطبيق الحرفي لتعاليم القرآن والأحاديث النبوية ـ بوصفها المراجع الوحيدة الموثوقة. هناك طيف واسع من المجموعات السلفية، وهي تختلف ما بين مجموعات غير سياسية ومجموعات الجهاديين. العربية السعودية هي منبع السلفية المعاصرة (انظر الوهابية) حيث إنها تُعتبر دين الدولة الرسمي.

المذهب السنّي، السنّة: المذهب الرئيس في الإسلام. يتبع أهل السنة التقليد المستند إلى حياة النبي محمد والصحابة. نسبة ٩٠ بالمئة تقريباً من المليار ونصف المليار مسلم الموجودين في كل أنحاء العالم يعتبرون أنفسهم من أهل السنّة. نسبة ٨٥ ـ ٩٠ بالمئة من سكان السعودية (البالغ عددهم ٣٠ مليوناً تقريباً) هم من السنّة وهناك نسبة ١٠ ـ ١٥ بالمئة من الشيعة.

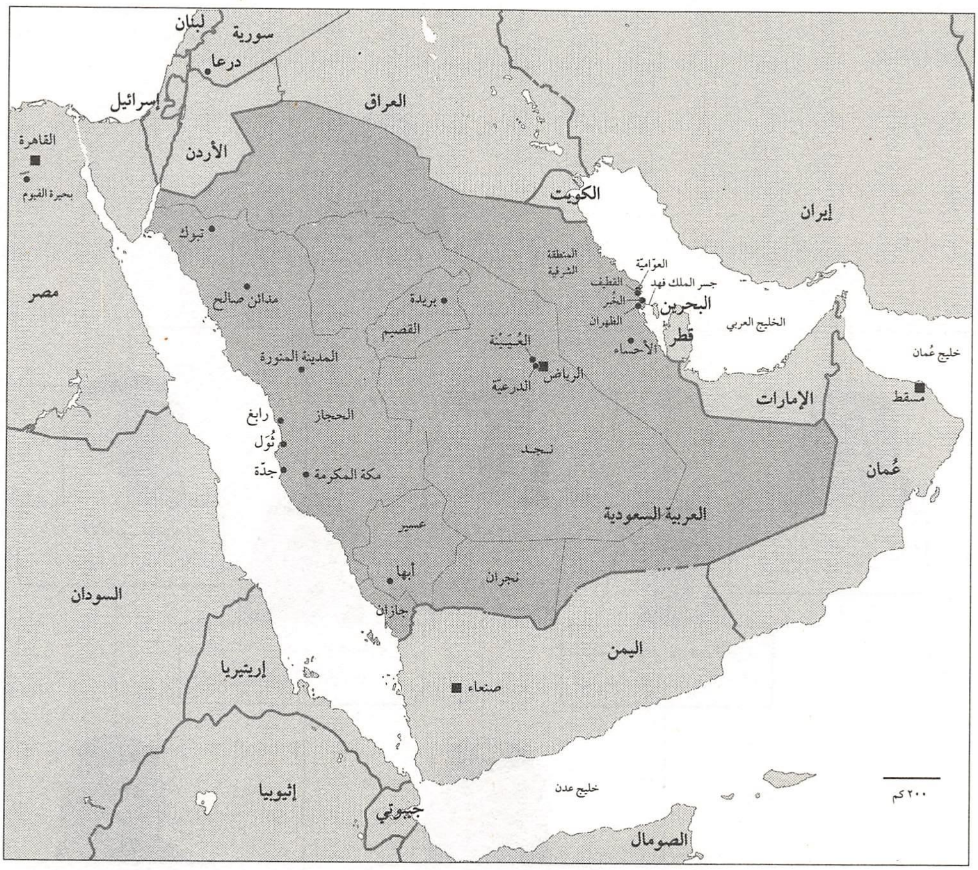
المذهب الشيعي، الشيعة: مذهب يمثل أقلية في الإسلام تبلغ نسبة عدد أتباعه ١٠ بالمئة تقريباً من عدد المسلمين. يدعي أتباع هذا المذهب أن صهر النبي محمد (علي)، والمنحدرين من صلبه

هم الورثة الشرعيون. يشكل «الاثنا عشريون» (الإمامية) المجموعةَ الأكبر في العربية السعودية، ويليهم الزيديون أو «الشيعة الخمسية» والإسماعيليون أو «الشيعة السبعية».

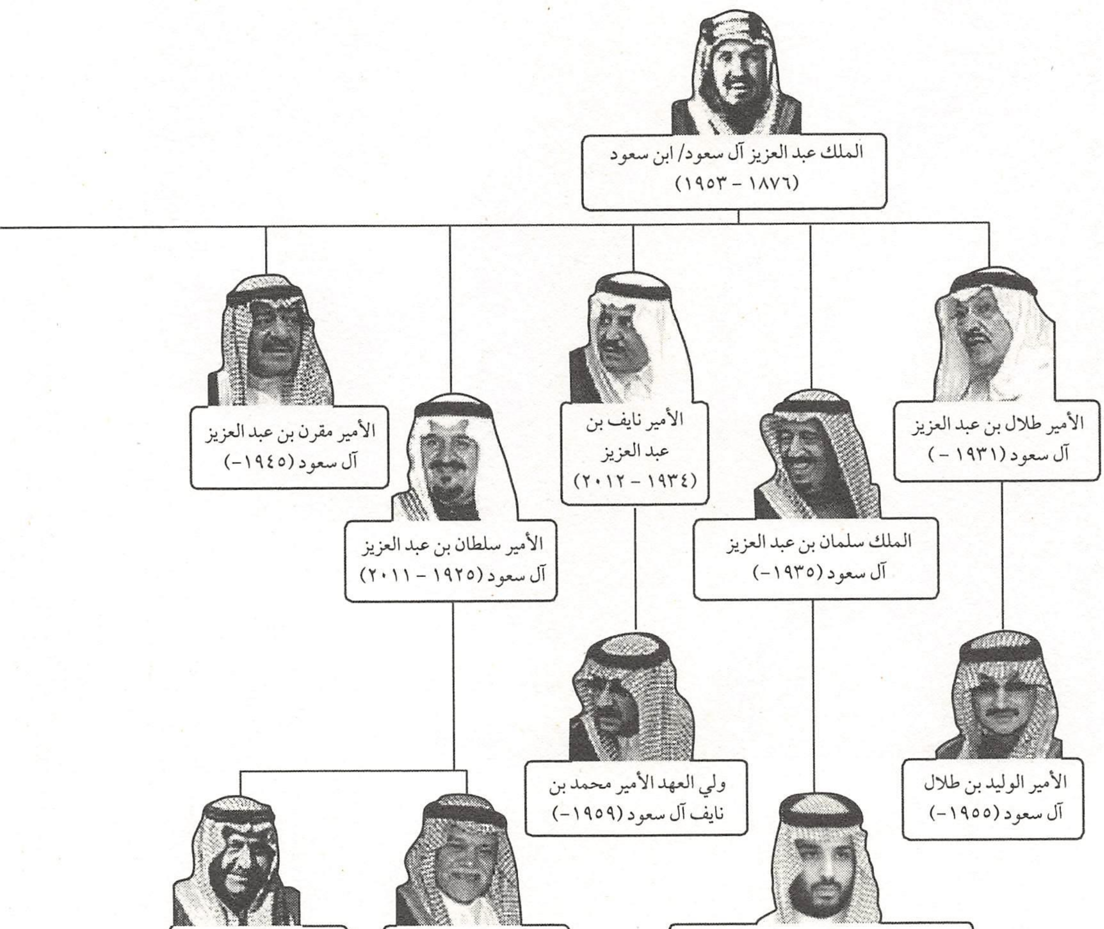
العلماء: المتعمقون في شؤون التعاليم الدينية.

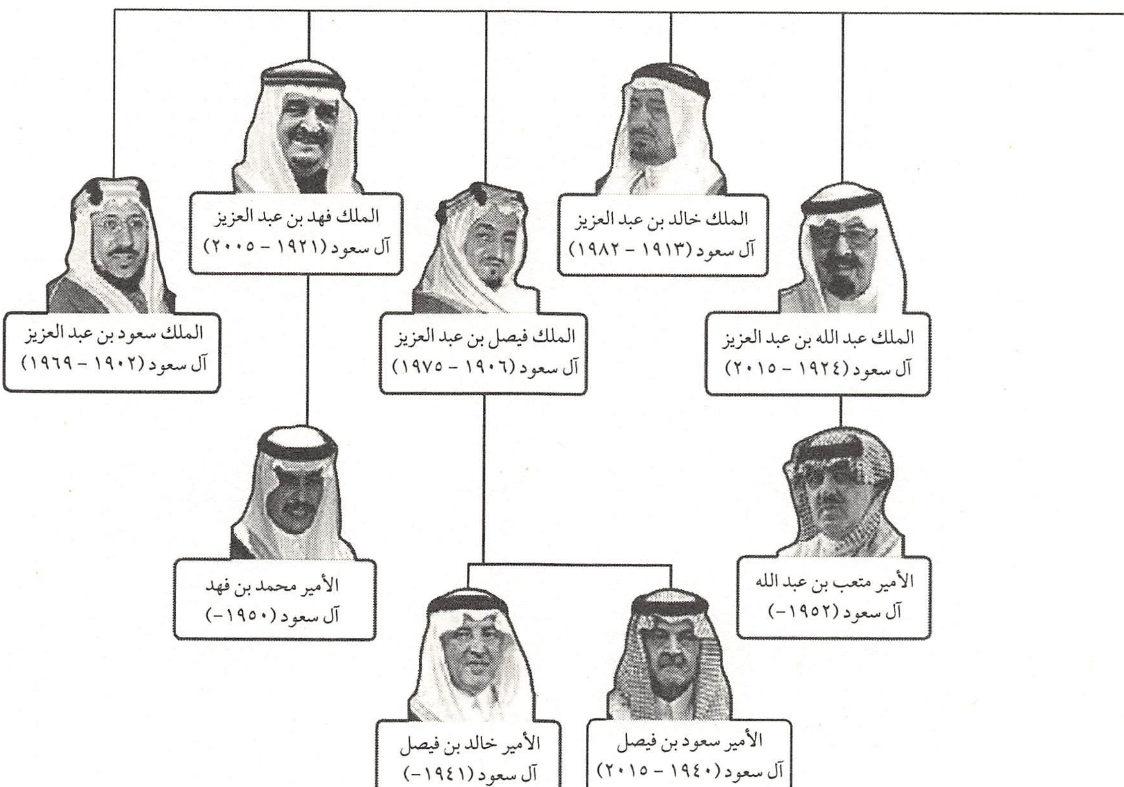
الوهابية: حركة إصلاح طهرانية أطلقها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢)، وهي تسعى للعودة إلى المجتمع المثالي للمسلمين الأوائل. يكافح دعاةُ هذه الحركة الكفارَ والوثنيةَ وهم معادون للشيعة. في عام ١٧٤٤ عقد ابن عبد الوهاب تحالفاً مع الحاكم في ذلك الوقت، محمد ابن سعود. ما زال هذا التحالف قائماً حتى اليوم. يفضل أتباع الوهابية تفادي الظهور بمظهر عبادة ابن عبد الوهاب وبالتالي فهم يطلقون على أنفسهم اسم الموحدين (أي المؤمنين بوحدانية الله) أو السلفيين. ورغم النفوذ الذي تتمتع به هذه الحركة، يشكّل الوهابيون أقلية بين المسلمين السنّة في العربية السعودية.

خريطة


لبنان
سورية
درعا
إسرائيل
العراق
القاهرة
بحيرة الفيوم
الأردن
الكويت
إيران
تبوك
المنطقة الشرقية
العوّامية
جسر الملك فهد
القطيف
الخُبر
البحرين
الظهران
مصر
مدائن صالح
بريدة
القصيم
العُيَيْنة
الرياض
الدرعية
الأحساء
قطر
الخليج العربي
خليج عُمان
مسقط
الإمارات
المدينة المنورة
رابغ
ثُوَل
جدّة
الحجاز
مكة المكرمة
نجد
عُمان
العربية السعودية
عسير
أبها
نجران
جازان
السودان
اليمن
إريتيريا
صنعاء
إثيوبيا
خليج عدن
٢٠٠ كم
جيبوتي
الصومال

العائلة المالكة السعودية




الملك عبد الله بن عبد العزيز
آل سعود (١٩٢٤ - ٢٠١٥)
الملك خالد بن عبد العزيز
آل سعود (١٩١٣ - ١٩٨٢)
الملك فيصل بن عبد العزيز
آل سعود (١٩٠٦ - ١٩٧٥)
الملك فهد بن عبد العزيز
آل سعود (١٩٢١ - ٢٠٠٥)
الملك سعود بن عبد العزيز
آل سعود (١٩٠٢ - ١٩٦٩)
الأمير متعب بن عبد الله
آل سعود (١٩٥٢-)
الأمير محمد بن فهد
آل سعود (١٩٥٠-)
الأمير سعود بن فيصل
آل سعود (١٩٤٠ - ٢٠١٥)
الأمير خالد بن فيصل
آل سعود (١٩٤١-)

مقدمة

ثورة في عاصمة النفط؟

لسنوات طويلة، كانت المملكة العربية السعودية بنظر الغرب بلد شيوخ النفط ذوي الثراء الفاحش لدرجة أن صنابير حماماتهم كانت مصنوعة من الذهب الخالص. وكان هؤلاء الشيوخ، الذين يعيشون على عائدات الذهب الأسود، يظهرون وكأنهم خارجون لتوهم من «مغامرات تان تان». جرى تقديمهم بصورة من لا يفعلون شيئاً سوى إقامة الحفلات الماجنة على الشواطئ الفرنسية، وشراء نصف أسهم محلات هارودز عصر أحد الأيام، وامتطاء جِمالهم والسير في مفارز صحارى لا تعرف حدوداً بحثاً عن آبار نفط جديدة. أما زوجاتهم، فقد كان الغربيون يرونهن مخلوقات بائسات يقبعن في البيوت ويلتحفن بالسواد من قمة الرأس إلى أخمص القدم في الأماكن العامة. والواقع أن [معظم] الأماكن المقدسة الإسلامية موجودة في العربية السعودية.

ولكن عقب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، تحوَّل أولئك الشيوخ إلى متطرفين سنّة، بزعامة أسامة بن لادن، يتآمرون لتفجير العالم. بدأ رجال الدين المتطرفون بالدعوة إلى كراهية كل من يخالفهم الرأي، سواء أكان مسلماً أو كافراً، ويحرضون جماعات الشباب السعوديين على بث بذور الإرهاب خارج بلادهم تحت راية القاعدة، وفي نهاية المطاف داخل بلادهم.

ولكن يبدو حالياً أن الشباب السعوديين قد تخلوا، وإلى حد كبير، عن الفكر المتطرف. وثمة تساؤل إن كان أولئك الشباب سيظلون محصَّنين في وجه تأثير الشباب في البلدان العربية الأخرى الذين ثاروا، وإن بدرجات متفاوتة من النجاح، ضد الأنظمة الاستبدادية خلال السنوات القليلة الماضية. فبالرغم من كون العربية السعودية دولة نفطية ثرية، فإنها تعاني العديد من المشاكل التي تعانيها كل من مصر وتونس وسورية، بما في ذلك وجود شعب فتي ومعدل بطالة مرتفع وقمع وفساد.

وقد ثبت أن كل ذلك شكَّل مزيجاً متفجراً خطراً في البلدان العربية الأخرى، بالتالي، فإننا لن نفاجأ تماماً إذا خرجت تظاهرات ضخمة في شوارع الرياض وجدة، على نحو مفاجئ، وأدت إلى سقوط العائلة المالكة ولجوء الأمراء إلى الولايات المتحدة، وتسلُّم نظام ثوري للسلطة. سيستمر النفط في التدفق، بالطبع، لأن الحكام الجدد يحتاجون أيضاً إلى المال لتمويل نظامهم الجديد،

لكن ما يمكن أن يحدث في السعودية سوف يتكرر في كل أنحاء منطقة الخليج ويتهاوى الأمراء تباعاً، أما الإيرادات التي كانت في الماضي تُبقي النظام المحافظ قائماً في السلطة، فسوف تملأ خزائن الحركات الثورية في الأردن والمغرب ومصر واليمن. سوف تجد إسرائيل نفسها محصورة في الزاوية، أما الغرب فسوف يتخبط سعياً للتوصل إلى استجابة مناسبة.

يوم الغضب

مع ذلك، لم يحصل أيٌّ مما ذُكِر، حتى الآن، في العربية السعودية رغم أننا لا نستطيع أن ننكر أن الاحتجاجات المستمرة منذ سنوات، التي يقوم بها أفراد الأقلية الشيعية في الجزء الشرقي من المملكة، ضد وضعهم كمواطنين من الدرجة الثانية تُعتبر جرحاً لا يندمل. ما من شك في أن السلطات السعودية تشعر بالقلق إزاء تلك الاحتجاجات، ولا سيَّما بالنظر إلى وجود دولة جارة شيعية قوية، وهي إيران، تنظر إليها السلطات السعودية نظرة ريب وتتهمها بإثارة القلاقل. لكن، لا يوجد، حتى الآن، ما يشير إلى أن التظاهرات الشيعية قد خرجت عن السيطرة، ناهيك بكونها يمكن أن تؤدي إلى أي تداعيات تؤثر في الأغلبية السنية.

عندما انطلقت دعوة من أجل «يوم غضب» سعودي من مواقع فيسبوك، في ربيع عام ٢٠١١، وهو عام حركات التمرد العربية، لاقت تجاوباً لدى الآلاف من مستخدمي فيسبوك. ولكن في اليوم المحدد ليكون «يوم الغضب»، أي في الحادي عشر من آذار/مارس، لم يكن هناك سوى متظاهر واحد، وهو خالد الجهني، الذي تحدى قمع رجال الشرطة في العاصمة الرياض. إذ إن القيام بعدد من الإجراءات، التي تضمنت التخويف (وجود رجال الشرطة)، والرشوة (وعد الملكُ عبد الله بتقديم ٣٦ مليار دولار لتأمين الوظائف والتقاعد والمزايا الاجتماعية الأخرى والإسكان، إضافة إلى الوعد بتقديم المزيد) والروادع الدينية (حرَّم المفتي العام التظاهرات بوصفها لا تمت للتعاليم الإسلامية بصلة)، قد آتى ثماره ولم يشارك أحد في التظاهرات. اعتُقل الجهني ولم يطلق سراحه قبل عام ونصف العام.

بعد انقضاء عامين على يوم الغضب، قامت مجموعة من طالبات كلية علم النفس في جامعة الأميرة نورا بإيراد تداعيات الحراك في كل من مصر وسورية بفزع. وكان رأي الشابات أن الوضع في المملكة لم يكن، بالطبع، بالوضع الأمثل. ولكن، وبالرغم من ارتفاع نسبة البطالة، فإن السنوات الأخيرة شهدت تغييرات نحو الأفضل، وأي مقارنة مع الوضع في مصر تبدو مضللة. خلصت الشابات إلى الاستنتاج بأن القيام بثورة لا يشكل «السبيل الأمثل» لتحقيق الإصلاحات. بل على العكس، فقد خشين فكرة القتال الدائر في الشوارع، كما كان يحصل في سورية. كما أن مصر أيضاً كانت تتخبط في فوضى عارمة. «ثمة خيارات أخرى».

كانت تلك، بالطبع، آراء شابات من الطبقة الوسطى يتمتعن بالامتيازات. لم تكن تلك الشابات ينتمين لعائلات فاحشة الثراء، لكن تلك العائلات، كانت ثرية بما يكفي لتوفير تعليم راقٍ لأبنائها،

ولم تكن لديها مشكلة في طموح بناتها لأن يعملن في مهن ما وفي رغبتهن في استكمال دراستهن خارج البلاد. ويُعتبر الدعم من هذا النوع أمراً أساسياً في العربية السعودية، إذ إن من المستحيل بالنسبة إلى المرأة هناك أن تدرس أو تعمل في أي مهنة دون دعم من الوصي عليها (والدها أو شقيقها). ومع أن بإمكاننا القول إن الأمور تتغير نحو الأفضل في المملكة، فإن الموقع الرسمي للمرأة هناك ما زال موقع القاصر.

عندما زرنا المملكة عام ٢٠١٣، أثنت الطالبات على دور الملك ـ «ليس من الصعب إخبار الملك إذا حصل أي خطأ؛ فهو يصغي إليك». كان عبد الله، الملك آنذاك، معروفاً بميله للإصلاح، رغم أنه كان يلتزم جانب الحذر بهذا الشأن. كان هناك شبه إجماع على امتداح الملك، وفي غياب أي دعوات للثورة، كانت تلك الشعبية، دون شك، عاملاً مهماً. لكن تلك المشاعر الإيجابية لم تشمل الطبقة البيروقراطية التي تليه في المكانة، وهناك شعور حقيقي بالإحباط، ناجم عن البطالة وعن عدم توفر السكن اللائق والفساد، يسود بين الطبقات الأقل تمتعاً بالامتيازات.

ومنذ ذلك الوقت، ظل معظم السعوديين هادئين، لكنْ ثمة شك في أن يستمر الوضع على هذه الحال. وفي آذار/مارس من عام ٢٠١٣، كتب سلمان العودة، وهو شخصية دينية تتمتع بالشعبية، رسالة مفتوحة على موقعي فيسبوك وتويتر يحذِّر فيها بأن على الحكومة الإصغاء لشكاوى مواطنيها على نحو عاجل إذا كان للبلد أن يتفادى اندلاع حريق. بعد ارتقاء الملك سلمان، الأخ غير الشقيق للملك عبد الله، العرش في كانون الثاني/يناير من عام ٢٠١٥، وما تلا ذلك من تعديلات جذرية في القيادات السعودية، رحَّب «العودة» على موقعه في تويتر بتلك «الدينامية» بوصفها «تغييراً طال انتظاره»[1]. لكن إمكانية استمرار هذه «الدينامية»، أو قدرة تجمُّع قوى التشدد والملكية، إضافة إلى العائدات النفطية، على إطفاء جذوة أية نار ثورية، تظل سؤالاً يحتاج إلى الإجابة. هدف هذا الكتاب هو مناقشة كل جوانب هذا السؤال من خلال استعراض عدد من السيناريوهات المحتملة، التي تختلف ما بين سيناريوهات إبقاء الأمور على ما هي عليه، والانقطاع التام عن النظام الحالي.

---

(١) «Saudi Responses to the King's Decisions,» *Middle East Monitor* (30 January 2015), <https://www.middleeastmonitor.com/20150130-saudi-responses-to-the-kings-decisions> (Last accessed by 14 September 2014).

الفصل الأول

لا تخشَ أعداءك:
رجال الدين والعائلة المالكة ـ في الوحدة قوة

تنظم السلطات السعودية من حين لآخر حملات يعوزها الحماس لجذب السياح الأجانب لزيارة البلد. في عام ٢٠٠٠، شُكِّلت لجنة وطنية للسياحة، لكن التأشيرات السياحية الموعودة لم تر النور، وما زال من المستحيل عملياً دخول أراضي العربية السعودية إلا للحجاج المسلمين أو بموجب تأشيرة عمل. يأتي الحجاج كل عام بأعداد تصل إلى الملايين، لكن وجهتهم الرئيسة هي الأماكن المقدسة التي يحظر على السياح من غير المسلمين الدخول إليها.

لكن هذا لا يعني أن العربية السعودية تفتقر للمواقع التي يمكن للسياح الأجانب التمتع برؤيتها. ففي الشمال الغربي من المملكة، مثلاً، تقع مدائن صالح، وهي تضم مئة وواحداً وثلاثين ضريحاً يعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادي، أي أنها سابقة لظهور الإسلام وللعائلة السعودية. في عام ٢٠٠٨، أدرجت منظمة اليونيسكو هذه المنطقة على قائمة التراث الإنساني، وهي تُعتبر أول معلم أثري سعودي يحظى بهذا الاعتراف. وليس من قبيل المصادفة أن الأضرحة المذكورة شبيهة بالأضرحة الوردية اللون المحفورة في صخور بترا في الأردن، وهي مقصد ملايين السياح، إذ إن بترا كانت عاصمة الأنباط (٥٨٦ ق. م. ـ ٦٠٠م.)، وكانت مدائن صالح هي المدينة الثانية للأنباط.

تكشف زيارة مدائن صالح لمحات من جزء من تاريخ شبه الجزيرة العربية، الذي ما زال مجهولاً نسبياً. بل إن بقاء تلك الأضرحة هو معجزة بحد ذاته لأن العربية السعودية لا تكاد تضم أي متاحف، حيث إن كل ما يشبه الفن ما زال محظوراً من جانب رجال الدين المتشددين. كان الدافع الأول في المذهب الوهابي الإسلامي السائد، ذي النزعة الطهرانية المتطرفة، هو تدمير الرسوم والتصاوير باعتبار أنها تروّج الأفكار الوثنية. كما وتتعرض الأضرحة والآثار القديمة الأخرى لهجمات الوهابيين التدميرية، ما أدى إلى فقدان الكثير من الإرث الثقافي والعمراني في البلاد. ففي عام ٢٠٠٢، ثارت

ثائرة الحكومة التركية بسبب تدمير قلعة أجياد، التي يعود تاريخها إلى مئتين وعشرين عاماً والتي بنيت إبان عصر الإمبراطورية العثمانية (١٢٩٩ ـ ١٩٢٣) في مكة وسوِّيت بالأرض بلا رحمة، وذلك لبناء فندق ضخم يضم برج ساعة بارتفاع ٦٠١م، وتُعتبر واجهة الساعة أكبر واجهة ساعة في العالم.

مع ذلك، شهدت الأعوام الأخيرة حدوث بعض التغييرات، فقد افتتح في العاصمة الرياض، عام ١٩٩٩، متحف وطني بديع بلون الصحراء يروي التاريخ الثقافي والسياسي للممالك التي نشأت في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، كما يروي حكاية نشوء السلالة الملكية السعودية الحالية. ولكن في غياب أي صناعة سياحية جدية، يرتاد المتحف زوار قلائل، عدا بعض طلاب المدارس ممن يحدثون صخباً، وبعض المغتربين، وقد يأتي من حين لآخر شاب وفتاة يرغبان في تفادي الأعين المتطفلة، داخل المبنى المكيَّف.

ولكي تفهم الكيفية التي يسير بها المجتمع السعودي، ينبغي العودة إلى محمد بن سعود (حوالى عام ١٧٠١ ـ ١٧٦٥)، الذي شن حرباً انتصر فيها على العائلة الحاكمة في الدرعية. والدرعية، أو ما تبقى منها، هي مدينة صغيرة تقع إلى الشمال الغربي من العاصمة الحالية الرياض، في نجد وهي المنطقة الوسطى في شبه الجزيرة العربية. أصبح ابن سعود حاكم الدولة السعودية الأولى، ويعود السبب، جزئياً، إلى الدعم الذي تلقاه من محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢)، وهو رجل دين ذو نزعة طهرانية متطرفة.

كان ابن عبد الوهاب سلفياً ـ مصلحاً بمعنى الساعي إلى تنقية الدين. وقد اعتبر أن رسالته هي تنقية الدين، بالشكل الذي كان يُمارَس به آنذاك، من كل الشوائب والخرافات. ولكن ثبت لاحقاً أن إصلاحاته كانت بمنزلة التطهير لا التنقية. فقد أمر بهدم الأضرحة والأماكن المقدسة لأن عبادة الأولياء المرتبطة بها كانت قد اكتسبت صبغة وثنية. كما حظر التدخين والموسيقى لأنهما، باعتقاده، يصرفان المرء عن الله الواحد الأحد. أي أن تحريم العلماء في العربية السعودية للفن ولكل ما يُشتَمُّ منه نزعة وثنية، هو من إنجازات محمد بن عبد الوهاب. فسَّر ابن عبد الوهاب القرآن تفسيراً حرفياً وكان على المؤمنين الالتزام قدر الإمكان بتعاليم ذلك الزمان.

لكن تلك الإجراءات المتطرفة والسعي لاستعادة الإسلام المثالي كما كان قديماً، لم تلقَ هوى في نفوس الجميع، وفي عام ١٧٤٤، نفي ابن عبد الوهاب من مسقط رأسه في العيينة، الواقعة على مسافة ثلاثين كم عن الرياض، بعد أن أمر برجم امرأة حتى الموت بتهمة الزنى. مع ذلك، رحَّب به محمد بن سعود في المنطقة التابعة له وعقد معه اتفاقاً يقوم الاثنان بموجبه بضم جهودهما لنشر الدين الإسلامي القويم.

تورد الباحثة في علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية مضاوي الرشيد مقطعاً من الحلف الذي عقده الرجلان: قال محمد بن سعود: «هذه الواحة واحتُك، لا تخشَ أعداءك. والله لو انطبقت علينا

جميع نجْد ما أخرجناك عنا»[1]. أجاب ابن عبد الوهاب: «أنت كبيرهم وشريفهم، أريد منك عهداً على أنك تجاهد في الدين ضد الكفار، والإمامة منك وفي ذريتك وأن المشيخة والخلافة في الدين فيّ وفي آلي من بعدي»[2].

ما زال هذا الحلف قائماً ويكامل فاعليته، وما زال العلماء الوهابيون، الذين يتزعمهم حتى اليوم أحد المنحدرين من صلب ابن عبد الوهاب، مستمرين في دعم نظام آل سعود الذي لا يتدخل بالشؤون الدينية. وباتحادهما يمنحان القوة لبعضهما.

في المتحف الوطني، تفيد المعلومات المتوافرة حول الدولة السعودية الأولى أن الفوضى كانت تعم البلاد قبل مجيء ابن عبد الوهاب. فقد بلغ الانحدار بالمجتمع حداً صار الناس فيه يعبدون الأحجار والأشجار. فرض محمد بن سعود وابن عبد الوهاب تعاليم الإسلام لوضع حد لهذا الانحلال؛ تم القضاء على الفوضى وعاد الإسلام ليعمّ. لكن كل ذلك لم يحل دون غزو الإمبراطورية العثمانية للبلاد، وفي عام ١٨١٨، استسلمت الدرعية بعد حصار دام لعام كامل.

أولاً: قلعة المصمك

بنيت قلعة المصمك في المركز القديم لمدينة الرياض قرب الساحة الكبرى حيث كان يجري قطع رؤوس المحكومين بالإعدام. وكلمة مصمك تعني «يعزز». وعلى غرار المتحف الوطني، لا يمكن اعتبار هذه القلعة موقعاً جاذباً للسياح. فهذا الصرح المبني من كتل طينية ليس بالبناء الضخم أو المهيب، لكنه مع ذلك، شهد المراحل الأولى لعملية توحيد المملكة العربية السعودية بزعامة العائلة السعودية.

بنيت القلعة عام ١٨٦٥، تقريباً. وفي عام ١٩٠٢، حاصر عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣، المعروف باسم ابن سعود)، الذي كان شاباً آنذاك، القلعة بجماعة مؤلفة من خمسين رجلاً وانتزعها من عائلة الرشيد المنافسة التي كانت قد انتزعت القلعة بدورها من السعوديين قبل عامين. ويمكن مشاهدة فيلم آسر يروي تلك الأحداث في المتحف الوطني. قضى ابن سعود وأفراد جيشه الصغير الجزء الأكبر من الليل في الصلاة قبل أن ينسلّوا إلى المدينة في الفجر لمباغتة القلعة. وإذ واجهوا مقاومة مستميتة من المدافعين؛ لوّح ابن سعود بسيفه الضخم متباهياً واقتحم المبنى وذبح الحاكم. إثر سقوط القلعة، بايع المواطنون ابن سعود وأصبحت الرياض مقره الرئيس الذي أسس انطلاقاً منه دولة المملكة العربية السعودية الحالية. وإذا صدقنا ما ورد في الفيلم، كان ذلك حلم ابن سعود وقَدَره أيضاً.

---

(١) Madawi Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2002), p. 17.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦.

مع ذلك، كان يتعيَّن خوض حرب مديدة قبل تأسيس المملكة العربية السعودية الحديثة، في نهاية المطاف، عام ١٩٣٢. استعان آل رشيد بالإمبراطورية العثمانية وتمكنوا من إلحاق هزيمة بابن سعود، وكان رد فعله تشكيل «الإخوان» عام ١٩١٢، وهم ميليشيا بدوية متوحشة فرضت تنقية الدين الإسلامي بقوة السلاح. وحسب تعاليم ابن عبد الوهاب، كان على كل من ينتمي إلى دين مختلف أن يختار بين اعتناق دينهم أو الموت. كما وكانت شبه الجزيرة العربية مسرحاً للقتال بين الأتراك والبريطانيين خلال الحرب العالمية الأولى. وقد شكَّل ذلك خلفية لحملات لورنس العرب: فإلى جانب ابن سعود، كان البريطانيون يدعمون أيضاً الشريف حسين بن علي (١٨٥٤ ـ ١٩٣١)، أمير الحجاز الذي أعلن الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية عام ١٩١٦. تمكن ابن سعود والإخوان في النهاية من هزيمة الشريف حسين وطرده من البلاد عام ١٩٢٥.

لعبت نشوة الانتصار برؤوس الإخوان. فقد رفضوا كل أشكال الحداثة، كالسيارات ومنظومة البرق، ولم يتمكن ابن سعود من وضع حد لهم. ألم يأمر ابن عبد الوهاب بأن يختار كل من لا يتبع المذهب الوهابي بين اعتناق هذا المذهب وبين الذبح؟ شن الإخوان غارات على الكويت والعراق وشرق الأردن، وكانت كلها تحت الحماية البريطانية. في عام ١٩٢٩، قُتل محاربو الإخوان ممن يمتطون الجِمال في معركة سبلة بواسطة البنادق الآلية لجنود ابن سعود الذي لم يكن بوسعه الانخراط في نزاع مفتوح مع البريطانيين.

لكن اكتشاف النفط في المملكة العربية السعودية، وهي أكبر كمية مُكتشفة في العالم، غيّر كل شيء. فبين عشية وضحاها، تحوَّل ابن سعود، القائد العسكري، إلى شخصية دولية، شخص يستحق بالتأكيد أن يتقرَّب منه الآخرون. في عام ١٩٤٥، اجتمع ابن سعود مع الرئيس روزفلت على متن سفينة حربية أمريكية في قناة السويس، وفي ما بعد أجرى مباحثات مع ونستون تشرشل في واحة الفيوم جنوب القاهرة. توفي مؤسس العربية السعودية إثر نوبة قلبية عام ١٩٥٣.

شرعت العربية السعودية منذ ذلك الوقت بانتهاج سبيل التحديث والانفتاح على الخارج. لكن القرآن يظل هو الدستور كما أن الدولة ما زالت تُحكم حسب أحكام الشريعة. وكما يحدث عادة، جرى التخفيف من صرامة العقيدة الوهابية في بعض المواضع. وبرزت طبقة متوسطة أرسلت أطفالها إلى جامعات أجنبية وتعرّفت إلى الأفلام وعروض الأزياء. كما وتكاثرت العائلة المالكة واكتشفت أعدادٌ كبيرة من الأمراء والأميرات أن النفط يوفر لهم دخلاً سخياً لا يدرون كيف ينفقونه. إذ لا يمكن إنفاق كل هذا الدخل على بناء المساجد وفي دفع الزكاة.

ثانياً: احتلال المسجد الحرام

في عام ١٩٧٩، اندلعت الثورة الإسلامية في إيران، الدولة الشيعية المنافِسة للعربية السعودية؛ ودخلت القوات السوفياتية دولةً إسلامية أخرى، وهي أفغانستان؛ كما احتلت جماعة من المتعصبين

الدينيين المسجد الحرام في قلب العالم الإسلامي في مكة، المدينة السعودية المقدسة. كان ذلك العام عاماً بالغ الأهمية بالنسبة إلى المجتمع السعودي، إذ إنه أدخل تغييراً كبيراً على المملكة. أما العالم، فقد توجّب عليه، بدوره، التعامل مع إيران التي شرعت تفرض وجودها، ومع ظاهرة نشوء القاعدة والمجموعات الإسلامية المتطرفة الأخرى.

اجتذبت الثورة الإيرانية والحرب في أفغانستان الكثير من الاهتمام، ولكن لم يُكشَف الكثير عن حادثة احتلال المسجد الحرام. يروي ياروسلاف تروفيموف (Yaroslav Trofimov)، المراسل الأجنبي لصحيفة وول ستريت جورنال (*The Wall Street Journal*) خلال الفترة ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٧، في كتابه حصار مكة (*The Siege of Mecca*) الصادر عام ٢٠٠٧، قصة ذلك الهجوم، ويصف العجز التام الذي أبداه الأمراء السعوديون في التعامل مع هذا الحدث، كما يتحدث عن التداعيات بعيدة المدى لتلك الأحداث على العربية السعودية وعلى العالم[٣]. قابل تروفيموف بعض الشهود وبعض الأفراد الذين شاركوا في احتلال المسجد، ممن ظلوا على قيد الحياة، والداعمين السابقين للناشطين، لكن السلطات السعودية بذلت كل ما بوسعها لمنع الحقائق المتعلقة بهذا الحدث الدامي من الظهور إلى العلن.

كان جهيمان العتيبي (١٩٣٦ ـ ١٩٨٠) حفيد عائلة من ناشطي الإخوان، وكان يعتنق عقيدتهم الطهرانية. كما كان ينتقد أفراد العائلة المالكة الذين ارتد عدد كبير منهم، حسب رأيه، عن العقيدة الصحيحة إلى درجة تنذر بالخطر. وفي ما يتعلق بهذا الشأن، كان العتيبي يعتمد على دعم العلماء من ذوي النفوذ الذين يتوقون لتبنّي موقف متشدد كهذا. وفي يوم الاحتفال ببداية قرن إسلامي جديد، في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٧٩، قام العتيبي بصحبة مئتين وخمسين مسلحاً من المتعصبين الإسلاميين بشن هجوم على المسجد الذي يضم الكعبة المشرّفة. كان الانحلال الذي وصلت إليه البلاد، وانحلال العائلة المالكة التي عقدت تحالفات خاطئة مع قوى مسيحية، وسمحت للنساء بدخول ميدان العمل وسمحت بمباريات كرة القدم وبالأنشطة المشينة من هذا النوع، كانت كلها برأيه علامات على مجيء المهدي المنتظر.

وكان جهيمان العتيبي قد عثر على مهديه المنتظر بشخص صديق له، وهو شاب يُدعى محمد القحطاني (١٩٣٥ ـ ١٩٨٠). لم يكن أحد قد استشعر خطر مخططات جهيمان، وبالتالي، تمكن أفراد مجموعته من دخول المسجد دونما أية عقبات وكأنهم مجرد حجاج. وما إن أصبحوا داخل المسجد حتى أعلنوا مجيء المهدي المنتظر الذي سيطهر العالم من الآثام.

في البداية، أرسل الأمراء المسؤولون عن قيادة الجيش وقوات النخبة، الذين كان عليهم التعامل مع حركة التمرد هذه، قواتهم إلى المنطقة المحيطة بالمسجد دون أية استراتيجية مدروسة. أبيدت تلك القوات على أيدي خصومها، الذين كانوا مجموعة من المتعصبين الدينيين المسلحين جيداً،

(٣) Yaroslav Trofimov, *The Siege of Mecca: The Forgotten Uprising in Islam's Holiest Shrine and the Birth of Al-Qaeda* (New York: Doubleday, 2007).

بالإضافة إلى كونهم يتمتعون بميزة إمكانية الاحتماء في الموقع. أخيراً، أفتى العلماء كارهين باستخدام القوة لطرد المتمردين. وبعد أسبوعين، تمكن الأمراء من تحرير المسجد بمساعدة وحدة مغاوير تابعة للشرطة الفرنسية قامت بتدريب وتوجيه القوات المسلحة السعودية من على بُعْد، إذ إن «الكفار» ممنوعون من دخول مدينة مكة المقدسة. كانت الأرقام الرسمية تشير إلى سقوط ٢٧٠ قتيلاً، في حين وصلت التقديرات غير الرسمية إلى ١٠٠٠ قتيل. أُلقي القبض على معظم المتمردين وتم إعدامهم، بمن فيهم جهيمان. أما المهدي المفترض فكان قد قتل في المعركة ـ وهذا دليل، إن كانت هناك ثمة حاجة إلى وجود دليل، على أنه لا يمكن أن يكون المهدي الحقيقي.

وكانت الشرعية الإسلامية للعائلة المالكة السعودية قد تلقت ضربة بسبب ادعاء القيادة الثورية في إيران أنها تمثل الإسلام الحقيقي الوحيد، ثم جاءت ثورة جهيمان لتزيد في تقويض مكانتها. تمثَّل رد فعل العائلة السعودية بإرسال مجموعات من المتطوعين وأموال دون حساب للجهاد في أفغانستان ضد المحتلين السوفيات، وفي إطلاق حملة واسعة تهدف إلى إحياء الإسلام في المملكة، وخصوصاً في المجال التربوي. كان هذا النظام التربوي الجديد، الذي غرس التعصب في العقول الغضة، تربة خصبة لإنتاج المتطرفين الذين برزوا مطلع تسعينيات القرن العشرين، والذين انقلبوا على العائلة المالكة نفسها بعد عام ٢٠٠٣.

إذا تبادلتَ الحديث مع أفراد من الطبقات الوسطى في العربية السعودية، فسوف يحدثونك عن التغيير الذي حصل في المملكة في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين. تقول الصحافية سمر فطاني من مدينة جدة، وهي ابنة دبلوماسي تلقت علومها في الخارج:

«عدنا جميعاً وكنا نرغب في جعل بلدنا بلداً عصرياً مزدهراً. كانت الفكرة الأساسية هي أن المرأة يجب أن تتاح لها فرصة العمل، لكن تفاؤلنا لم يدم طويلاً. فرغم أن التغيير لم يحصل فجأة، كان بوسع المرء أن يلمس أن الأمور أصبحت أصعب في منتصف الثمانينيات. كان عقد التسعينيات هو الأسوأ، فقد غادر معظم الأجانب البلد ومُنِعت عروض الأزياء وكل أشكال الترفيه بذريعة أنها إثم؛ لم يعد هذا النوع من الحرية موجوداً».

لم تُعرض أي مسرحية غنائية على مسرح دار الأوبرا الذي بُني في الرياض قبيل عام ١٩٧٩. كما مُنع عرض الأفلام. كانت تلك هي الفترة التي وُضِعت فيها، ولأول مرة، حواجز في المطاعم بين الزبائن الذكور وبين القسم المخصص للعائلات. كان المطاوعة، أو «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، يدققون مخططات البناء للتأكد من مطابقتها للمبادئ الأخلاقية الإسلامية.

لكن اختبار هذا الفكر المتطرف العنيف، الذي كان نتاجاً ثانوياً لحركة إحياء الإسلاموية التي نشطت خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، جرى لأول مرة في أفغانستان، وليس في العربية السعودية. فقد لقي الجهاد ضد الاحتلال السوفياتي دعماً من جانب العلماء ومن جانب أفراد الشعب الذين أرسلوا الآلاف من أبنائهم إلى البلد الذي كانت تمزقه الحروب. تستعيد المؤرخة هتون أجواد الفاسي أحداث تلك الفترة بوضوح:

«كنا نشعر أن شيئاً ما يحدث في العالم الإسلامي وأن من واجبنا مساعدة من هم بحاجة لمساعدتنا. بدا الأمر مثيراً وشاعرياً. شهدتُ صحوة الإسلام، ولكن ليس بصورة سلاح مشارك في نزاع، بل كأسلوب يستطيع الإسلام به العودة لِلَعب دورِ رائد الحضارة. لكنني غفلت عن ملاحظةِ أن هناك آخرين كانوا قد عبّأوا قواهم لعسكرة الإسلام ولتفسيره بأكثر الطرق الممكنة تطرفاً».

كان أسامة بن لادن واحداً من الشباب السعوديين الذين هرعوا إلى أفغانستان. في البداية، قدم هؤلاء الدعم إلى المجاهدين، وهم المحاربون المسلمون الأفغان، وفي ما بعد، أي بعد انسحاب القوات السوفياتية عام ١٩٨٩، جاء دور الطالبان، وهم من غير الوهابيين وإن كانوا لا يقلون عنهم تشدداً. موّلت العربية السعودية المساجد المتطرفة في أنحاء متعددة من العالم كما موّلت المدارس الإسلامية في الباكستان.

ثالثاً: تنامي النزعة الراديكالية

أدى وصول مئات آلاف الجنود الأمريكيين إلى أراضي المدينتين المقدستين مكة والمدينة، في أعقاب الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠، إلى تنامي النزعة الراديكالية. وبرَّر المفتي العام، الشيخ عبد العزيز بن باز (١٩١٠ ـ ١٩٩٩)، وجود الأمريكيين بالطبيعة الحرجة للوضع. لكن عدداً كبيراً من رجال الدين أدانوا هذه الفتوى علناً. وجرى تحريض المؤمنين في المساجد والمدارس على الوقوف في وجه الكفار.

في الهجوم الذي تعرضت له الولايات المتحدة عام ٢٠٠١، والذي خطط له أسامة بن لادن، كان خمسة عشر شاباً من المهاجمين، الذين بلغ عددهم تسعة عشر شاباً، من السعوديين. وكان ذلك يمثّل النتيجة المنطقية للدعم الذي لاقاه الجهاد ضد الكفار في أفغانستان، ولتبرير العلماء له وما نتج من ذلك من تخريب لعقول الشباب خلال تسعينيات القرن العشرين. تمثل رد فعل العائلة المالكة في تجاهل الأمر، في البداية على الأقل، دون أن تحرك ساكناً لإعادة الأمور إلى وضعها السابق، أي إلى ما قبل هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين، أضاف بن لادن أفراد العائلة المالكة السعودية إلى قائمة أعدائه اللدودين. حيث صدرت عنه تصريحات نارية تنتقدهم بسبب سماحهم للقوات الأمريكية بالوجود على أرض العربية السعودية. ومن بين تلك التصريحات «بيان الجهاد ضد الأمريكيين الذين يحتلون أرض الحرمين الشريفين» الصادر عام ١٩٩٦، وفيه سَرَدَ بن لادن قائمة مفصلة بجرائم النظام السعودي «المنافق». ووفق أحكام القرآن، فإن المنافقين ﴿مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ [آل عمران: ١٩٧].

إثر هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، طُرحت أسئلة حاسمة تتناول تأثير المذهب الوهابي المتعصب ودور العلماء في المجال التربوي في العربية السعودية. ومع أن بعض علماء السعودية كانوا يعبِّرون عن دعمهم بن لادن علناً في مواعظهم، لم تُظهِر العائلة المالكة أي بوادر

تنمّ عن القلق. كان بإمكان رجال الدين المتطرفين مواصلة توجيه التهديدات بالقتل إلى أعدائهم العلمانيين الداخليين من غير رجال الدين، وإلى الأعداء الإسرائيليين والأمريكيين الخارجيين، شرط عدم تهديد النظام السياسي في بلدهم صراحة.

لكن الأمور تغيرت بعد الثاني عشر من أيار/مايو من عام ٢٠٠٣، عندما قُتل خمسة وثلاثون شخصاً في سلسلة من الهجمات الانتحارية المتزامنة على مجمعات سكنية خاصة بالأجانب في مدينة الرياض. جرى اعتقال معظم رجال الدين المتطرفين ـ أدرك النظام أخيراً الخطر الذي يمثله هؤلاء وغيَّر توجهاته طبقاً لذلك.

لاحقت القوى الأمنية المتطرفين الإسلاميين دون رحمة، أضحت وسائل الإعلام أكثر انفتاحاً وصار بالإمكان، ثانية، التشكيك بطريقة تفسير بعض الزعماء الدينيين للدين. كما حُذف من الكتب المدرسية المبدأ الذي يدعو المسلمين إلى معاداة أتباع الديانات الأخرى.

لكن تلك التغييرات لم تلاقِ تجاوباً عاماً. وهنا يمكن أن نذكر قضية محمد الحربي، وهو مدرِّس في مدرسة البكيرية. في عام ٢٠٠٥، حُكم على الحربي بالسجن ثلاث سنوات وبسبعمئة وخمسين جلدة، بمعدل خمسين جلدة في الأسبوع. واستناداً إلى ما ورد في الصحافة السعودية، كان الحربي يستخدم مقالات الصحف لتحذير طلابه من مغبة التطرف والإرهاب. كان رأي القاضي أن الحربي سخر من الإسلام وأنه قوّض إيمان الطلاب وشجّعهم على اتباع البِدَع.

بعد بضع سنين، أعلن خليل الخليل، وهو خبير أمني وعضو، آنذاك، في مجلس الشورى، وهو المجلس الاستشاري الذي يعيّن الملك أعضاءه، أن الأمور بمجملها قد تغيرت نحو الأفضل، رغم أنه، وخلافاً لمعظم السعوديين الآخرين المطّلعين على دخائل الأمور، كان لا يزال يعتقد أن التطرف «بالغ الخطورة». قال الخليل: «لم ينته الخطر بعد. لا تقللوا من شأن المتطرفين فهم ليسوا أشخاصاً مجانين، بل مجموعة جيدة التنظيم لها اتصالاتها الدولية وتتلقى تدريباً جيداً».

الأمر الذي تحسّن، برأي الخليل، هو أن الشعب صار يتحسس التهديد الذي يمثله المتطرفون. لكن المجال التربويّ ظل يمثل إشكالية. «لقد سيطر المتطرفون على المجال التربوي سيطرة تامة، الآن وقد أصبحنا نعي خطر ذلك، كيف نتخلص من كل أولئك المتطرفين؟ هذا السرطان يمثل مشكلة إنسانية ـ المشكلة تكمن في المدرّسين لا في الكتب».

رابعاً: مراكز التسوق

قد يفاجأ الزائر في مدينة الرياض بوجود صروح عصرية تجاور أبنية قيد الإنشاء ذات تصاميم أكثر حداثة وجرأة. كما ويشاهد الزائر الثياب الباهظة الثمن الآتية من دور الأزياء العالمية والثياب الداخلية النسائية الفاضحة معروضة في مراكز التسوق المتألقة بالأنوار الباهرة. قرب صالة عرض أيكيا نشاهد مطعم ماكدونالدز. وهنا قد يتراءى للمرء أن ثمة تحولاً حاسماً قد طرأ نحو قيم علمانية

أو «كافرة». كما يبدو أن ابن عبد الوهاب والإخوان وأسامة بن لادن قد هزموا ومُرِّغت أنوفهم في التراب.

ولكن، ينبغي ألّا يخدعنا كل ذلك، كما يقول المؤرخ وكاتب السِّيَر البريطاني روبرت ليسي (Robert Lacey)، مؤلف الكتابين الرائجين: المملكة (*The Kingdom*)، الصادر عام ١٩٨١؛ وداخل المملكة (*Inside the Kingdom*)، الصادر عام ٢٠٠٩[٤]؛ إذ يعتقد المؤلف أن الإسلام الوهابي بخير وأن المعارضة للملك تأتي بمعظمها من الجماعات المحافظة:

«يعارض رجال الدين منْح حقوق أكبر للمرأة، وتُظهر المناقشات الجارية على موقع تويتر، بوضوح، أن غالبية السعوديين هم من المحافظين. تلك هي المشكلة في العربية السعودية، وليس الناشطين الداعين إلى الديمقراطية، المعزولين نسبياً، مثل صديقي محمد القحطاني [وهو ناشط ليبرالي في مجال حقوق الإنسان، حكم عليه في آذار/مارس من عام ٢٠١٣ بالسجن لمدة عشر سنين]. تتشكل قاعدة المعارضة من رجال الدين الساخطين الذين يعتقدون أن الحكومة تبدي تساهلاً شديداً إزاء أشخاص كالقحطاني وإزاء أفكارهم الغربية. ويعتقد السعوديون المحافظون، بمن فيهم النساء، أنه في حال منْح المرأة صوتاً في مجلس الشورى، فسوف نفاجأ في اليوم التالي بوجود أعداد كبيرة من الأمهات العازبات».

يعتقد ليسي، الذي عاش في العربية السعودية لأربع سنوات، أن هناك تياراً خفياً من السخط وأنه لا يوجد من هو راضٍ تماماً عما لديه:

فـ «التجار في جدة، يشعرون بالغضب بسبب المعاملة التفضيلية التي يلقاها رجال الأعمال في نجد، والناس في الجنوب يعتقدون أن الشمال يحصل على الكثير، هناك شتى أنواع الانقسامات. أما العائلة السعودية فهي عالقة في الوسط وهي تحاول الحفاظ على التوازن بين كل تلك المطالبات المختلفة في مجتمع كان يتسم سابقاً بالعنف المفرط.

ويعود سبب ترحيب العديد من السعوديين بالربيع العربي، في البداية، إلى اعتقادهم آنذاك بوجود إمكانية لتحقيق حلم إقامة نظام إسلامي من خلال الوسائل الديمقراطية. في المقابل، وبالنسبة إلى العائلة المالكة السعودية، كانت الثورات العربية تمثل خطراً جديداً.

أما الآن، فإننا نلاحظ أن إغراء الديمقراطية لم يعد يلاقي هوى لدى العديد من الشباب السعوديين، بعدما آلت إليه الأمور من أوضاع مؤسفة في مصر وسورية».

---

(٤) Robert Lacy: *The Kingdom* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1981), and *Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia* (New York: Viking, 2009).

الفصل الثاني

سيف الإسلام ذو الحدين:
الحلف المقدس في مرمى النار

ما زال ميثاق التعاون المتبادل، الذي عُقد في القرن الثامن عشر بين ابن سعود وابن عبد الوهاب، قائماً حتى اليوم. وبموجب شروط هذا التحالف القديم، الذي يمكن وصفه أيضاً بتسوية ملائمة للتشارك بالقوة، يضمن رجالُ الدين الوهابيون، أو على الأقل العلماء الرسميون، الشرعيةَ السياسية للعائلة السعودية. وبدورها، تمتنع العائلة المالكة عن أي تدخل في الشؤون الأساسية للمؤسسات السنية المتشددة داخل المملكة، التي يصر رجال الدين المحافظون، على وجودها. أمكن بذلك تفادي كل المخاطر لغاية الآن، لكن هناك مخاطر جديدة تلوح في الأفق.

لم تكن الأمور في الماضي تجري على هذا النحو من السلاسة، وكان على كلا الطرفين تقديم التنازلات. في عام ١٩٦٠، أدخل ولي العهد آنذاك، الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود (١٩٠٦ ـ ١٩٧٥)، إلى المملكة التعليم للإناث. وكان ذلك بشرط أن يتم تدريس الإناث حسب التعاليم الإسلامية، وكانت حجته أن المرأة المتعلمة تصبح زوجة أفضل وأمّاً أفضل. كما تمكّن الأمير فيصل، عام ١٩٦٣، من فرض البث التلفزيوني مقابل التعهد بأن تكون البرامج ضمن حدود الحشمة وأن يكون للبرامج الدينية حصة وافية. وشاءت الصدف أن يؤدي وجود التلفزيون إلى اغتيال الأمير فيصل. فقد حصل أن أُطلِقت النار على أحد المتعصبين، وكانت تربطه بالأمير قرابة بعيدة، أثناء هجومه على مبنى جديد للتلفزيون، فلقي حتفه، وفي عام ١٩٧٥ ثأر شقيق هذا الشخص لمصرعه.

أثناء احتلال المسجد الحرام في مكة، عام ١٩٧٩، الذي جاء تعبيراً عن الاحتجاج على التردي الأخلاقي للعائلة المالكة، اضطر الأمراء إلى بذل جهود استثنائية للحصول على موافقة العلماء على مهاجمة المحتلين المتعصبين. ولم يكن للأمراء، من دون هذه الموافقة، أن يجرؤوا على اللجوء

إلى العنف الذي كان ضرورياً لاستعادة البناء المقدس والحرم المحيط به. في المقابل، اضطرت العائلة المالكة إلى إبداء التسامح لفترة طويلة إزاء أنشطة الأسلمة الراديكالية، وذلك بهدف استعادة التوازن. أدى ذلك إلى شطط مروّع من جانب وعّاظ حركة الصحوة الإسلامية، الذين مهّدوا السبيل أمام الهجمات الإرهابية الإسلامية في أنحاء العالم، بسبب خطبهم التي كانت تنضح بالكراهية ضد اليهود والمسيحيين، وحتى ضد المسلمين الذين لا يشاطرونهم وجهة نظرهم في الإسلام. وفي ما بعد، وعندما بدأت الأعمال الإرهابية تستهدف الأمراء، لجأت العائلة المالكة إلى اتخاذ إجراءات صارمة لمعالجة الوضع. ولكن يمكن القول إن رجال الدين كانوا، في نهاية المطاف، يساعدون العائلة المالكة على البقاء.

أولاً: الختم المطاطي

في مستهل القرن الحادي والعشرين، لم يعد بمقدور العائلة المالكة ولا رجال الدين الاستمرار في عزل البلاد عن باقي دول العالم؛ فقد ألغت شبكة الإنترنت والقنوات الفضائية كل الحدود. كان الوطن العربي يعيش حالة غليان، وأثّرت الأفكار الثورية حتى في السعوديين. وفي عام ٢٠١١، كان العلماء هم من أنقذوا العائلة المالكة، وللمرة الثانية، من وضع صعب، عندما بدأت الدعوات تنتشر على صفحات فيسبوك، على غرار ما حصل في تونس ومصر، داعية الناس إلى الخروج إلى الشوارع والتظاهر. فقد شجب المفتي العام، عبد العزيز آل الشيخ، كل التظاهرات بوصفها خروجاً عن تعاليم الإسلام لأنها لا تؤدي سوى لنشر الفوضى. قال المفتي: «الاحتجاجات من هذا النوع لا علاقة لها بالإسلام لأن الإسلام يدعو إلى الحوار»[1]. لم يخرج إلى الشارع سوى متظاهر واحد.

وهنا يتساءل المرء عن مدى استقلالية مؤسسة رجال الدين في الوقت الذي يستمرون فيه في إقرار سياسات الحكومة. هل تحوّلت هذه المؤسسة إلى ختم مطاطي لمدى التوافق مع الدين تُختَم به الإجراءات التي ترتئي الحكومة، لسبب أو لآخر، أنها ضرورية، لتضفي بذلك الشرعية على تلك الإجراءات بنظر الطبقات المتشددة في المجتمع؟ كما عندما حظّرت التظاهر، على سبيل المثال، أو عندما تجاهلت، قبل أعوام ـ أي في عام ١٩٩٠ ـ وجودَ القوات الأمريكية «الكافرة» على أرض الحرمين الشريفين؟ الواضح هنا، أن طبقة رجال الدين، نفسها، منقسمة بين «المؤسسة» من جهة، والزعماء الدينيين الذين لا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم، من جهة أخرى. ولم يكن من باب العبث أن الملك عبد الله أعلن، عام ٢٠١٠، أن العلماء في المراتب العليا هم فقط من يحق لهم إصدار الفتاوى. لكن رجال الدين من غير الرسميين لديهم شبكة الإنترنت ليصدروا الفتاوى من خلالها.

---

(١) «Saudi Grand Mufti Slams Popular Protests as Anti-Islamic,» *Daily News Egypt*, 28/11/2012, <http://www.dailynewsegypt.com/2012/11/28/saudi-grand-mufti-slams-protests-as-anti-islamic/>, (last accessed 30 March 2013).

كان الملك عبد الله إصلاحياً أيضاً، وإن كان أكثر حذراً من أخيه غير الشقيق، فيصل. ويعارض رجال الدين حالياً إصلاحاتِ عبد الله بالضراوة ذاتها التي احتجّوا بها على إدخال فيصل تعليم الإناث. لكنهم الآن ينشرون آراءهم على صفحات تويتر أو فيسبوك أو وسائل التواصل الاجتماعي الأخرى. فرغبتهم في منع تطبيق تلك الإصلاحات الاجتماعية لا تعني أنهم يتحاشون وسائل الاتصالات الحديثة. بل على العكس، هناك رجال دين يتباهون بأن لديهم ملايين المتابعين على موقع تويتر، رغم تلميح النقاد بأن جزءاً كبيراً من أولئك المتابعين قد جرى شراؤهم بالمال.

في شهر شباط/فبراير من عام ٢٠١٣، جرى تعيين ثلاثين امرأة متعلمة، محجبات وملتحفات بالسواد من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، أعضاء في مجلس الشورى. وبذلك برّ الملك عبد الله بالوعد الذي كان قد قطعه قبل عامين من ذلك التاريخ. كما مُنحت النساء حق التصويت في الانتخابات البلدية التالية. ولم تُعلَن أية انتخابات أخرى حتى الآن.

كان ذلك يمثل إصلاحاً مهماً. أثناء أداء النساء اليمين، استدعى الملك المفتي العام لحضور مجلس الشورى ليُظهِر لمشاهدي التلفزيون أن قراره يحظى بمباركة رجال الدين، أو على الأقل بمباركة المؤسسة الدينية. جاء رد فعلِ العلماء الراديكاليين فورياً وشرساً وهمجياً إلى حدٍ مناف للطبيعة. كتب أحمد عبد القادر، مثلاً، في صفحته على تويتر: «زعموا استغفال المفتي بِعَرْض الساقطات لإضفاء الشرعية عليهن». وحذّر آخر، وهو ناصر العمر في صفحته على تويتر، من هذا «التشبه بالغرب» ـ وهو يعني بذلك كل ما لا يتماشى مع العقيدة الوهابية ـ فالبدايات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة»[٢].

بلغ الغضب ببعض رجال الدين حداً دفعهم إلى التظاهر شخصياً خارج المجلس، ويبدو أنهم نسوا شجْب المفتي العام للاحتجاجات في الشوارع. وفي فيلم فيديو على موقع يوتيوب، ذكره المدوّن أحمد العمران من المكتب الصحفي غير الرسمي، مكتب الرياض، يقول أحدهم إن «تلك التعيينات الأخيرة من مجلس الشورى لا تمثل الناس الشرفاء»[٣].

ثانياً: الشكاوى

لم يكن اعتراض المتظاهرين منصبّاً فقط على تعيين أعضاء من النساء في مجلس الشورى. قدّم مكتب عمران الصحفي في الرياض ملخّصاً لشكاوى هؤلاء، وهي مزيج من القضايا الثقافية والاقتصادية والراديكالية والمحافِظة. كانوا معارضين لأسواق الكتب والنوادي الأدبية والمقاهي، ومعارضين لمنح المزيد من حرية التعبير في وسائل الإعلام ـ وهي تطورات «تؤدي إلى الفوضى

(٢) «"Prostitutes": Saudi Cleric Insults Recently-appointed Female Shura Members,» Al Arabiya News, 24 February 2013, <http://english.alarabiya.net/articles/2013/02/24/268123.html> (Last accessed 30 March 2013).

(٣) «What Is Behind the Clerics Royal Court Protest,» Riyadh Bureau, 20 January 2013, <https://riyadhbureau.wordpress.com/2013/01/20/20131behind-clerics-royal-court-protest/> (Last accessed 30 March 2013).

الفكرية والفجور الثقافي». احتج هؤلاء على الإصلاحات التربوية التي تهدد الفصل بين الجنسين، وعلى ملايين اليوروات التي تُنفَق على البعثات التي تُمكّن أعداداً كبيرة من الشباب السعودي من الدراسة في الخارج. وتُعتبر هذه الإصلاحات والبعثات من أنجح برامج الملك الراحل، وهي تسمح لشباب المملكة بالتعرف إلى الثقافات الأخرى.

كما عبّر رجال الدين المحتجون عن شكواهم من «تطبيع اختلاط الجنسين في المجتمع» من خلال تشجيع النساء على العمل في المتاجر والمصانع والمطاعم وما شاكل[٤]. والواقع أن هذا التطور الأخير يمثل تغييراً هائلاً في العربية السعودية. فقد بوشر في تطبيق برنامج لإتاحة فرص العمل للنساء بدعم من الملك، ولولا هذا الدعم لم يكن ليُقدَّر لهذا البرنامج أن يرى النور. كما احتجوا أيضاً على مشاركة شابتين في الألعاب الأولمبية التي أقيمت في لندن صيف عام ٢٠١٢ ـ وهي شكوى شاركهم فيها المفتي العام الذي صرح بأن «على النساء أن يكنَّ ربّات بيوت. ولا داعي لمشاركتهن في الألعاب الرياضية»[٥] ـ وعارضوا ما اعتبروه هدراً للمال العام، وغياب سياسة إسكان سليمة، والخدمات الصحية المتردية واحتجاز المواطنين دونما مسوِّغ قانوني.

وهنا يتوجب الاعتراف بأن القضايا الأخيرة، التي توجد الكثير من الشكاوى بشأنها، لا علاقة لها بالإسلام الوهابي بحد ذاته. لكن الشؤون التي غالباً ما تستقطب اهتمام وسائل الإعلام الغربية هي الاحتجاجات ضد مشاركة المرأة في الأنشطة الرياضية وضد عمل المرأة، بذريعة أن ذلك مخالف للهوية الإسلامية للبلاد. والواقع أن وعّاظاً مسنين آتين من أقاصي المملكة هم من يظهرون، أحياناً، في وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية ليعبّروا عن آرائهم بشأن وجوب ارتداء الطفلات للحجاب حتى لا يستثرن شهوة الذكور[٦]. أما السعوديون أنفسهم، فهم عادة ما يُبدون عدم الاكتراث.

لا يمكن القول إن كل رجال الدين الوهابيين الراديكاليين هم أشخاص ساذجون خارجون عن الجماعة. ولنأخذ مثالاً على ذلك الشيخ محمد العريفي (المولود عام ١٩٧٠)، وهو أحد الشيوخ الذين يُستشارون بسهولة، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بالتهاون بشأن الفصل بين الجنسين (أو تشجيع الاختلاط). يتصدر العريفي، وهو أستاذ في جامعة الملك سعود في الرياض، قائمة المشتركين السعوديين الأكثر شعبية في موقع تويتر، إذ يبلغ عدد متابعيه، لحظة كتابة هذه السطور ٣,١٠ مليون متابع. ثمة من يقول إنه اشترى بعض هؤلاء بالمال، ومن الواضح أنهم ليسوا جميعاً من مؤيديه، مع ذلك، فهو يستقطب قدراً كبيراً من الاهتمام.

وها هو مثال عن سؤال وُجِّه إلى العريفي على موقع تويتر: ما هو الرأي الصواب بمسألة الاختلاط؟ وما هو الدليل عليه؟ MohamadAlarefe@: «الاختلاط محرم لأنه يؤدي إلى الشرور.

---

(٤) المصدر نفسه.

(٥) «Questions and Answers on the Olympics, Women and Sports in Saudi Arabia,» Human Rights Watch, 15 February 2012, <http://www.hrw.org/fr/node/105175> (Last accessed 30 March 2013).

(٦) ««Burkas for Babies»: Saudi Cleric's New Fatwa Causes Controversy,» Al Arabiya News, 3 February 2013, <http://english.alarabiya.net/articles/2013/02/03/264031.html> (Last accessed 30 March 2013).

قال الله تعالى: ﴿... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾[٧].

تقول إيمان النفجان في مدوَّنتها «النساء السعوديات» إن العريفي «هو رزمة متكاملة. هو بْرَاد بِت المشيَخَة (Brad Pitt of Sheikhdom)»[٨]. بعبارة أخرى، يتمتع العريفي بجاذبية جماهيرية، وتمضي إيمان قائلة: «يبدو وكأنه يتمتع بقوى خارقة للتنويم المغناطيسي، فحتى النساء يتقبلن أن يقال لهم إنهن أدنى من الرجال عندما تصدر الكلمات من فمه». مع ذلك، هناك أيضاً أفلام يوتيوب ينصح فيها العريفي الرجالَ أن يضربوا نساءهم برفق. أي أن الرجال يجب ألّا يضربوا نساءهم ضرباً مبرحاً بحيث «يشوهون وجوههن» ولكن يمكن لهم ضربهن من حيث المبدأ.

وغني عن القول إن العريفي يعارض أيضاً قيادة المرأة للسيارة، ويؤيده المفتي العام في رأيه هذا، لأن النساء عندما يقدن السيارة يرتكبن حوادث. وعندما «تكون النساء في خطر، فإنهن لا يدرين كيف يتصرفن. فكيف يمكن لهن التعامل مع الحوادث»[٩]؟ ويرأي العريفي أن نساء الرياض اللواتي حكم عليهن بعقوبات قاسية بسبب احتجاجهن على منعهن من قيادة السيارة، إذ قمن بقيادة السيارات في شوارع الرياض عام ١٩٩١، كان ينبغي ألا يُسمح لهن بالعودة للعمل في الجامعات بعد انقضاء مدة العقوبة. إذ إنهن نساء متحررات وأصبح بإمكانهن العودة لنشر أفكارهن. تقول إيمان النفجان إن العريفي اقترح إصدار قانون يقضي بمنع النساء المتحررات من ترويج أفكارهن الآثمة بوصفهن مدرّسات في المدارس والجامعات. ويتوجب عليهن الالتزام حرفياً بما يرد في الكتب المدرسية.

لم تقتصر تصريحات العريفي المثيرة للجدل على موضوع النساء. ففي مقابلة تلفزيونية أُجريت في شهر شباط/فبراير من عام ٢٠١٣، قال العريفي إن أسامة بن لادن تعرض لاغتيال شخصيته وإن القاعدة لم تكن تجيز سفك الدماء[١٠]. من جهة أخرى، صرّح العريفي على شاشة التلفزيون أن «لا شك بأن تعلّق النفس بالجهاد في سبيل الله، ورغبة النفس لسفك هذا الدم وسحق الجماجم وتقطيع الأعضاء في سبيل الله جل وعلا ودفاعاً عن دينه، لا شك أنه شرف للمؤمن»[١١].

وفي مؤتمر عُقد في القاهرة، في حزيران/يونيو من عام ٢٠١٣، دعا العريفي إلى شن حرب مقدسة في سورية تُخاض «بجميع السُّبُل الممكنة». لكن كل ذلك لم يمنعه من التوجه إلى لندن التي

(٧) القرآن الكريم، «سورة الأحزاب،» الآية ٥٣.

(٨) «Prominent Saudis: Sheikh Mohammed Al Arefe,» Saudiwoman's Weblog, 13 September 2008, <http://saudiwoman.me/2008/09/13/prominent-saudis-sheikh-mohammed-al-arefe> (Last accessed 30 March 2013).

(٩) «Saudi Mufti Says Women Driving Not in their Interest,» Riyadh Bureau, <https://riyadhbureau.wordpress.com/tag/grand-mufti/> (Last accessed 30 March 2013).

(١٠) «Major Saudi Cleric Defends Bin Laden on Al-Jazeera,» Al Arabiya News, 8 February 2013, <http://english.alarabiya.net/articles/2013/02/08/265035.html> (Last accessed 30 March 2013).

(١١) «Islam-Sheikh Arifi,» Youtube, 27 February 2012, <https://www.youtube.com/watch?v=LX68g2fUh8s> (Last accessed 30 May 2014).

وصفها، بحسب ما ورد في القناة الفضائية السعودية «العربية»، بأنها «مكان ينبغي على المسلمين أن يتجنبوا زيارته في أوقات الأزمات»[12]. كتب العريفي في صفحته على موقع تويتر، من لندن، «لقد اختلطتُ بالشعب البريطاني في لندن ووجدته لطيفاً ومهذباً يحترم سائر الأديان»[13]. كما نشرت الصحيفة السعودية عكاظ أنه كان يسجل برنامجه التلفزيوني الجديد «رحلتي مع العريفي» في لندن. في حزيران/يونيو من عام ٢٠١٤، مُنع العريفي من دخول بريطانيا بتهمة تحريض الشباب البريطانيين على القتال في سورية والعراق. أنكر العريفي أنه قال ذلك.

ثالثاً: الخطر

بعد عودة العريفي إلى العربية السعودية حُكم عليه بالإقامة الجبرية، كما ورد في صفحته على فيسبوك ـ لكن السلطات لم تُشر إلى ذلك الأمر. واستناداً إلى ما قاله أحد أصدقاء العريفي، كان سبب الحكم هو دعمه العلني للرئيس المصري المخلوع محمد مرسي ومناشدة السلطات دعم مرسي. فالسلطات السعودية تدعم الانقلاب العسكري الذي أطاح مرسي والإخوان المسلمين عام ٢٠١٣، كما تشهد بذلك المساعدة التي تقدر بمليارات الدولارات والتي مُنحت لمصر بعد الانقلاب. في تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠١٤، سُجن العريفي لأربعين يوماً، بعد انتقاده القطار الواصل بين الأماكن المقدسة على موقع تويتر، واصفاً إياه بأنه «الأسوأ في العالم»[14].

وهنا يتضح ثانية، أن رجال الدين في العربية السعودية يتمتعون بقدر كبير من الحرية لقول ما يرغبون بقوله، وأن السلطات تلجأ للتصرف فقط عندما تتعرض مصالح الحكومة للتهديد. فالجهاد في سورية ضد نظام بشار الأسد يتمتع بدعم الأسرة المالكة؛ وهنا يحق للعريفي التعبير عن تأييده للحرب المقدسة، في حين يُحظّر، وبكل صرامة، إبداء الدعم لمرسي أو انتقاد الخدمات العامة. فالإخوان المسلمون يمثلون حركة إسلامية إصلاحية ثورية لا تتعاطف مع الملكيات المحافِظة وبالتالي فهي حركة تُعتبر خطرة.

ولكن ما مدى الخطر الذي يجسده العريفي؟ صحيح أن له، كما يقال، ثلاثة عشر مليون «متابع»، وأن موقع تويتر كاد ينفجر لكثرة الاحتجاجات الواردة إليه لدى اعتقاله، ولكن يصعب أخذه على محمل الجد لدى رؤية أفلامه على موقع يوتيوب. فمن الواضح أنه شخص يحب بريق الشهرة. وقد يكون شخصاً مثيراً للجدل أكثر منه راديكالياً ـ فزيارته البهيجة للندن التي كان يصفها

---

(١٢) «Fight or Flight?: Saudi Cleric Heads to London after Call for Jihad in Syria,» Al Arabiya News, 22 June 2013, <http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2013/06/22/Fight-or-flight-Saudi-cleric-heads-to-London-after-calling-for-Jihad-in-Syria.html> (Last accessed 25 July 2013).

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) Rori Donaghy, «Anger in Saudi Arabia at Arrest of Popular Religious Preacher Mohammed al-Arefe,» Middle East Eye, 28 October 2014, <http://www.middleeasteye.net/news/arrest-popular-religious-preacher-saudi-arabia-prompts-wave-anger-twitter-2094231527> (Last accessed 14 September 2015).

بأنها «مكان ينبغي على المسلمين أن يتجنبوا زيارته في أوقات الأزمات»، توحي بذلك. فهل هو غير مسلم، أم أنه لا توجد أية أزمة؟

لا يمكن أن نقول الشيء ذاته عن الشيخ سلمان العودة، الذي يعتبر أيضاً أحد أكثر رجال الدين شعبية على موقع تويتر. في مرحلة شبابه الراديكالية، قضى العودة بضع سنوات في السجن. كان العودة، المولود عام ١٩٥٦، من غلاة الدعاة إلى الجهاد في أفغانستان ضد الاحتلال السوفياتي. وكانت تعاليمه تتمحور حول الفكرة القائلة إن العنف هو الوسيلة الصحيحة للدعوة إلى الإسلام الوهابي. وهو بذلك لا يختلف عن محمد بن عبد الوهاب الذي نشر معتقداته بحد السيف.

لم يكن كل ذلك ليمثّل مشكلة بالنسبة إلى السلطات السعودية، إذ إن سبب إيداعه السجن كان بسبب دوره في خركة الصحوة التي كانت تنظم حملات عنيفة بهدف العودة إلى الالتزام الصارم بالقيم الإسلامية، كما كانت تشجب فساد المجتمع ونزعات العلمنة والتحرر فيه، بل وتشجب أيضاً ما تعتبره نزعة العلماء الكبار للمسارعة في تقديم العون للعائلة المالكة. في عام ١٩٩٠، مثلاً، نظّم العودة ورجال الدين الآخرون من أعضاء الصحوة حملة شرسة ضد وجود القوات الأمريكية والأجنبية الأخرى على أرض شبه الجزيرة العربية. وكان المفتي العام، عبد العزيز بن باز، الذي يمثل رأي المؤسسة الرسمية قد بارك تدفق القوات الأجنبية؛ وبالتالي، كان من الواجب، برأيهم، عزله عن منصبه مع العلماء الآخرين في المؤسسة الرسمية الذين يشغلون أنفسهم فقط بالتفاصيل اللاهوتية ولا يلتفتون إلى انحلال المجتمع. صعّد العودة وحركة الصحوة الأمور، فنظّموا حملة تهدف إلى إجراء إصلاحات عميقة في السياسات الداخلية والخارجية. وكان من جملة أنشطتهم تقديم عرائض لاقت دعماً واسعاً تدعو إلى المزيد من التمثيل الشعبي، وإلى تطبيق أكثر صرامة للشريعة، وإلى قطع العلاقات مع الحكومات الكافرة، وإلى إنشاء جيش منفصل لشن الحرب على إسرائيل. وكان كل ذلك مرفوضاً لدى العائلة المالكة. أودع العودة ومئات آخرين السجن عام ١٩٩٤. وفي عام ١٩٩٩، أُطلق سراحه، لكنه كان قد غيّر مواقفه. إذ أصبح إنساناً معتدلاً.

تورد إيمان النفجان مثالاً معبراً عن هذا التغيير في مدوّنة تعود إلى عام ٢٠٠٨: «شاهدته شقيقتي في أحد مراكز التسوق في دبي مع زوجته وأولاده. كانت المفاجأة الصاعقة في رؤية زوجته ترتدي النقاب وتضع عباءتها على كتفيها لا فوق رأسها لتغطيها كالخيمة! هذا المنظر هو المعادِل السعودي لمنظر زوجة كاهن تعرِّض جسدها للشمس وقد عرّت صدرها»[١٥].

خلال تسعينيات القرن العشرين، كان العودة يُعتبَر نصيراً لبن لادن، لكنه قام في عام ٢٠٠٧ بنشر رسالة مفتوحة ذات مضمون مثير وجّهها إلى «أخي أسامة» وتخلى فيها عن زعيم القاعدة. فقد اعتبره مسؤولاً عن الاحتلال الأمريكي للأراضي الإسلامية في أفغانستان والعراق:

---

(١٥) «Prominent Saudis: Sheikh Salman Al Ouda,» Saudiwoman's Weblog, 22 August 2008, <http://saudiwoman.me/2008/08/22/prominent-saudis-sheikh-salman-al-ouda> (Last accessed 30 March 2013)..

«أخي أسامة، كم من الدماء أريقت؟ وكم من الأبرياء والأطفال والشيوخ والعجزة والنساء الذين قضَوْا أو شرّدوا أو طُرِدوا باسم القاعدة؟ أيسرّك أن تلقى الله تبارك وتعالى وأنت تحمل هؤلاء الناس على ظهرك وهم يُعدّون بمئات الآلاف أو بالملايين؟»[١٦].

وفي عام ٢٠٠٩، بعث الشيخ العودة برسالة مماثلة إلى الرجل الثاني في القاعدة بعد بن لادن (وزعيم القاعدة اعتباراً من عام ٢٠١١)، أيمن الظواهري. في هذه الرسالة، ذكّر المصريين بأن الظواهري ليس برجل دين ـ الظواهري في الأصل طبيب أطفال ـ وأنه يريد أن يعرف من الذي سمح له بإطلاق التصريحات التي تتناول مسائل دينية مهمة، كالتكفير والتعدّي على الآخرين.

يُعتبر الشيخ العودة حالياً من الدعائم الأساسية للملكية، وهو يحظى لقاء ذلك بحماية البلاط الملكي. ولكن، هل تم فعلاً ترويضه؟ هناك العديد من الإشارات التي تدل على أنه يقدم نفسه باستمرار بوصفه نصيراً للإصلاحات وزعيماً محتملاً للمعارضة. ويبدو أن العريفي، الراديكالي ولكن الممتلئ زهواً بنفسه، لا يمثّل الخطر الأكبر على المؤسسة الملكية المحافِظة، بل شخص تائب، مثل سلمان العودة. وفي تطور لافت، ألّف العودة كتاباً عام ٢٠١٢، بعنوان أسئلة الثورة؛ أقرّ فيه قيام ثورة سلمية، في تعارض تام مع مفاهيم رجال الدين الرسميين. بعد منْع الكتاب، نشَره على شبكة الإنترنت.

كما تجدر الإشارة إلى رسالة مفتوحة أخرى نشرها على صفحته في موقعَيْ فيسبوك وتويتر في آذار/مارس، من عام ٢٠١٣. تضم الرسالة تحذيراً شديد اللهجة للنظام «إذا لم تقوموا بإجراء إصلاحات، فسوف تحرق النار البلد. يستهل الرسالة بالقول إن «صديقك من صَدَقَك ... ينبغي الحفاظ على المكتسبات ... فالبديل هو الفوضى والتشرذم والاحتراب»[١٧]. الشيخ العودة هنا، شأنه شأن جميع السعوديين، ولا سيَّما الشباب منهم، يرى نتائج الثورات الشعبية في مصر وليبيا وسورية، ولا يريد لهذه النتائج أن تمس بلاده لا من قريب ولا من بعيد.

مع ذلك، فهو يحذّر قائلاً:

«الناس هنا مثل بقية الناس في العالم، لهم أشواق ومطالب وحقوق. ولن يسكتوا إلى الأبد على مصادرتها كلياً أو جزئياً. ثمة مشاعر سلبية متراكمة منذ أمَد ليس بالقصير، وقد استوحيت كلامي من الكثيرين من فئات مجتمعية ومناطقية عديدة... إذا زال الإحساس بالخوف من الناس فتَوقَّع منهم كل شيء، وإذا ارتفعت وتيرة الغضب فلن يرضيهم شيء... مع تصاعد الغضب تفقد الرموز الشرعية والسياسية والاجتماعية قيمتها وتصبح القيادة بيد الشارع»[١٨].

وهو هنا يقصد أن الوضع يصبح شبيهاً بما حصل في سورية. ثم يمضي ليناقش وضع السجون والسجناء ـ فهو يلاحظ أن العاقبة هي زرع الأحقاد والرغبة في الثأر وانتشار الفكر المحارِب بشكل

(١٦) <http://en.islamtoday.net/artshow-417-3012.htm> (Last accessed 30 March 2013).

(١٧) <http://en.islamtoday.net/artshow-413-4568.htm> (Last accessed 30 March 2013).

(١٨) المصدر نفسه.

أوسع داخل السجن، وخرق حقوق الإنسان، ما حفّز نساء السجناء على التحرك. وبرأيه أنه لا يجب أن يبقى من الموقوفين إلا من ثبت تورطهم وصدرت ضدهم أحكام شرعية قطعية «من الخطر التضييق على الناس حتى لا يتبقى لديهم شيء ليخسروه. حقوق المواطنين مشروعة وليست ممنوحة»(١٩).

يوجز الشيخ العودة أسباب الاحتقان في البلاد كالتالي: الفساد المالي والإداري والبطالة والسكن غير المناسب والفقر وضعف الخدمات الصحية والتعليم وغياب أفق الإصلاح السياسي. إذاً فهو يطابق المشكلات التي تعانَى في السعودية، الدولة النفطية الثرية، مع المشكلات التي دفعت بالناس إلى الخروج للشوارع وإسقاط الحكام المستبدين في دول فقيرة، مثل مصر وتونس. ويمضي ليقول إن استمرار الحالة القائمة لمدة أطول أمر مستحيل، ولكن السؤال... إلى أين يتجه المسار؟

لكن العودة الذي لا تغيب عن باله أيام السجن، يلتزم جانب الحذر الشديد لدى قيامه بإسداء النصح بشأن ما ينبغي عمله. إذ جاءت اقتراحاته على شكل أسئلة. «بلد يعتمد في إدارته على العلاقات الشخصية وليست المؤسسات، كيف سيواجه التحديات؟» و«يتساءل الناس وعلى الأخص الشباب منهم: ما هي قنوات الاتصال بينهم وبين السلطة؟»(٢٠). بعبارة أخرى، المطلوب هو وجود شكل من أشكال التمثيل الشعبي، وهذا مطلب كان ينادي به خلال السنوات التي كان فيها ضمن حركة الصحوة.

يخلص العودة إلى القول إنه لا أحد من العقلاء يتمنى أن تتحول الشرارة إلى نار تحرق بلده وأن يكون العنف أداة للتعبير «يكمن الحل في قرارات حكيمة وفي وقتها تسبق أية شرارة عنف»(٢١). هل يمكن أن نتخيل الشيخ سلمان العودة زعيماً لثورة سعودية؟ ما من شك بأن النظام لا يطرب لهذه الفكرة. في أواخر شهر تموز/يوليو من عام ٢٠١٣، منعت السلطات برنامجه التلفزيوني «لك حق». بدأت بوادر التصدع تظهر على الحلف الذي أكل الدهر عليه وشرب، والقائم على الدعم المتبادل بين العلماء والأسرة الملكية؛ وهذا ينطوي على احتمال تطور خطر.

---

(١٩) المصدر نفسه.
(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) المصدر نفسه.

الفصل الثالث

النفط، النفط، ذلك النفط الرائع: درب مجهول

يُعتبَر البنزين رخيصاً في العربية السعودية ـ أرخص من التراب. يبلغ سعر ليتر الوقود ١٦ سنتاً. وهذا بالطبع من دواعي سرور السعوديين الذين يقودون السيارات، ومعظمهم يقودون سيارات لأن وسائل النقل العامة شبه معدومة. ما من شك في أن هذا البلد يمثّل فردوس مالكي السيارات الرياضية الرباعية الدفع التي تكاد تبتلع البنزين ابتلاعاً. ولكن تكمن العلة هنا في أن الاستهلاك المحلي للنفط ازداد على نحو مطرد خلال السنوات، وقد يبلغ الأمر حد عدم توفُّر نفط للتصدير. تشير التقديرات الأخيرة إلى أن هذا الوضع ربما أصبح واقعاً خلال خمسة عشر عاماً إذا لم يطرأ تغيير على السياسة الحكومية[1]. لكن ذلك يعني كارثة، إذ إن نسبة ٨٠ ـ ٩٠ بالمئة من ميزانية الدولة تقوم على العائدات النفطية[2]. سوف تتثاقل الحركة الاقتصادية إلى أن تتوقف. لكن الأمور لن تقف عند هذا الحد، بل إنه، وبمرور السنين، ستتضاءل الأموال المتوافرة من أجل شراء ولاء المواطنين السعوديين عبر منظومة من الإعانات المالية الحكومية والهبات وإيجاد فرص العمل والمشاريع والبعثات الدراسية. وقد يتحول ذلك وبكل سهولة إلى إشارة انطلاق لـ «ربيع سعودي».

يبدو واضحاً أن انخفاض أسعار النفط ـ وقد أصبح أمراً واقعاً منذ عام ٢٠١٤ ـ هو أحد العوامل المؤدية إلى تفاقم الوضع. ويناقش الخبراء، على هذه الخلفية، «السعر التعادلي للمملكة»، أي السعر الذي يوازن ميزانية البلاد.

---

(١) انظر: John Sfakianakis, «Saudi Arabia's Essential Oil: Why Riyadh Isn't Worried about the US Gas Revolution,» *Foreign Affairs* (8 January 2014), <http://www.foreignaffairs.com/articles/140639/john-sfakianakis/saudi-arabias-essential-oil> (Last accessed 5 August 2014).

حذّر تقرير Chatham House Report الصادر عام ٢٠١١ من أن التمسّك بمسار «الاستمرار بأداء الأعمال كالمعتاد» قد يؤدي بالمملكة إلى أن تصبح دولة يفوق معدلُ استيرادها للنفط معدلَ تصديرها، وذلك بحلول عام ٢٠٣٨.

انظر: Glada Lahn and Paul Stevens, *Burning Oil to Keep Cool: The Hidden Energy Crisis in Saudi Arabia* (London: Chatham House, 2011).

(٢) Isaac Arnsdorf, «Saudi Arabia's Risky Oil-Price Play,» Bloomberg Businessweek (23 October 2014), <http://www.businessweek.com/articles/2014-10-23/oil-saudi-ara-bias-risky-price-play> (Last accessed 25 January 2015).

قبل عشر سنوات، كان سعر النفط يبلغ وسطياً ٢٠ دولاراً. يقول بول سامبسون (Paul Sampson)، العامل ضمن مجموعة وسائل الإعلام الإخبارية على شبكة الإنترنت (Energy Intelligence)، وهو أحد الخبراء الذين لا يستسلمون لمشاعر الخوف بسهولة:

«كيف يمكن لأي شخص أن يصف، جدياً، المستقبلَ المتوقَّع للاقتصاد السعودي بأنه «قاتم»؟ هذه دولة تكسب ما يقارب ٣٠٠ مليار دولار في العام من عائدات تصدير النفط - وهو مبلغ مذهل - ولديها احتياطي من العملة الصعبة يفوق ٦٠٠ مليار دولار[٣]. هذا لا يوحي إليَّ بوجود أزمة وشيكة؛ بل هو منطلق وهمي لا يمكن التخطيط على أساسه. لا أستطيع أن أفهم لماذا تصْدر كل هذه الأقاويل المتشائمة حول السعودية؛ إنها لا تبدو معقولة بالنسبة لي. أم أن هناك شيئاً ما لا أعرفه؟»[٤].

لكن علماء الاقتصاد الآخرين يتحدثون بلهجة أكثر تشاؤماً. على سبيل المثال، يقدِّر روبرت لوني (Robert Looney)، الذي ألَّف عدداً من الكتب القيمة حول النفط والتطور في دول الخليج، أن العربية السعودية كانت في عام ٢٠١٥، تحتاج إلى سعر للنفط يبلغ ٩٠ دولاراً للبرميل[٥]. وهناك خبراء آخرون، مثل معهد التمويل الدولي (Institute for International Finance) اقترحوا سعراً يبلغ ١١٠ دولارات ليكون سعراً أساسياً، بينما قدّر البنك المركزي الألماني (Deutsche Bank) أن السعر التعادلي لميزانية عام ٢٠١٥ سيكون ما بين السعرين المذكورين (أي ١٠٤,٥ دولار)[٦]. ومع الهبوط الكبير لأسعار النفط، اعتباراً من منتصف عام ٢٠١٤، وتنامي الإنفاق الحكومي، فإن العربية السعودية سوف تواجه عجزاً في الميزانية في عام ٢٠١٥، وهو الأول منذ عام ٢٠١١ والأسوأ في تاريخها[٧]. يتوقع بعض الاقتصاديين أن يصل عجز الميزانية إلى ٢٠ بالمئة من الناتج المحلي

---

(٣) في مطلع عام ٢٠١٥ كانت أصول المصرف المركزي الأجنبية ٧٣٤ دولاراً أمريكياً. انظر: John Sfakianakis, «Reading the Runes of Saudi Oil Policy,» *Arab News*, 28/1/2015, <http://www.arabnews.com/economy/news/696071> (Last accessed 30 January 2015).

(٤) <https://members.gulf2000.columbia.edu/?p=310611> (access with password only).

(٥) Robert Looney, «The Window is Closing for Riyadh,» *Foreign Policy* (1 June 2012), <http://www.foreignpolicy.com/articles/2012/06/01/the_window_is_closing_for_riyadh> (Last accessed 5 August 2014).

(٦) Sudeep Reddy, «Saudi Government's Break-Even Oil Price Rises $20 in a Year,» *The Wall Street Journal*, 31/3/2011, <http://blogs.wsj.com/economics/2011/03/31/saudi-governments-break-even-oil-price-rises-20-in-a-year> (Last accessed 25 January 2015); Deutsche Bank, «EM Oil Producers: Breakeven Pain Thresholds,» Deutsche Bank Research (16 October 2014), <http://etf.deutscheawm.com/DEU/DEU/Download/Research-Global/2dd759fe-b80a-4f07-a51c-dd02f4d384e5/EM-oil-producers-breakeven-pain.pdf>.

انظر أيضاً: Steffen Hertog, «Oil Prices: Eventually the Gulf States Will Run Out of Power,» The Conversation, 5 January 2015, <http://theconversation.com/oil-prices-eventually-the-gulf-states-will-run-out-of-power-35867> (Last accessed 6 January 2015).

(٧) لحظة كتابة هذه السطور، كانت أسعار النفط قد انخفضت بأكثر من النصف خلال الأشهر الإثني عشر الماضية، إلى ما دون ١٥ دولاراً. انظر: Vivian Nereim and Donna Abu Nasr, «How Much Longer Can Saudi Arabia's Economy Hold Out Against Cheap Oil?,» Bloomberg (21 August 2015), <http://www.bloomberg.com/news/articles/2015-08-21/how-much-longer-can-saudi-arabia-s-economy-hold-out-against-cheap-oil-> (Last accessed 15 September 2015), and Andy Tully, «Saudi Facing Largest Deficit in its History,» OilPrice.com (29 December =

الإجمالي. ويتنبأ صندوق النقد الدولي بحصول أول عجز في الحساب الجاري السعودي خلال أكثر من عقد. كما يقدر لوني، استناداً إلى تصورات شركة جدوى للاستثمار (Jadwa Investment)، ومقرها الرياض، أن سعر النفط التعادلي للعربية السعودية، المعدَّل حسب نسبة التضخم، سيرتفع إلى ١٧٥ دولاراً عام ٢٠٢٥، بل حتى إلى ٣٢٠ دولاراً بحلول عام ٢٠٣٠[٨].

أولاً: تأثير الإعانات المالية الحكومية

لا يكف عبد العزيز العويشق عن قرع ناقوس الخطر للتحذير من الاستهلاك المحلي المتزايد للنفط، وذلك في الصحيفة اليومية السعودية الصادرة بالإنكليزية *Arab News*. وهو يوجز الوقائع البسيطة الواضحة كالتالي: «كلفة هذا الهدر مذهلة: عند سعر ١٠٠ دولار للبرميل، [كان] الاستهلاك المحلي يحرم العربية السعودية سنوياً ١٥٠ مليار دولار تقريباً من الإيرادات بالعملة الصعبة»[٩]. ويورد جون سفاكياناكيس (John Sfakianakis)، وهو خبير متمرس بالاقتصاد السعودي، المزيد من التفاصيل:

«يبلغ استهلاك العربية السعودية سنوياً ضعفي استهلاك الولايات المتحدة وأربعة أضعاف ـ تقريباً ـ استهلاك ألمانيا التي تتمتع باقتصاد يساوي خمسة أضعاف حجم اقتصاد المملكة. كما أن استهلاك الفرد للطاقة يتزايد أيضاً، وخلال الفترة ٢٠٠٠ ـ ٢٠١٠، زاد استهلاك النفط المحلي بنسبة ٣٠ بالمئة تقريباً...»[١٠].

تصدّر العربية السعودية ثلثي إنتاجها من النفط فقط، وتستهلك ما يقرب من ثلاثة ملايين برميل من النفط يومياً[١١]. ولا يخفى أن السبب الرئيس هو سعر البنزين الرخيص المثير للسخرية. واستناداً إلى ما يقوله العويشق فإن:

= 2014), <http://oil-price.com/Energy/Oil-Prices/Saudi-Facing-Largest-Deficit-In-Its-History.html> (Last accessed 30 December 2014).

انظر أيضاً: «Saudi Arabia and the Game of Dominoes,» Conflicts Forum, 21-28 August 2015, <http://www.conflictsforum.org/2015/saudi-arabia-and-the-game-of-dominoes/> (Last accessed 16 September 2015).

يحذر هذا التحليل من أن العربية السعودية قد لا تصل إلى «نفس النتيجة الآمنة» كما حصل خلال أزمة ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩. هذه المرة، المملكة (ومعظم دول الخليج الأخرى المصدرة للنفط) ملتزمة مالياً بشكل كامل.

(٨) Looney, «The Window is Closing for Riyadh».

(٩) Abdel Aziz Aluwaisheg, «High Stakes of Energy Conservation in Saudi Arabia,» *Arab News*, 24/3/2013, <http://www.arabnews.com/news/445868?quicktabs_ stat2=0> (Last accessed 15 April 2014).

(١٠) John Sfakianakis, «Oil Kingdom,» *Foreign Policy* (7 August 2013), <http://www.foreignpolicy.com/articles/2013/08/07/why_saudi_arabia_still_rules_global_ energy_oil> (Last accessed 6 August 2014).

انظر أيضاً: Sfakianakis, «Saudi Arabia's Essential Oil: Why Riyadh Isn't Worried about the US Gas Revolution,» and Eckart Woertz, «The Domestic Challenges in the Saudi Energy Market and their Regional and Geopolitical Implications,» Norwegian Peacebuilding Resource Centre (NOREF), *Policy Brief* (November 2013).

(١١) Salah Khashoggi, «Saudi Arabia Still Has Time to Escape Dangerous Economic Woes,» Middle East Eye (27 August 2015), <http://www.middleeasteye.net/columns/saudi-arabia-still-has-time-escape-dangerous-economic-woes-1969795924> (Last accessed 16 September 2015).

«هناك ما يقرب من ١٠ ملايين سيارة ركاب في البلاد، ويزداد العدد بمعدل ٥ بالمئة سنوياً... سعر البنزين الرخيص إلى حد لا يصدق هو ما يدفع السعوديين إلى الرغبة بشراء السيارات التي تستهلك الكثير من البنزين. وبالنظر إلى وجود طاقة رخيصة ووافرة، لم تطوِّر السعودية منظومات نقل عامة. وتعتمد المملكة بصورة أساسية على السيارات الخاصة، لا على وسائل النقل العامة، لنقل السكان إلى أماكن عملهم وإلى مدارسهم وإلى الأسواق وأماكن الترفيه»(١٢).

لا تصل نسبة سكان الرياض (ويبلغ عددهم ٦ ملايين نسمة) الذين يستخدمون «منظومة» وسائل النقل العامة إلى ٢ بالمئة، وتتألف هذه المنظومة من بضع حافلات كبيرة وصغيرة متداعية. وطالما ظلت كلفة البنزين ضئيلة على هذا النحو، فلن يتغير شيء. ولا شك في أن رفع سعر البنزين هو الحل الواضح، ولكن هل تجرؤ الحكومة على رفع سعره؟

قد يبدو من قبيل المبالغة القول إن «نقاشاً اجتماعياً واسعاً» يجري حول هذا الموضوع؛ لكن قطاعات كبيرة من المجتمع بدأت تدرك، على نحو بطيء ولكن بثقة، أن الوضع لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال. بل إن محمد الصبان، كبير مستشاري شؤون النفط في الحكومة لسنوات عديدة، والمعروف بأفكاره الراديكالية، قد قرع بدوره ناقوس الخطر:

«الزيادة المتسارعة في الاستهلاك تمثل مشكلة حقيقية ولا يمكن لها أن تستمر بأية حال... المشكلة الأساسية في الإعانات المالية الحكومية في العربية السعودية هي أن الإعانات أصبحت تشكل عبئاً على الحكومة، إذ إنها تشمل كل الطبقات، بما في ذلك الأغنياء والمغتربون، وليس الطبقات محدودة الدخل فقط. إن إعادة النظر بأسعار الوقود في العربية السعودية أمر محتوم، إن لم نقل أولوية»(١٣).

أحياناً قد يحدث شيء ما. في صيف عام ٢٠١٣، أعلنت الحكومة عن خطة لإنشاء شبكة قطار أنفاق في العاصمة، بطول يصل إلى ١٧٦ كم. كان على الشركات الأجنبية إنشاء ستة خطوط لتسير عليها قطارات كهربائية من دون سائق. ويبلغ مجموع الكلفة ٢٢,٥ مليار دولار، ومن المقرر أن يبدأ تشغيل الشبكة عام ٢٠١٩. وكانت خطط مماثلة قد وُضعت من أجل مكة وجدّة. وبرأي السكان الذين شعروا بالارتياح لذلك أن الوقت قد حان.

تقول آلاء.حسن، وهي طالبة جامعية في مدينة الرياض:

«بالطبع سوف أستخدم المترو ـ سيكون ذلك بمثابة الحل الناجع لمشكلة النساء في مجتمعنا، بما أننا ممنوعات من قيادة السيارة. أنا أذهب إلى الجامعة بحافلة صغيرة، وأدفع ٢٠٠٠ ريال

---

(١٢) Aluwaisheg, «High Stakes of Energy Conservation in Saudi Arabia».

(١٣) Wael Mahdi, «Saudi Arabia Must Review Its Oil Subsidies, Former Adviser Says,» Bloomberg (27 December 2012), <http://www.bloomberg.com/news/articles/2012-12-27/saudi-arabia-must-review-its-oil-subsidies-former-adviser-says> (Last accessed 6 August 2014).

سعودي (٥٣٥ دولاراً) شهرياً؛ أما زميلاتي اللواتي يقطنّ قريباً من الجامعة فيدفعن ما بين ٨٠٠ و١٠٠٠ ريال. ما من شك بأن المترو سيكون أرخص»[١٤].

لا يمكن تحميل الزيادة المطردة بسرعة في عدد مالكي السيارات كاملَ المسؤولية في زيادة استهلاك النفط. إذ إن الاستهلاك المفرط للكهرباء له دور مهم أيضاً؛ على سبيل المثال، هناك بعض أجهزة التكييف التي قد لا يوقفها أصحابها السعوديون عن العمل عندما يغادرون المنزل ليذهبوا في إجازة[١٥]. وتعتبر تسعيرة استهلاك الطاقة الكهربائية في السعودية الأرخص في العالم. ويتطلب توليد الطاقة الكهربائية نسبة لا تقل عن ٢٠ بالمئة من الإنتاج اليومي من النفط ـ ما يقارب ٩,٥ مليون برميل في اليوم[١٦].

يتوقع الخبراء أنه في حال بقاء الأمر على هذه الحال، فإن هذا الرقم سيتضاعف بحلول عام ٢٠٣٠، مع الأخذ بالاعتبار أن التقديرات تقول إن عدد سكان السعودية سيصل إلى ٤٥ مليون نسمة عام ٢٠٥٠. كما ويشير فاتح بيرول، الخبير الاقتصادي الرئيس في وكالة الطاقة الدولية، إلى الهدر في استخدام النفط، فهو يقول: «استخدام النفط لتوليد الطاقة الكهربائية غير مجدٍ اقتصادياً على الإطلاق. فالوضع هنا أشبه باستخدام عطر شانيل وقوداً لسيارتك»[١٧]. بل إن بعض أفراد طبقة النخبة بدأوا يستوعبون هذه الفكرة، إذ نجد الأمير عبد العزيز بن سلمان آل سعود، الذي كان آنذاك مساعد وزير البترول والثروة المعدنية، يدعو إلى اتخاذ إجراءات عاجلة لخفض استهلاك الطاقة المنزلية وإلا «لحق الضرر بحجم الصادرات السعودية في المستقبل»[١٨].

---

(١٤) Marwa Rashad and Praveen Menon, «Huge Saudi Metro Projects Aim to Shift Economy beyond Oil,» Reuters, 30 July 2013, <http://uk.reuters.com/article/saudi-metro-economy-idUKL6N0FZ38O20130730>.

(١٥) Keith Johnson, «Running on Empty: Why Unbridled Oil Consumption in the Middle East Could Pose a Threat to the Region and Beyond,» *Foreign Policy* (23 January 2014), <http://www.foreignpolicy.com/articles/2014/01/23/running_on_empty> (Last accessed 5 August 2014).

يستهلك السعوديون ثلاثة أضعاف المتوسط العالمي لاستهلاك الكهرباء. في عام ٢٠١٢، ازداد استهلاك الكهرباء بمعدل ٩ بالمئة مقارنة بالعام الأسبق، كما زاد الطلب الأقصى على الكهرباء بأكثر من الضعف خلال العقد الأخير. انظر: «KSA Power Consumption 3 Times World Average,» *Arab News*, 8/7/2014, <http://www.arabnews.com/news/598481> (Last accessed 30 July 2014), and Glada Lahn, Paul Stevens and Felix Preston, *Saving Oil and Gas in the Gulf* (London: Chatham House, 2013), p. 8, <http://www.chathamhouse.org/sites/files/.../0813r_gulfoilandgas.pdf>.

(١٦) يستند هذا الرقم إلى حسابات المؤلف، ويمكن تعديله. تقدّم بعض المصادر الأخرى نسباً أخرى قد تكون أحياناً أعلى. انظر مثلاً: *Arab News*, 19/2/2014, and Kristian Coates Ulrichsen, «Domestic Implications of the Arab Uprisings in the Gulf,» in: Ana Echagüe, ed., *The Gulf and the Arab Uprisings* (Spain: FRIDE; Gulf Research Center, 2013), <http://fride.org/descarga/The_Gulf_States_and_the_Arab_Uprisings.pdf>.

المزيد من الأرقام يمكن العثور عليها، في: Lahn and Stevens, *Burning Oil to Keep Cool: The Hidden Energy Crisis in Saudi Arabia*.

(١٧) Brendan Greeley, «Why Fuel Subsidies in Developing Nations are an Economic Addiction,» Bloomberg Businessweek (13 March 2014), <http://http://www.bloomberg.com/news/articles/2014-03-13/why-fuel-subsidies-in-developing-nations-are-an-economic-addiction> (Last accessed 12 October 2014).

(١٨) *OPEC Bulletin*, vols. 2-3 (2013), p. 33.

يقدر الأمير أن المملكة تستهلك حالياً ما يعادل ٤ ملايين برميل/يومياً من النفط لتوليد الكهرباء.

ويقول الوزير المساعد إن أحد أساليب التعامل مع هذه المشكلة هي التحوُّل التدريجي من النفط إلى الغاز الطبيعي ليكون وقوداً لمحطات توليد الطاقة الكهربائية. وقد بدأ ذلك يتحقق حالياً. بل إن هناك المزيد من الأخبار المفرحة، على الورق على الأقل. في عام ٢٠١٠، روَّجت الحكومة خطة تهدف إلى توليد ربع إنتاج الكهرباء من طاقة الرياح والطاقة الشمسية بحلول عام ٢٠٣٢. لكن وحيد فتوحي، رئيس رابطة صناعة الطاقة الشمسية الإماراتية، يقول إنه «منذ الإعلان الهام عام ٢٠١٠، لم نشهد سوى القليل من الإجراءات المحسوسة في ما يخص تنفيذ المشاريع»[١٩]. وفي حين يبدو وزير النفط، النعيمي، متفائلاً حين يقول إن بإمكان العربية السعودية تصدير الطاقة الكهربائية المولَّدة بواسطة الطاقة الشمسية بدل النفط، فإن المراقبين - يميلون للتشكيك بذلك - وإن كانوا لا يتخذون موقفاً سلبياً بالكامل. يقول إيكارت وورتز (Eckart Woertz)، مثلاً، إن «الخطط الخيالية من هذا النوع تبدو، حتى الآن، بعيدة التحقيق... مع ذلك، فإن الأمور تأخذ منحى التغيير»[٢٠]. لكن الخطط الرامية لتوليد الطاقة النووية تبدو أكثر جدية. فقد جرى توقيع عقود مع فرنسا وكوريا الجنوبية والصين والأرجنتين من أجل إنشاء ستة عشر مفاعلاً بحلول عام ٢٠٣٠، وسوف تغطي هذه المفاعلات ٢٠ بالمئة من الاحتياجات من الطاقة الكهربائية.

كما يؤدي الهدر الكبير للمياه دوراً في هذا الاستهلاك المفرط للطاقة الكهربائية. فالعربية السعودية هي واحدة من أكبر مستهلكي المياه في العالم (٢٦٥ ليتراً للفرد في اليوم؛ في حين يستهلك الفرد في هولندا ١٢١ ليتراً في اليوم؛ وفي الولايات المتحدة ٣٤٠ ليتراً في اليوم تقريباً). لم يكن ذلك ليمثِّل مشكلة في حال وجود موارد جوفية كافية أو وجود أنهار أو بحيرات أو في حال هطول أمطار كافية. لكن الوضع ليس على هذا النحو. فرغم وجود بعض المكامن المائية أو الطبقات الجوفية الحاوية على مياه، فإن هذه المكامن تُستنفد بسرعة. تستهلك العربية السعودية ٩٣٦ بالمئة من مجموع مواردها المائية المتجددة كل عام[٢١]. يروي العويشق في *Arab News* حديثاً عن النبي محمد (ﷺ) مفاده أن على المسلمين، وقبل أي شيء، الاقتصاد باستهلاك الماء: «لا تسرفوا في الماء ولو كنتم على نهر جارٍ». والواضح أن معظم السعوديين يتجاهلون هذه النصيحة. يعلّق العويشق بسخرية: «أفضل طريقة لغسل السيارة هي بمياه الشرب السائغة». وبما أن

---

(١٩) Vahid Fotuhi, «Concern over Saudi Arabia's Summer Diesel Consumption Surge,» *The National*, 5/7/2013, <http://www.thenational.ae/business/industry-insights/energy/concern-over-saudi-arabias-summer-diesel-consumption-surge> (Last accessed 5 August 2014).

(٢٠) Woertz, «The Domestic Challenges in the Saudi Energy Market and their Regional and Geopolitical Implications,» p. 3.

للاطلاع على وجهة نظر أكثر توازناً، انظر: Lahn, Stevens and Preston, *Saving Oil and Gas in the Gulf.*

يستنتج المؤلفان أنه «في كل دول مجلس تعاون دول الخليج تظل فعالية الخطط غير أكيدة، والأسباب الرئيسة هي تحديات الحوكمة والافتقار إلى محفزات السوق والدعم السياسي الذي لا يمكن التنبؤ به» (p. vi). في المملكة، المسألة التي تعطل الأمور على نحو خاص هي المنافسة بين مدينة الملك عبد الله للطاقة الذرية والمتجددة، وأرامكو السعودية على إطار الاستثمار في الطاقة الشمسية.

(٢١) Jeannie Sowers, «Water, Energy and Human Security in the Middle East,» *Middle East Report*, vol. 44, no. 271 (Summer 2014), p. 3.

كمية المياه المتوافرة تتناقص، تضطر البلاد إلى زيادة اعتمادها على معامل تحلية المياه. لكن هذه المعامل، وبالإضافة إلى كلفتها الباهظة، تعتبر مضرة بالبيئة، كما أنها تستهلك الكثير من الطاقة. يقول العويشق: «تستهلك هذه المعامل ١٠ ـ ٢٠ بالمئة من مجموع استهلاك الطاقة في العربية السعودية». إذاً، فالمياه مكلفة لكن المستهلك يبدو غافلاً عن هذه الحقيقة. وهنا أيضاً نجد أن الإعانات المالية الحكومية تُغدق على هذه المعامل دون أن يتوافر الدافع لاستخدام هذه المنظومات باعتدال[٢٢].

يعتقد العويشق وزملاؤه من الاقتصاديين أنه قد آن الأوان لفرض سعر يعبّر عن الوضع كما هو على أرض الواقع، ولكن أية حكومة تتحلى بالجرأة للقيام بذلك؟

لن يؤثر تقليص المعونات المالية فقط على دخل المواطن العادي؛ بل سيؤثر أيضاً في القطاع الصناعي الذي يستفيد من انخفاض كلفة المواد الأولية والطاقة الكهربائية. ولا ننسى أيضاً الأمراء والأميرات الذين لا يسددون فواتير الكهرباء على الإطلاق دونما محاسبة من أحد. يبلغ مقدار الديون المترتبة على الشخصيات السعودية الرسمية ما يقارب ٧٢٠ مليون دولار، ويعود تاريخ استحقاق بعض الدفعات المتأخرة إلى ثلاثين عاماً تقريباً[٢٣]. هل هناك من يتخذ إجراءات بهذا الخصوص؟

ثانياً: الغاز الصخري: المتفائلون في مواجهة المتشائمين

«الغاز الصخري (Shale Gas): ثورة في مجال الطاقة» ـ تصدَّر هذا العنوان الصفحات الأولى من صحف عديدة في السنوات الأخيرة. كثرت التوقعات حول «عصر الذهب الأسود الجديد» وحول الغاز الصخري (والنفط الصخري) الذي «سيغير قواعد اللعبة» وسوف يؤدي إلى إحداث «تغيّر أنموذجي»، وإلى عصر من «الوفرة»، وهلم جرّا. واستناداً إلى ما يقوله روبرت وست (Robert West)، المسؤول التنفيذي الرئيس في الشركة الاستشارية لشؤون الطاقة (PCF Energy)، فإن استخراج الغاز الصخري لا يقل عن كونه «المكافئ في مجال الطاقة لسقوط جدار برلين»[٢٤]. سوف توفر عملية الحقن (Fracking) إمكانية استخراج احتياطيات كبيرة من النفط والغاز، وبالتالي، لن يعود لتهديد نضوب الطاقة أي معنى، وسوف يشهد سوق النفط صيغاً جديدة من علاقات القوة.

---

(٢٢) Abdel Aziz Aluwaisheg, «Runaway Water Consumption Alarming for Saudi Arabia,» *Arab News*, 4/8/2013, <http://www.arabnews.com/news/460158> (Last accessed 6 August 2014).

(٢٣) «Saudi VIPs Clock up $720m in Unpaid Electricity Bills – Report,» arabianbusiness.com, 21 July 2014, <http://www.arabianbusiness.com/saudi-vips-clock-up-720m-in-unpaid-electric-ity-bills-report-558670.html> (Last accessed 15 November 2014).

(٢٤) John Ydstie, «Will Renewables Suffer Because of U.S. Oil and Gas Boom,» NPR, 27 December 2013, <http://www.npr.org/2013/12/27/257654578/will-renewables-suffer-because-of-u-s-oil-and-gas-boom> (Last accessed 6 August 2014).

ثبتت صحة كلام المتفائلين، على المدى القصير على الأقل. حيث فاق إنتاجُ الولايات المتحدة من النفط الخام ومن السوائل المفصولة عن الغاز الطبيعي، عام ٢٠١٤، إنتاجَ كل الدول الأخرى، وتجاوز الإنتاج اليومي ١١ مليون برميل خلال الربع الأول من العام. وكانت الولايات المتحدة قد سبقت روسيا في مجال إنتاج الغاز الطبيعي عام ٢٠١٣ وتمكنت من تجاوزها للمرة الأولى منذ عام ١٩٨٢. في عام ٢٠٣٥، سوف تكون الولايات المتحدة مكتفية ذاتياً[٢٥]. وقد ظهر في مجلة الإيكونومست (*The Economist*) عنوان مثير، وهو: «أمريكا السعودية»[٢٦]. بالتالي، فإن مكانة العربية السعودية بوصفها المصدر الأكبر للنفط في العالم، لن تظل دون منازع. ويجدر بالسلطة في الرياض أن تشعر بالقلق. ويعتقد روبرت كابلان (Robert Kaplan) أن «ابتداء عصر الغاز الصخري سوف يؤدي، عموماً، إلى ازدياد أهمية الجغرافيا. فمعرفة الدول التي تحوي أراضيها الصفائح الصخرية (Shale) والدول التي تفتقر أراضيها إلى هذه الصفائح، ستساعد على تحديد علاقات القوة»[٢٧].

لكن هناك مجموعة من الخبراء المتشككين الذين يخالفون تماماً رأي المتفائلين بشأن الغاز الصخري. ويلجأ هؤلاء أيضاً إلى المغالاة للتعبير عن وجهة نظرهم ـ «أكبر خديعة في مجال النفط» و«أسطورة نشوء «أمريكا السعودية»»[٢٨]. وهناك كتاب يحمل عنواناً لا يحتاج للشرح، وهو *Cold, Hungry and in the Dark: Exploding the Natural Gas Supply Myth*[٢٩]. ويرحب موقع Shalebubble.org بزواره قائلاً: «يقال لنا إننا نقف على منعطف الطريق نحو ثورة في عالم النفط والغاز. ولكن ماذا إن كان كل ذلك مجرد فقاعة سريعاً ما ستتبدد»؟ إذاً، ربما لا يتوجب على السلطة في الرياض أن تشعر بالقلق.

إذا أخذنا بالاعتبار مدى تعقيد الموضوع، فإن من الصعب معرفة مَنْ مِنَ الطرفين على حق. ويرى العديد من الخبراء أن الغاز الصخري يؤدي فقط وظيفة بينية في المسار نحو مستقبل جديد في مجال الطاقة، مجال يخلو من الوقود الأحفوري. ويسري الشيء ذاته على آخر خدعة في مجال

---

(٢٥) «Energy Outlook Downloads,» <http://www.bp.com/en/global/corporate/about-bp/energy-economics/energy-outlook/country-and-regional-insights/us-insights.html> (Last accessed 2 September 2014).

(٢٦) «Saudi America,» *The Economist* (15 February 2014), <http://www.economist.com/news/united-states/21596553-benefits-shale-oil-are-bigger-many-americans-realise-policy-has-yet-catch> (Last accessed 2 September 2014).

(٢٧) Robert D. Kaplan, «The Geopolitics of Shale,» Stratfor, 19 December 2012, <https://www.stratfor.com/weekly/geopolitics-shale>; «The Geopolitics of Shale Gas,» The Hague Center for Strategic Studies and TNO, Paper no. 2014-17, and Robert D. Blackwell and Meghan L. O'Sullivan, «America's Energy Edge: The Geopolitical Consequences of the Shale Revolution,» *Foreign Affairs*, vol. 93, no. 2 (March- April 2014) (and the nuanced response by Kristian Coates-Ulrichsen).

(٢٨) لاحظ الرأي المتشكك إلى حد ما للمديرة التنفيذية لـ IEA ماريا فان دير هوفن (Maria van der Hoeven) التي تؤكد أن أمن الطاقة في الولايات المتحدة «Golden Age» هو مجرد وهم، انظر: Syed Rashid Husain, «Euphoria Over Shale Gas «Surge» Pointless,» *Saudi Gazette* (27 July 2014), <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140727212780> (Last accessed 3 December 2014).

(٢٩) Bill Powers, *Cold, Hungry and in the Dark: Exploding the Natural Gas Supply Myth*, foreword by Art Berman (Canada: New Society Publishers, 2013).

الطاقة ـ وهي تتعلق بهيدرات الميتان أو جليد الميتان. وهنا أيضاً تكثر التوقعات بوجود كميات هائلة يمكن استخراجها في المستقبل القريب، بحيث يمكن اعتبارها «الثورة» التالية. ويردِّد أنصار هذه الفكرة شعاراً يقول «لا تكفَّ عن الحفر». توجد أكبر مكامن هذا المصدر من الوقود («جليد يمكن أن يحترق») في اليابان والصين والهند وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية وتايوان والنروج والولايات المتحدة وكندا[٣٠].

هل يُقلِق كلُّ ذلك السعوديين؟ لا يرى وزير البترول والثروة المعدنية، علي النعيمي، أية مشكلة في ذلك ـ ظاهرياً على الأقل. وهو لا يكف عن ترداد أن كل ما في الحديقة جميل. «هذه ليست المرة الأولى التي تُكتشَف فيها مصادر جديدة للنفط ـ لا تنس التاريخ. النفط موجود في مناطق تمتد من بحر الشمال إلى البرازيل، إذاً لماذا يكثر الحديث عن النفط الصخري الآن[٣١]؟ ويمضي الوزير النعيمي قائلاً «هناك طلب متنامٍ بما يكفي لاستيعاب الموارد الجديدة والمساعدة على الحفاظ على استقرار السوق»[٣٢].

وفي شهر أيار/مايو من عام ٢٠١٣، صرّح النعيمي أمام جمهور في واشنطن أن النفط الصخري يُعتبر «أنباء مفرحة» بالنسبة إلى الولايات المتحدة وهو لا يشكل تهديداً لبلاده[٣٣]. وفي أواخر العام ٢٠١٤، وإثر الهبوط الحاد في أسعار النفط، لم تكترث العربية السعودية لمناشدات الأعضاء الأفقر في منظمة الدول المصدّرة للنفط أوبك تخفيض الإنتاج لوقف هذا التدهور في الأسعار العالمية. وكانت التوقعات تفيد بأن النعيمي كان يفكر بحرب أسعار تجعل مشاريع الولايات المتحدة المستقبلية في مجال النفط الصخري غير مجدية اقتصادياً بسبب تكاليف الإنتاج العالية، وبالتالي، تخفيف وطأة الضغوط التنافسية على دول الأوبك على المدى الطويل[٣٤].

---

(٣٠) Charles C. Mann, «What If We Never Run Out Of Oil?: New Technology and a Little-Known Energy Source Suggest that Fossil Fuels May Not be Finite. This Could be a Miracle-and a Nightmare,» *The Atlantic*, 24/4/2013, <http://www.theatlantic.com/magazine/archive/2013/05/what-if-we-never-run-out-of-oil/309294> (Last accessed 5 August 2014).

(٣١) *Financial Post*, 18/7/2013, <http://business.financialpost.com/2013/07/18/sau-dis-feels-the-shale-heat/?__lsa=40ca-cb51> (Last accessed 5 August 2014).

(٣٢) *OPEC Bulletin*, vol. 4 (2013), p. 40.

(٣٣) «The Billionaire Prince Who Says Saudi Arabia is in Far Bigger Trouble than the other Royals Admit,» Quartz (29 July 2013), <http://qz.com/109505/the-billionaire-prince-who-says-saudi-arabia-is-in-far-big-ger-trouble-than-the-other-royals-admit> (Last accessed 7 August 2014).

كرر النعيمي هذه الرسالة خلال زيارة قام بها إلى الرياض وزير الطاقة الأمريكي، إرنست مونيز (Ernest Moniz) في كانون الثاني/يناير ٢٠١٤. انظر: «Al-Naimi Welcomes Use of Shale Oil,» *Saudi Gazette* (19 January 2014), <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140120193109> (Last accessed 7 August 2014).

(٣٤) للاطلاع على المزيد حول سياسة حصة السوق في العربية السعودية، انظر: John Sfakianakis, «Reading the Runes of Saudi Oil Policy,» *Arab News*, 28/1/2015, <http://www.arabnews.com/economy/news/696071> (Last accessed 16 September 2015); Anjli Raval, «Riyadh's Gamble,» *Financial Times*, 10/3/2015; «There will be Blood,» *The Economist* (4 July 2015), and Anas F. Alhajji, «Shale Revolution has Direct and Indirect Impacts on OPEC,» *World Oil* (January 2014), <http://www.ngpenergycapital.com/news/article-detail?id=101> (Last accessed 16 September 2015).

لكن ثمة من قرع جرس الإنذار في المملكة قبل وقت طويل من هبوط الأسعار. ولنأخذ مثالاً على ذلك الأمير الوليد بن طلال آل سعود، وهو أحد الأمراء من ذوي الشأن في العائلة المالكة. في تموز/يوليو من عام ٢٠١٣، نشر على صفحته في تويتر رسالة من أربع عشرة صفحة كان قد أرسلها إلى النعيمي قبيل شهرين من ذلك التاريخ. ويبدو أن النعيمي لم يكلف نفسه عناء الرد فشعر الأمير بأن التصرف الأمثل هنا هو نشر الرسالة علناً. قال الأمير بحزم ولكن بتهذيب: «نود أن نعبّر عن دهشتنا واستغرابنا، بل واستنكارنا لتصريحات معاليك ونرى أن زيادة إنتاج أمريكا الشمالية من الغاز الصخري يشكل تهديداً محتوماً». نبّه الأمير الملياردير إلى أن الطلب العالمي على نفط دول الأوبك، وعلى الأخص على إنتاج المملكة العربية السعودية، يشهد انخفاضاً واضحاً متواصلاً[٣٥].

ورغم أن الوليد لا يأتي على ذكر ذلك، إلا أن المنافسة المحتملة من العراق، جار العربية السعودية، تمثّل تهديداً أكبر، كما أن على السلطة في الرياض أن تقلق أيضاً من عودة إنتاج النفط الإيراني - وربما في ما بعد الليبي - إلى الارتفاع ثانية. وفي ما يتعلق بهذا الشأن، ربما كان المخزون النفطي السعودي أقل مما اعترفت به السلطات السعودية. قبل أربعة أعوام، ورد في وثائق ويكيليكس (WikiLeaks) أن سداد الحسيني، نائب الرئيس التنفيذي السابق لشؤون التنقيب والإنتاج في شركة أرامكو السعودية، «يعتقد أن احتياطيات أرامكو، مبالغ فيها بمقدار ٣٠٠ مليار برميل من «المصادر المأمولة»»[٣٦]. أي بمعدل ٤٠ بالمئة. إذاً، تقول أسوأ السيناريوهات المحتملة إن احتياطيات النفط أقل مما يقال عادة، في حين أن الطلب على النفط السعودي يعاني الانخفاض.

ثالثاً: المدن الاقتصادية

لا تقلّ ملاحظات الوليد بن طلال، حول استمرار اعتماد المملكة على عائدات النفط، أهمية عما تقدم ذكره. حيث أشار إلى اعتماد العربية السعودية على النفط لتمويل ٩٢ بالمئة من ميزانية الدولة، وهو «ما يتناقض والعديد من خطط الدولة الرامية إلى تنويع مصادر دخلها»[٣٧]. وفي رسالة مفتوحة نشرها مؤخراً على صفحته في موقع تويتر بتاريخ ١٣ تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠١٤، أضاف الوليد إلى ما قاله تحذيراً من تدهور أسعار النفط، وكرر ما ورد في رسالته السابقة من أنه على السعودية خفض اعتمادها على النفط الخام وتنويع مصادر دخلها. ظلت هذه الحاجة الماسة لتنويع الأنشطة الاقتصادية، لسنوات، موضع جدل، ولسنوات، ظلت الأمور تؤدي إلى النتيجة ذاتها - لم يحصل الكثير من التقدم. ورغم وجود قدر من النمو في القطاع غير النفطي، لكنه كان

(٣٥) Wael Mahdi, «Alwaleed Warns Saudi Oil Minister of Waning Need for Oil,» Bloomberg (28 July 2013), <http://www.bloomberg.com/news/2013-07-28/alwaleed-warns-saudi-oil-min-ister-of-waning-need-for-oil.html> (Last accessed 7 August 2014).

(٣٦) «US Embassy Cables: Saudi Oil Company Oversold Ability to Increase Production, Embassy Told,» *The Guardian*, 8/2/2011, <http://www.theguardian.com/business/2011/feb/08/oil-saudiarabia> (Last accessed 7 August 2014).

(٣٧) Mahdi, Ibid. (Last accessed 6 August 2014).

يتحرك ببطء السلحفاة. تمثّل صناعة المعالَجة (Processing) ١٠ بالمئة فقط من الناتج المحلي الإجمالي، وتمثل صناعة البتروكيميائيات نسبة ٦٥ بالمئة من صناعة المعالَجة. وقد تراجعت في السنوات الأخيرة حصة القطاع غير النفطي من إجمالي الاستثمارات(٣٨). أما القطاع الخاص، الذي ما زال ضعيفاً، فهو بأيدي حفنة من رجال الأعمال الأثرياء المرتبطين عادة بالحكومة التي ما زالت بدورها تعتمد على عائدات النفط.

يرى بعضهم أن المستقبل يكمن في «المدن الاقتصادية» التي خطط لإنشائها الملك عبد الله على أساس شراكة بين القطاعين العام والخاص، لتضم مجالات تبدأ بالتكنولوجيا عالية التطور وصولاً إلى الزراعة. ومن المتوقع أن توفر هذه المدن فرص العمل الضرورية للشعب السعودي. كانت الفكرة الأصلية هي بناء ست مدن، ثم انخفض العدد إلى أربع. المدينة الأشهر هي مدينة الملك عبد الله الاقتصادية (King Abdullah Economic City) (KAEC)، التي تقع في رابغ على البحر الأحمر. وفي حين قُدِّرت الكلفة الأصلية بـ ٨٦ مليار دولار، فإننا نقرأ في موقع المشروع أن إنهاء إنشاء المدينة يتطلب ١٠٠ مليار دولار إضافية(٣٩).

لكنْ ثمة شك في أن تجري الأمور كما خُطِّط لها. يقدم ديف إيغرز (Dave Eggers) في كتابه **الصورة الثلاثية الأبعاد للملك** (*A Hologram for the King*)، الصادر عام ٢٠١٢، صورة مضحكة بقدر ما هي صادمة لهذا المشروع الضخم. تصف إحدى شخصيات الكتاب مدينة الملك عبد الله الاقتصادية KAEC ـ وهو يلفظها «Cake» ـ كعكة ـ بأنها جنين وُلد ميتاً(٤٠). وهناك شخصية أخرى، أكثر جرأة، تطلق على المدينة اسم «حلم الملك عبد الله»(٤١). يبدو روبرت ليسي (Robert Lacey)، الذي عادة ما ينتقد العربية السعودية وإن بطريقة مهذبة، شديد التشاؤم، إذ صرح في إحدى المقابلات: «تلك المدن الاقتصادية مجرد مهزلة».

تتفق الصحافية كارين إيليوت هاوس (Karen Elliot House) مع ما يقوله ليسي. ففي كتابها **العربية السعودية** (*The Saudi Arabia*) الصادر عام ٢٠١٢، تعقد مقارنة لاذعة:

«الخطط الحكومية في العربية السعودية شبيهة بالخطط في الاتحاد السوفياتي السابق، مبالَغة في العظمة ولكن دون إنجاز... وكلما أخفقت خطة عظيمة، غالباً ما يلجأ المسؤولون الحكوميون

(٣٨) John Sfakianakis, «Is the Saudi Arabian Economy Productive?,» Saudi-US Trade Group, 21 February 2014, <http://sustg.com/is-the-saudi-arabian-economy-productive> (Last accessed 5 August 2014).

انظر أيضاً التحليل النقدي لـ: John Sfakianakis, «Saudi Arabia's Non-Oil Export Figures are Just Numbers on Paper,» Saudi-US Trade Group, 3 February 2014, <http://sustg.com/saudi-arabias-non-oil-export-figures-are-just-numbers-on-paper> (Last accessed 5 August 2014).

(٣٩) King Abdullah Economic City, <http://www2.kaec.net>.

(٤٠) Dave Eggers, *A Hologram for the King* (San Francisco, CA: McSweeney's Books, 2012).

(الاقتباسات مأخوذة من الترجمة الهولندية، ص ٤٠).

(٤١) المصدر نفسه، ص ٤٨ (الاقتباسات مأخوذة من الترجمة الهولندية).

إلى الإعلان عن خطة جديدة، تحت إدارة هيئة حكومية مشكّلة حديثاً، تحمل اسماً مختصراً جديداً وتشغل مقراً جديداً، وطبعاً، بميزانية جديدة»[٤٢].

يمكن القول، إذاً، إن هناك مشاكل وعوامل قلق على عدة جبهات. فالعربية السعودية لا يمكنها، بالطبع، أن تفعل الكثير حيال مشاعر القلق بشأن «المخاطر» الكامنة في استخراج الغاز الصخري في أمريكا الشمالية[٤٣]. وفي ذلك سبب أهم لدفعها نحو مواجهة تلك المشكلات، لكن هذا الأمر يتطلب قراراً سياسياً. ومنذ بداية الربيع العربي، يبدو هذا الأمر أبعد احتمالاً من ذي قبل. في عام ٢٠١١، انتهج الملك عبد الله خط المقاومة الدنيا، وذلك من خلال بذل الأموال الطائلة والعديد من الإجراءات المهدّئة الأخرى الرامية لإسعاد الناس. وبعد أربعة أعوام، لجأ الملك الجديد، الملك سلمان، إلى وسائل الإلهاء ذاتها، إذ أنفق ما يقارب ٣٢ مليار دولار بصورةِ هِبات واستثمارات وعلاوات للسعوديين. لم يكن هناك، ولا يوجد حتى الآن، أي استعداد لمعالجة القضايا الحقيقية. وقد يكون رفع سعر البنزين إحدى الخطوات الممكنة. لكن القضية الشائكة الحقيقية تكمن في فرض الضرائب، رغم أنها قد تتحول إلى قضية جوهرية في المستقبل (القريب؟). فلا توجد في العربية السعودية ضريبة دخل. ولنفترض أن الحكومة فرضت هذه الضريبة على رعاياها، ألن يطالِبوا حينها بأن يكون لهم رأي في إدارة شؤون الدولة؟

رابعاً: «أمريكا الصغرى»

من يزر المجمّع السكني التابع لشركة أرامكو السعودية في الظهران، شرق العربية السعودية، يخيلْ إليه أنه في إحدى ضواحي كاليفورنيا. ويبدو اسم «أمريكا الصغرى» اسماً تهكمياً ملائماً لهذا المجمّع الذي يؤوي موظفي أكبر شركة نفطية في العالم، مع عائلاتهم. يضم المجمع البيوت ذات الطابق الواحد والمروج الخضر والشوارع الفسيحة التي تعج بسيارات تقودها نساء. وإذا طلبتَ موعداً مع إحدى رائدات الحركة النسوية في البلاد، وجيهة الحويضر، فسوف تحضر بنفسها لاصطحابك في سيارتها. كل هذا يحدث، بالطبع، داخل أسوار المجمّع حيث تعيش هذه السيدة خارج إسار تطفّل المطاوعة، وهم أفراد الشرطة الدينية الذين يحظّر عليهم قطعياً الدخول إلى المجمّع.

تبدو «أمريكا الصغرى»، بسكانها البالغ عددهم ١١,٠٠٠ نسمة تقريباً، أشبه بالمدينة المحصنة، ففيها كل ما تحتاجه من مدارس ودور سينما وبرك السباحة وملاعب غولف ومكتبات ومتاجر.

---

(٤٢) Karen Elliot House, *On Saudi Arabia: Its People, Past, Religion, Fault Lines-and Future* (New York: Alfred A. Knopf, 2012), pp. 161 and 169.

(٤٣) ينبغي الإشارة إلى أن العربية السعودية نفسها تضم إمكانات تطوير الصخر الزيتي ـ رغم أن ذلك غير محتمل في المستقبل القريب بسبب وجود مشاكل فنية. انظر: Accenture, «International Development of Unconventional Resources: If, Where and How Fast?,» Accenture (2014), <http://www.accenture.com/SiteCollectionDocuments/PDF/Accenture-Energy-International-Development-Unconventionals.pdf>.

كان بوسع القاطنين هناك، لغاية ثمانينيات القرن العشرين، شرب الكحول وتناول لحم الخنزير والاحتفال بعيد الميلاد. ولكن منذ أن بدأت رياح الأسلمة تهب على المنطقة بعد عام ١٩٧٩، لم تعد العادات الاجتماعية متسامحة، مع ذلك، وبخلاف باقي أنحاء المملكة، تجري الطقوس الدينية للكاثوليك والبروتستانت وطائفة المورمون داخل جدران ثلاث صالات رياضية. الدين الإسلامي لا يكاد يظهر هنا بل إن مئذنة المسجد الموجود هناك صغيرة جداً. يختلط الرجال والنساء داخل المجمع دون أي تعقيدات، سواء في مجال العمل أو في المجال الاجتماعي. يمثّل الشيعة نسبة كبيرة من العاملين هناك، في المراتب الوسطى والعليا، وهم يُستثنون فقط من المراكز القيادية.

يبدو مجمع أرامكو السعودية (واسمه الرسمي «شركة النفط العربية السعودية»)، من أوجه عدة، أشبه بمنعَزَل غربي في الشرق الأوسط، رغم وجوده ضمن أكثر الدول محافَظَةً في المنطقة بأكملها.

تسود في المجمّع معايير مختلفة عن تلك الموجودة في باقي مناطق المملكة، فهنا تكتسي الصفات الفردية أهمية تفوق معايير الروابط العائلية أو القبلية. الناس هنا يعملون بجد، فالموهبة تلقى ترحيباً وتُكافَأ، كما تلقى الخبرة والدراية كل رعاية. تُعتبر أرامكو السعودية شركة مؤسَّسة على قواعد سليمة وتُدار بكفاءة أكثر من كل الشركات في العربية السعودية. هي «دولة داخل دولة»، كما يصفها أحد المديرين التنفيذيين البارزين في مركز ريادة الأعمال (Entrepreneurship) التابع لأرامكو. «هي إحدى أدوات الملك التي يستخدمها لتنفيذ ما لا يمكن تنفيذه بوسائل أخرى. وبذلك يتمكن الملك ليس فقط من تفادي معارضة القوى الرجعية في حكومته، بل ويتمكن أيضاً من تفادي معارضة رجال الدين المحافظين». ويورد المدير المذكور أمثلة في مجال التعليم والرياضة وفرص العمل. إذ إن الناس، ضمن تلك المشاريع، لا يخضعون لـ «الذهنية البدوية» التي لا تنجو منها، كما يقول، الحكومة نفسها.

يؤكد الفيلسوف الشيعي المعروف، توفيق السيف، صحة ما ورد أعلاه، لكنه يمضي أبعد من ذلك في تقييمه لاستقلالية أرامكو السعودية:

«الشركة، دون استثناء، القوة المهيمنة في المنطقة الشرقية وهي تُدار بمنتهى الكفاءة. معظم الأجهزة الحكومية تعمل بحيث تتضارب أهدافها، وبالتالي فهي غير كفؤة على نحو فاضح. أرامكو السعودية تبرز وحدها في هذا المجال؛ فلديها ميزانية هائلة وقد تتبع أحياناً سياسة تتعارض ورغبة الملك، على سبيل المثال، في ما يتصل بسياسة الاستفادة من الأرض. لا يستطيع أحد القول إن الملك يدير الشركة».

لا يصعب، بالطبع، العثور على أشخاص ينتقدون هذه الوضعية الاستقلالية. يقول أحد المسؤولين في أرامكو في مقابلة أجريناها معه: «الديك معسكران في العربية السعودية؛ إذا نظرنا مثلاً إلى شعور الناس تجاه خالد الفالح[٤٤]، المسؤول التنفيذي الرئيس لدينا. فهم إما أن

(٤٤) في نيسان/أبريل ٢٠١٥ عُيِّن الفالح رئيس شركة أرامكو، ثم أصبح وزيراً للصحة.

يشعروا نحوه بالحب أو بالبغض. بالنسبة إلي، أنا أعتبره إنساناً متميزاً!» وقد اتضح، وعلى نحو مذهل، أن رأيه في الفالح لا يسري على الجميع، وذلك في شهر آب/أغسطس من عام ٢٠١٢ عندما استخدمت مجموعة من القراصنة برنامج فيروس شمشون لاختراق شبكة حواسيب الشركة. ونجحت جماعة غير معروفة، تطلق على نفسها اسم «سيف العدالة البتار»، في تعطيل حواسيب الشركة البالغ عددها ٣٠,٠٠٠ حاسوب، ولكن دون أن تعرّض إنتاج الشركة من النفط لخطر جدّي. وتتهم الجماعةُ المذكورة السلطاتِ السعودية بارتكاب «جرائم وفظائع» في سورية والبحرين. وبرأي هؤلاء، أن أرامكو السعودية ليست «جزيرة» معزولة كما تؤكد الشركة باستمرار. بل هي امتداد مباشر للعائلة السعودية. وقد تأكد ذلك في شهر نيسان/أبريل من عام ٢٠١٥، عندما فصل الملكُ الجديد أرامكو عن وزارة البترول والثروة المعدنية السعودية، ووضع الشركة العملاقة تحت الإشراف المباشر لمجلس الشؤون الاقتصادية والتنمية، الذي أُنشئ حديثاً والذي يرأسه ابنه، محمد بن سلمان.

الفصل الرابع

دقات القنبلة الموقوتة:
الطموحات العالية للجيل الجديد

«آن الأوان للإصغاء إلى الشباب السعودي» ـ كان هذا عنوان مقال نُشر في صحيفة سعودي غازيت (*Saudi Gazzette*)[1]. كانت صرخة من القلب تعبّر عن المشكلة الكبيرة المتمثلة بعدد الشباب الكبير على نحو غير متناسب، في العربية السعودية. أعاد الربيع العربي هذه المسألة إلى بؤرة الاهتمام. إذ إن الجيل الجديد شكّل الجزء الأكبر من الحشود التي ملأت الساحات في عدة عواصم عربية والتي كانت تنادي بإسقاط الأنظمة. ولكن بعد تلاشي النشوة العابرة، شعر أولئك الثوريون من الشباب بالإحباط. والواقع أن الحضور الكثيف للشباب لم يكن بحد ذاته مفاجئاً، حيث إن الشرق الأوسط يضم شعباً فتياً ـ الشعب الأكثر فتوة في العالم بعد أفريقيا.

يشكل الشباب دون الثلاثين من العمر ثلثا الشعب السعودي[2]. وخلال السنوات العشر أو العشرين القادمة سوف يمثل هؤلاء مشاكل اقتصادية واجتماعية، وحتى سياسية، جمة. ازداد عدد سكان السعودية خلال الفترة بين عامي ١٩٥٠ ـ ٢٠١٣ من ثلاثة ملايين إلى ما يقارب ثلاثين مليون نسمة ـ أي عشرة أضعاف. والأرجح أن المشهد الديمغرافي العام لن

---

(١) Khalid Al-Seghayer, «It's Time to Listen to Saudi Youth,» *Saudi Gazette* (5 February 2013), <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20130205151998> (Last accessed 12 September 2014).

(٢) من بين مجموع عدد السكان (٣٠ مليوناً) هناك تسعة ملايين وأربعمئة ألف تقريباً من غير السعوديين. تختلف تقديرات عدد المهاجرين غير الشرعيين إلى حد كبير. في كانون الأول/ديسمبر من عام ٢٠١٣، قدرت الحكومة العدد بخمسة ملايين، بمن فيهم الحجاج الأجانب الذين يظلون في البلد بعد الحج أو العمرة. انظر: «Shoura to Tackle Problem of 5 Million Illegals in Kingdom,» *Arab News*, 11/11/2012, <http://www.arabnews.com/saudi-arabia/shoura-tackle-problem-5-million-illegals-kingdom> (Last accessed 11 September 2014).

انظر أيضاً: Regional Mixed Migration Secretariat (RMMS), «The Letter of the Law: Regular and Irregular Migration in Saudi Arabia in a Context of Rapid Change,» Study no. 4, Nairobi, April 2014.

يتغير خلال الفترة المقبلة؛ وسوف يستقر وسطي الأعمار عند سن الثلاثين تقريباً، لكن هذا سيتحقق بحلول عام ٢٠٢٦[٣]. بعبارة أخرى، سيكون نصف عدد سكان السعودية، «فقط»، دون الثلاثين من العمر. إلى أي حد تمثل هذه الزيادة الكبيرة في عدد الشباب تهديداً جدياً للاستقرار؟

أولاً: الفقر في بلاد الذهب الأسود

للوهلة الأولى، لا يبدو أن هناك الكثير من الغيوم في الأفق. فالعربية السعودية تمتلك مخزونات نفطية هائلة ـ الثانية في العالم (بعد فنزويلا) ـ وبالنظر لسعر النفط المرتفع إلى حد معقول، خلال الفترة بين العامين ٢٠٠٥ ـ ٢٠١٤، ازدادت الاحتياطيات النقدية الوطنية إلى ما يقارب ٧٥٠ مليار دولار عام ٢٠١٤ ـ لكنها هوت اعتباراً من تلك الفترة بمعدل ١٠ بالمئة أو ما يقارب ٧٠ مليار دولار[٤]. في عام ٢٠١٣، جنت الدولة ٢٧٨ مليار دولار من الصادرات النفطية وفي عام ٢٠١٤ جنت ٢٤٦ مليار دولار[٥]. لكن تلك الأرقام الهائلة لا تعني شيئاً بحد ذاتها. ففي ما يتعلق بالناتج المحلي للإجمالي للفرد في العربية السعودية (٣١,٢٤٥ دولاراً)، تبدو العربية السعودية متخلفة عن دول مجاورة مثل قطر (٩٨,٨١٤ دولاراً)، والكويت (٣٩,٧٠٦ دولاراً) والبحرين (٣٤,٥٨٤ دولاراً)[٦].

هناك جزء لا يستهان به من عائدات الدولة يصب سراً في المصاريف، الهائلة دون أي شك، للعائلة المالكة التي ازداد عدد أفرادها ليبلغ ما بين ٦٠٠٠ و٧٠٠٠ أمير وأميرة يتلقون جميعاً مخصصات شهرية تتراوح ما بين ألفي دولار ومئتين وخمسين ألف دولار.

تستهلك نفقات الدفاع، المحاطة بالسرية التامة، جزءاً كبيراً مماثلاً من عائدات النفط. ووفقاً لتقديرات معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام (SIPRI)، أنفقت العربية السعودية في السنوات الأخيرة ٨ ـ ١٠ بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي على الجيش. وتجعل منها هذه النسبة البلد الأول في العالم في هذا المجال؛ وإذا حسبنا حصة الفرد السعودي من هذا الإنفاق، فإن الرقم

---

(٣) العمر الوسطي ٢٦,٤ سنة. انظر: «Saudi Arabia Median Age,» <http://www.indexmundi.com/saudi_arabia/median_age.html> (Last accessed 14 October 2014).

(٤) Angelo Young, «Saudi Arabia Feeling Pain of Oil Price Plunge, But It Has Enough Currency Reserve to Last for Years,» IBT, 25 December 2014, <http://www.ibtimes.com/saudi-arabia-feeling-pain-oil-price-plunge-it-has-enough-currency-reserve-last-years-1767238>.

(٥) «OPEC Revenues Fact Sheet,» U.S. Energy Information Administration (EIA), 31 March 2015, <http://www.eia.gov/beta/international/analysis_includes/special_topics/OPEC_Revenues/opec.pdf> (Last accessed 15 September 2015).

إلى حين كتابة هذه السطور، كانت أسعار النفط انخفضت إلى أدنى مستوياتها منذ خمس سنوات، مما أدى إلى خفض عائدات النفط لجميع الدول المصدرة للنفط.

(٦) الأرقام تشير إلى الناتج المحلي الإجمالي مقدَّر بالدولار، وهي مأخوذة من حسابات تعادل القوة الشرائية، للفرد. انظر: International Monetary Fund, «World Economic Outlook Database,» (April 2014), <http://www.imf.org/external/pubs/ft/weo/2014/01/weodata/index.aspx>.

يتجاوز الرقم الذي تنفقه الولايات المتحدة وروسيا في هذا المجال بأكثر من الضعفين، ويبلغ خمسة أضعاف ما تنفقه بريطانيا العظمى وفرنسا والصين[٧].

ورغم عدم توفُّر أرقام رسمية بهذا الشأن، فإن من المعروف أن هناك تبايناً دراماتيكياً في المداخيل في العربية السعودية. ففي حين كان متوسط دخل الفرد الشهري عام ٢٠١٣ بحدود ٨٠٠٠ ريال سعودي (٣,١٣٣ دولاراً)، فإن عدداً كبيراً من السكان يضطرون إلى تدبُّر أمر معيشتهم بدخل أدنى كثيراً. وإذا أخذنا بالاعتبار أن متوسط عدد أفراد العائلة السعودية يبلغ ستة أفراد، فإن هذا الدخل لا يكاد يكفي العديد من السكان ليعيشوا حياة لائقة. ورغم مجانية الرعاية الصحية والتعليم، فإن الخدمات في هذين المجالين غالباً ما تكون ذات نوعية متدنية، لكن الحكومة توفّر دعماً كبيراً للماء والكهرباء والبنزين. مع ذلك، فإن الحياة بالنسبة إلى العديد من السعوديين هي كفاح يومي للعيش ضمن حدود الدخل.

هل يوجد في العربية السعودية، بلد الذهب الأسود وناطحات السحاب التي تلمع تحت أشعة الشمس، ما يمكن أن نعتبره فقراً حقيقياً؟ تختلف التقديرات هنا ولا وجود لأرقام دقيقة، لكن عدداً كبيراً من السعوديين يعانون مشكلة تدبُّر أمر معيشتهم[٨]. وفقاً لإحصاءات وزارة الخدمة الاجتماعية، يصل خط الفقر حد ١٨٠٠ ريال سعودي (٤٨٠ دولاراً) في الشهر. وقد أجرى أحد الاقتصاديين

---

(٧) Sam Perlo-Freeman and Carina Solmirano, «Trends in World Military Expenditure, 2013,» SIPRI Fact Sheet (April 2014), <http://books.sipri.org/files/FS/SIPRIFS1404.pdf>.

قدرت الأرقام الأخيرة الخاصة بميزانيات الدفاع لعام ٢٠١٣، والمقدمة من London's International Institute for Strategic Studies أن العربية السعودية كانت تنفق ٥٩,٦ مليار دولار. ويقال إن ثمة تحفظات عن هذا الرقم؛ فهو يجعل السعودية تتفوق على المملكة المتحدة وفرنسا واليابان، كما يجعل منها رابع أكبر دولة منفقة على الدفاع، إذ إن ميزانية الدفاع قد ازدادت بمعدل ١١١ بالمئة بين العامين ٢٠٠٣ ـ ٢٠١٣. انظر: Giri Rajendran, «2013's Top Defence-spenders,» International Institute for Strategic Studies (IISS), 5 February 2014, <http://www.iiss.org/en/militarybalanceblog/blogsections/2014–3bea/february-f007/defence-spending-a132> (Last accessed 7 August 2014), and Jonathan Schanzer, «An Edge in the Desert,» *Foreign Policy*, 3 February 2014, <http://www.foreignpolicy.com/articles/2014/02/03/an_edge_in_ the_desert_iran_middle_east_weapons> (Last accessed 7 August 2014).

نواف عبيد يرسم صورة للمملكة العربية مصابة بجنون العظمة بدلاً من الطموحات العسكرية للمملكة العربية السعودية في: «A Saudi Arabian Defense Doctrine: Mapping the Expanded Force Structure the Kingdom Needs to Lead the Arab World, Stabilize the Region, and Meet its Global Responsibilities,» Harvard Kennedy School: Belfer Center for Science and International Affairs (May 2014), <http://belfercenter.ksg.harvard.edu/files/Saudi%20Strategic%20Doctrine%20-%20web.pdf>.

(٨) على سبيل المثال، واستناداً إلى ما ورد في تقرير *Saudi Gazette*: «حوالى ١٧,٧ بالمئة من السعوديين يحصلون على دخل شهري يقل عن ٤٠٠٠ ريال سعودي. ولا تزيد نسبة العائلات السعودية التي تحصل على ٧٠٠٠ ريال سعودي شهرياً عن ٥٠ بالمئة ... الدخل الثابت لحوالى ١٥,٨ من العائلات يتراوح بين ١٢٠٠ ريال سعودي و١٣٠٠ ريال سعودي. أما نسبة من يحصلون على دخلٍ عالٍ، ١٥٠٠٠ ريال سعودي أو أكثر، فهي لا تزيد عن ١١,٢ بالمئة». انظر: <http://www.saudiga-zette.com.sa/index.cfm?method=home.PrintContent&fa=regcon&action=Print&contentid=20130829178506&simplelayout=1> (Last accessed 6 August 2014).

تُظهر دراسة أجريت عام ٢٠١٣ وجود فروق طبقية حادة متزايدة ضمن المجتمع السعودي. انظر: Mishary Alnuaim, «The Composition of the Saudi Middle Class: A Preliminary Study,» (Gulf Research Center, October 2013), <http://www.isn.ethz.ch/Digital-Library/Publications/Detail/?lang=en&id=171150>.

البارزين في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في الظهران حسابات خاصة به. «في الواقع، لا يمكن أن نعول على أرقام الحكومة. بتقديري أن ٣٥ بالمئة من السكان يتعين عليهم تدبّر أمر معيشتهم بدخل شهري أقل كثيراً من ٢٠٠٠ ريال سعودي (٥٣٣ دولاراً). هؤلاء فقراء». هناك أيضاً أشخاص فقراء «حقيقيون» يحصلون على دخل أقل. وهؤلاء لا يعيشون في مناطق مهمَلة مثل عسير وجيزان ونجران، بل في مدن كبرى أيضاً. فأحياء السويدي والجرادية والشماسية (في الرياض)، والكرنتينا والرويس والسلامة (في جدة) هي أحياء فقيرة مكتظة بالسكان تتنافس في سوء السمعة، يقطن فيها السعوديون المعدمون بالإضافة إلى العمال الوافدين الذين يعيشون على الصدقات، وفي حالات كثيرة، على الجريمة. وطبقاً لما تقوله بعض المصادر، يكسب العامل الأجنبي العادي شهرياً ١٠٠٠ ريال سعودي (٢٦٦ دولاراً) فقط لا غير[٩].

كشفت سلسلة الأفلام الوثائقية التي عرضت على موقع يوتيوب مدى الفقر المدقع. فقد أجرى صانعو أفلام «We are being cheated: Poverty in Saudi Arabia» مقابلات مع أشخاص فقراء معدمين يعيشون في أحياء الفقر المكتظة بالسكان في الرياض وجدة[١٠]. كانت المادة المعروضة حساسة بحيث جرى اعتقال صانعي الأفلام بعد مضي أسابيع من إدراج الأفلام على شبكة الإنترنت. وفي صيف عام ٢٠١٣ نُظمت حملة على موقع تويتر، كان عنوان الهاشتاغ «الراتب ما يكفي الحاجة». خلال الأسبوعين الأوَّلين دخلت الموقع أكثر من عشرة ملايين تغريدة. كتبت الناشطة الشعبية منال الشريف في تغريدة لها:

«تقدم الحكومة المال إلى مصر والأردن وتونس دون فوائد، وتخصص ثلث الميزانية الوطنية لتمويل خطة إنشاء مترو الرياض. هذا في الوقت الذي ينفق فيه السعوديون الجزء الأكبر من رواتبهم على الإيجارات والمدارس الخاصة والمستشفيات الخاصة ـ فالمدارس والمستشفيات الحكومية تعيش وضعاً متدنياً»[١١].

ثانياً: العديد من الخريجين والقليل جداً من الوظائف

لنعد إلى جيل الشباب. عندما أثير موضوع ارتفاع معدل البطالة بين الشباب، قال شاب في الثانية والعشرين من العمر، يدرس اللغة الإنكليزية في جدة: «نحن كسالى». «نترك الوافدين يقومون بالأعمال التي لا نستطيع القيام بها». ويردد ثلاثة طلاب يدرسون العلوم السياسية في جامعة الملك

(٩) Ellen Knickmeyer, «Idle Kingdom: Saudi Arabia's Youth Unemployment Woes Go Far Deeper than Most Realize,» *Foreign Policy*, 19 July 2011, <http://www.for-eignpolicy.com/articles/2011/07/19/all_play_no_work> (Last accessed 9 January 2014).

(١٠) «Mal3ob 3alena: Poverty in Saudi Arabia English Version,» Youtube 18 October 2011, <http://www.youtube.com/watch?v=SISBqgW5xx0> (Last accessed 14 October 2014).

(١١) Daisy Carrington, «Twitter Campaign Highlights Poverty in Saudi Arabia,» CNN, 6 September 2013, <http://edition.cnn.com/2013/09/05/world/meast/twitter-campaign-highlights-poverty> (Last accessed 9 January 2014).

سعود في الرياض، الفكرة ذاتها: «نحن نعاني من خلل في أخلاقيات العمل». وهذا يؤدي إلى «بطالة طوعية». هناك العديد من الشباب الذين تربيهم عائلاتهم على الدلال، ولا يفلح التعليم الذي يتلقونه في تغيير هذا الواقع». لكنْ ثمة إدراك يتنامى بأن على السعوديين أن يشمروا عن سواعدهم ويستعدوا للعمل. قد يأتي التغيير تدريجياً، لكن المرء يصادف عدداً متنامياً من الشباب السعوديين يعملون في مهن لم يكن أحد يراهم يعملون بها قبل خمس أو عشر سنوات - مثل سائق سيارة أجرة أو موظف استقبال في فندق أو أمين صندوق أو كاتب في مصرف، أو موظف في متاجر هاتف «موبايلي» (Mobily) أو نادل يقدم القهوة بالحليب في محلات «ستاربكس» (Starbucks). كما بدأت النساء تظهرن أكثر فأكثر في الأماكن المخصصة للبيع في المتاجر. فوسط حمّالات الصدر الذهبية والسراويل الداخلية الوردية في أقسام الثياب الداخلية، نرى بائعات سعوديات يغطين وجوههن بالنقاب ويرتدين عباءات تغطيهن من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. لكنْ هناك شك في أن الأمور قد تغيرت فعلاً. فإذا أخذنا بالاعتبار إحصاءات البطالة، فإن هذه المسألة تبدو ملحة كما كانت دائماً، تماماً مثلما تبدو الحاجة إلى تغيير السياسة الاقتصادية وإلى تأمين فرص عمل أكثر في القطاع الخاص ملحّة أيضاً.

في عام ٢٠١٤، كان الرقم الرسمي لمعدل البطالة ١١,٧ بالمئة؛ لكن الرقم الحقيقي قد يكون أعلى كثيراً. يقول مسؤول كبير في شركة أرامكو، لا يرغب في الكشف عن هويته، إنه لا يثق بإحصاءات الحكومة. ويضيف «إن الرقم الحقيقي لمعدل البطالة يقارب ٢٧ - ٢٩ بالمئة». والأمر الذي يدعو إلى القلق أكثر هو أن معظم الباحثين عن عمل هم بين العشرين والتاسعة والعشرين من العمر. وهناك نسبة ٤٠ بالمئة من جيل الشباب العاطلين من العمل والذين تبلغ أعمارهم بين العشرين والرابعة والعشرين. ضمن هؤلاء، يبدو عدد النساء كبيراً على نحو غير متناسب - نصف عدد الشابات الباحثات عن عمل لا ينجحن في ذلك. معدل مشاركة المرأة في سوق العمل هو بين المعدلات الدنيا في الشرق الأوسط، إذ إن نسبة ١٢ بالمئة من النساء فقط يعملن[(١٢)].

وفي كل عام تخرّج الجامعات ما بين ٢٥٠٠٠٠ و٣٠٠٠٠٠ خريج (عدد النساء يفوق عدد الرجال قليلاً) يبحثون عن عمل دونما جدوى[(١٣)]. ويصدق الشيء نفسه على القطاع العام المزدحم

---

(١٢) تقدم مصادر أخرى معدلات أعلى (١٦ بالمئة عام ٢٠١٣)، انظر على سبيل المثال: John Sfakianakis, «On Saudi Employment: The Numbers Do Not Lie,» Saudi-US Trade Group, 16 January 2014, <http://sustg.com/on-saudi-employment-the-numbers-do-not-lie> (Last accessed 19 January 2014).

استناداً إلى ما يقوله وزير التوظيف السعودي، عادل الفقيه، فإن ٨٠ بالمئة من مجموع الباحثين عن عمل، البالغ ١,٥٠٠,٠٠٠، هم من النساء. انظر: صحيفة الرياض، ٢٠١٢/١٠/٣. واللافت أن معدل البطالة بين النساء السعوديات في عام ٢٠١٣ ثبت عند ٣٤ بالمئة، وذلك استناداً إلى الجهاز المركزي للإحصاء والمعلومات. أي بزيادة قدرها ٢ بالمئة عن العام الأسبق. انظر: Fadia Jiffry, «Unemployment Rate among Saudi Women Hits 34%,» *Arab News*, 23/6/2014, <http://www.arabnews.com/news/560096>.

(١٣) استناداً إلى تقديرات الاستخبارات الأمريكية (CIA) سوف يصل ما مجموعه ٥٠٦,٠٠٠ رجل وامرأة، على الأقل، سن العمل عام ٢٠١٥. وسوف يلتحقون بقوة عاملة يبلغ عدد أفرادها ٨,٤ مليون، منهم ١,٧ فقط سعوديون في الوقت الحالي. انظر Anthony Cordesman, «The True Nature of the Saudi Succession «Crisis»,» (Center for =

أصلاً بالموظفين الزائدين على حاجته، وهو القطاع الذي كان ـ ولغاية بضع سنين مضت ـ مقصد تسعة سعوديين من كل عشرة للعمل فيه. أما القطاع الخاص، حيث تبلغ نسبة العاملين فيه تسعة وافدين مقابل سعودي واحد، فلا يُظهر اهتماماً كبيراً بأولئك العاملين الذين لا يتمتعون بالكفاءات المطلوبة، هذا إن وُجدت تلك الكفاءات[١٤].

تواجه النساء عقبات إضافية في سعيهن للحصول على عمل. فالفصل بين النساء والرجال يتطلب إجراء تغييرات مكلفة في الأماكن المخصصة للبيع في المتاجر، تغييرات لا يرغب معظم أصحاب العمل في تنفيذها. ويمكن القول عموماً، إن النظام التربوي هو الملوم، هذا بالإضافة إلى النفور، عموماً، من العمل اليدوي أو الأعمال المنزلية، رغم أن عدداً كبيراً من السعوديين غير مؤهلين فعلياً لأعمال غير تلك. فالأغلبية الساحقة من الحاصلين على درجات جامعية درسوا موضوعات «مريحة»، كالدراسات الإسلامية أو علم الاجتماع أو التاريخ الإسلامي. ويدخل هؤلاء سوق العمل من دون أن يكونوا مهيئين على الإطلاق. يقول عبد الله دحلان، الذي يدير معهداً للتدريب المهني في جدة: «نسبة ٨٢ بالمئة من طلاب الجامعة يتخرجون من كليات لا صلة لها بالاقتصاد»[١٥] وهذا الموضوع غالباً ما يُناقش على موقع تويتر. يعلّق essamz@، مثلاً، بالقول: «عندما تتخرج أعداد كبيرة من الطلاب من كليات تدرّس فروعاً معرفية أدبية ودينية، من سيساعد إذاً في بناء الاقتصاد؟» باختصار، العديد من السعوديين غير مؤهلين للأعمال التي يرغبون بها، وهم يرفضون قبول الأعمال التي يتمتعون بالمؤهلات الضرورية لها.

أجبرت الثوراتُ العربية الحكومة على الالتفات إلى هذه القنبلة الموقوتة التي بدأت تُسمع دقاتها. منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين، جرت محاولات لفرض «سياسة سعوَدة»، لكن تلك المحاولات، وحتى وقت قريب، كانت تتعثر وسط تقاذُف المسؤوليات البيروقراطية بين الوزارات، ومقاومة القطاع الخاص والتحايل الذي يرافق منح التأشيرات. وهناك مثال على مسألة منح التأشيرات أحدث ضجة كبيرة، حيث منح أمير المنطقة الشرقية ٣٠٠٠ إذن عمل لصديقه وشريكه في مجال الأعمال، بينما كان يهم بإلقاء خطاب في مؤتمر للسعوَدة. وقد أصدرت الحكومة خلال السنوات الأخيرة عدداً متزايداً من التأشيرات لعمال وافدين تحت ضغط رجال

= Strategic and International Studies, Washington, DC, 9 January 2015), <http://csis.org/publication/true-nature-saudi-succession-crisis> (Last accessed 11 January 2015).

(١٤) في السنوات الأخيرة فقط ازداد عدد السعوديين العاملين في القطاع الخاص: خلال الفترة بين ٢٠١١ ـ ٢٠١٣ من ١٠ بالمئة إلى ١٤ بالمئة. أثناء المقابلات، قال غالبية السعوديين إنهم ما زالوا يفضلون العمل في القطاع العام. انظر: Jihad Fakhreddine and Travis Owen, «Lure of Government Jobs for Saudis,» Gallup - *Business Journal* (20 August 2015), <http://www.gallup.com/businessjournal/184748/lure-government-jobs-saudis.aspx?utm_source=alert&utm_medium=email&utm_content=morelink&utm_campaign=syndication> (Last accessed 15 September 2015), and Steffen Hertog, «Arab Gulf States: An Assessment of Nationalisation Policies,» (GLMM Research Paper; no. 1, Gulf Labour Markets and Migration Programme, Badia Fiesolana, Italy, 2014).

(١٥) David Ottaway, «Saudi Arabia's Race against Time,» Middle East Program, Occasional Paper Series (Wilson Center) (Summer 2012), p. 5, <http://www.wilsoncenter.org/publication/saudi-arabias-race-against-time-summer-2012> (Last accessed 10 July 2014).

الأعمال؛ تضاعف العدد خلال الفترة بين العامين ٢٠٠٥ ـ ٢٠١١، إذ جرى إصدار ٢,٥ مليون تأشيرة(١٦).

ثالثاً: استمرار الاعتماد على القوة العاملة الوافدة

بدا الأمر مؤخراً وكأن معالجة المشكلة بدأت تأخذ مساراً أكثر جدية. فاعتباراً من عام ٢٠١١، بدأ تنفيذ عدة برامج، مثل «حافز» و«لقاءات»، وذلك بهدف إيجاد صلة بين أصحاب العمل والباحثين عن عمل، وأرفقت تلك البرامج بخطط للتدريب، كما دُعِمت بمنظومة من إعانات البطالة يبلغ حدها الأقصى ٤٠٠ يورو شهرياً. كانت النسبة الساحقة (٨٥ بالمئة) من طلبات تلك المخصصات مقدَّمة من قِبَل نساء.

أما البرنامج الذي أحدث أكبر ضجة فهو برنامج «نطاقات» وقد بوشر بتنفيذه في شهر أيلول/سبتمبر من عام ٢٠١١. يتألف البرنامج من منظومة معقدة من الرموز اللونية («أزرق» أو «ممتاز»، «أخضر»، «أصفر»، «أحمر») التي توزَّع على شركات القطاع الخاص حسب حصتها من السعوديين الذين يُتوقع منها أن توظفهم ضمن القوة العاملة لديها. ويهدف البرنامج إلى زيادة عدد السعوديين من ١٠ بالمئة إلى ٣٦ بالمئة وسطياً حسب فئة الشركة. في المصارف التي توظّف أكثر من خمسمئة شخص، مثلاً، تصل النسبة المئوية إلى ٤٩ بالمئة. وفي فروع الأعمال الأخرى، مثل متاجر الألبسة الداخلية، تكون نسبة الموظفين السعوديين الإجبارية هي ١٠٠ بالمئة. وكل جهة تضم دفاتر حساباتها عدداً من الوافدين بأكثر مما هو مسموح لها، تُغرَّم.

إذا شئنا لطف التعبير، لم يجْر تنفيذ برنامج «نطاقات» سلساً دون أي عقبات. فقد سادت مشاعر السخط في أوساط رجال الأعمال، حيث شعر المديرون أن البرنامج يفرض قيوداً جدية على حريتهم في استقدام الكوادر المناسبة. يعبِّر أحد رجال الأعمال السعوديين عن تذمره قائلاً: «ولماذا يتوجب علي دفع ثمن نظام تعليمي بالٍ. إذا كانت الدولة تطالبني بتوظيف سعوديين، فعليها أولاً تأمين تدريب لائق لهم. أنا أستثمر بغية الربح، لا لأستر عيوب سياسة الدولة»(١٧).

في ربيع عام ٢٠١٣، سرت مشاعر هلع في بعض قطاعات الأعمال لأن العديد من الوافدين، الذين جرى استخدامهم بصور غير شرعية أو عن طريق «كفلاء» غير مناسبين، شعروا بالخشية أن يجري اعتقالهم فلم يحضروا إلى مواقع عملهم. وفي نهاية شهر آذار/مارس من ذاك العام، أغلقت ثلاثة أرباع متاجر الهواتف الصغيرة في الرياض كما تعطلت الأنشطة في ميناء جدة لأن ثمانية من أصل عشرة من العمال لم يحضروا إلى مواقع عملهم.

(١٦) Françoise De Bel-Air, «Demography, Migration and Labour Market in Saudi Arabia,» Gulf Research Center and Migration Policy Centre, Gulf Labour Markets and Migration (GLMM), vol. 1 (2014), p. 9, <http://gulfmigration.eu/media/pubs/exno/GLMM_EN_2014_01.pdf>.

(١٧) Abeer Allam, «Saudis Confront Yawning Divide between Expectations and Reality,» *Financial Times*, 22/2/2011.

. تحدثت الصحف عن مغادرة «مليونين إلى ثلاثة ملايين عامل غير شرعي» الوشيكة، ما دفع بالمفتي العام عبد العزيز آل الشيخ، الذي لا يلجأ عموماً إلى التصريحات الحاسمة، إلى المناشدة لإظهار «الرأفة والصداقة تجاه العمال الوافدين»(١٨). شعرت الوزارة أنها مضطرة إلى التخفيف مؤقتاً من صرامة الإجراءات التي كانت قد أعلنتها ـ لغاية الأول من تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٣. وفي شهر أيلول/سبتمبر، أعلنت وزارة التوظيف أن ٨٠٠٠٠٠ عامل وافد غير شرعي قد تم ترحيلهم خلال الأشهر الفائتة(١٩).

في مستهل شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٣، جرت تسوية أوضاع ما يقارب خمسة ملايين عامل مهاجر «غير نظامي»، غادر مليون منهم البلاد طوعاً أو جرى ترحيلهم(٢٠). وخلال الأشهر التالية، استمر ترحيل العمال الأجانب على نفس الوتيرة ـ خلال الشهرين الأخيرين من عام ٢٠١٣ وشهر كانون الثاني/يناير من عام ٢٠١٤، جرى ترحيل «أكثر من ربع مليون» عامل وافد(٢١). وفي أواخر عام ٢٠١٤، كانت هناك أنباء، لا نستطيع التأكد من صحتها، تقول إن ٨٦ بالمئة تقريباً من الشركات والمؤسسات أصبحت في المجال الآمن من تقسيمات برنامج «نطاقات»(٢٢).

في هذا الوقت، أعلن عادل الفقيه، وزير العمل آنذاك، أن العربية السعودية ضاعفت عدد مواطنيها من العاملين في الشركات الخاصة منذ أن بدأت بتطبيق الإصلاحات الرامية إلى معالجة مسألة البطالة طويلة الأمد. ووفقاً لما قاله الوزير، فإن ما يسترعي الاهتمام على نحو خاص هو أن عدد النساء العاملات في القطاع الخاص قد أصبح ثلاثة أضعاف العدد الذي كان عليه قبل تطبيق برنامج «نطاقات». وقد تحقق هذا الإنجاز الأخير رغم كل المعارضة التي أبداها رجال الدين

---

(١٨) *Saudi Gazette* (30 March 2013), <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20130330159057> (Last accessed 20 September 2013).

(١٩) «Saudi Arabia Deports 800,000 Illegal Foreign Workers,» Al Arabiya News (22 September 2013), <http://english.alarabiya.net/en/views/business/economy/2013/09/22/Saudi-Arabia-deports-800-000-illegal-foreign-workers.html> (Last accessed 21 September 2014).

(٢٠) Bel-Air, «Demography, Migration and Labour Market in Saudi Arabia,» p. 5, and RMMS, «The Letter of the Law: Regular and Irregular Migration in Saudi Arabia in a Context of Rapid Change».

(٢١) *Saudi Gazette* (23 January 2014), <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140123193484>.

ومنذ ذلك الحين، استمرت عمليات الترحيل على وتيرة ثابتة. انظر، على سبيل المثال: «Saudi Arabia Deports 370,000 Migrants Over 5 Months,» *Business Standard*, 20 March 2014, <http://www.business-standard.com/article/pti-stories/saudi-deports-370–000-migrants-over-5-months-114032000716_1.html> (Last accessed 1 February 2014), and Ludovica Laccino, «Saudi Arabia to Deport One Million People in Anti-Immigration Crack-down,» *International Business Times*, 21/10/2014, <http://www.ibtimes.co.uk/saudi-ara-bia-deport-one-million-people-anti-immigration-crackdown-1471035> (Last accessed 2 December 2014).

(٢٢) *Saudi Gazette* (28 October 2014), <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20141029222697> (Last accessed 2 December 2014).

في نيسان/أبريل ٢٠١٥، تقرر تأجيل المرحلة الثالثة من برنامج «نطاقات». انظر أيضاً: Investment Bank Sico, «GCC Economies: Impact of Nitaqat's Third Phase on the Private Sector,» 5 March 2015, <http://www.marketstoday.net/includes/download.php?file=rr_05032015171346.pdf&lang=en&s=1791&m=research> (Last accessed 15 September 2015).

المحافظين. بل إن بعض المتشددين من هؤلاء كتبوا في صفحاتهم على تويتر قائلين إنهم «يتمنون للوزير أن يصاب بالسرطان، نفس المرض الذي أودى بحياة سَلَفه غازي القصيبي»(٢٣).

لكن هناك بعض الأصوات الأكثر تطوراً. فالأمير الوليد بن طلال، مثلاً، ذكر بأنه سيسعد لرؤية عدد أكبر من النساء يعملن خارج البيوت. ومن المنطلق ذاته، صرّح الوليد إن من الواجب السماح للمرأة بقيادة السيارة. وهو يكتب باستمرار في صفحته على تويتر كتابات تحمل نفس الفكرة: «للتخلص من العمالة المخالِفة، القرار الصائب هو في السماح للمرأة بقيادة السيارة فهذا يؤدي إلى الاستغناء عن ٥٠٠٠٠٠ سائق وافد على الأقل، ومن شأن ذلك توفير مردود اقتصادي واجتماعي للوطن».

ينبغي الانتظار لمعرفة ما إذا كان برنامج السَّعْوَدة سيؤمن ما يكفي من الوظائف لخفض معدل البطالة بين الشباب. ويعتمد ذلك على مجموعة من العوامل، وهو ما يدفع للتشكيك بمدى نجاح البرنامج المذكور على المدى الطويل: معدلات الإنجاب العالية (وإن كان ينبغي الاعتراف بأن هذه المعدلات قد انخفضت إلى حد كبير منذ بداية القرن الحالي، لكن عدد السكان ما زال ينمو بمعدل يتخطى ١,٥ بالمئة سنوياً)(٢٤)، منظومة تربوية غير مقتدرة، النفور من الأعمال اليدوية أو المنزلية، تحريم عمل المرأة الذي بدأ ينحسر ولكن ببطء، واقتصاد جامد ذو رأس مال كثيف. في المدى القريب، قد يكون القطاع الخاص هو العقبة الرئيسة. فالعديد من رجال الأعمال معتادون توظيف العمالة الوافِدة الرخيصة، وقد تتعثر بعض الشركات إذا أُجبِرت على توظيف عدد كبير من السعوديين الذين يكلفونها أكثر من العمالة الوافدة. وبالتالي، تبذل هذه الشركات ما بوسعها للالتفاف على الإجراءات المفرطة في القسوة التي ينطوي عليها برنامج «نطاقات». يعترف أحد رجال الأعمال في الخُبَر قائلاً: «أنا مضطر لتوظيف عمالة غير شرعية، لأنني بغير ذلك لن أكون قادراً على منافسة الشركات الكبرى. فلدى تلك الشركات معارف يتوسطون لها ويتيحون لها القيام بما تشاء».

تتمثل إحدى وسائل المراوغة المستخدَمة أكثر من غيرها في «السَّعْوَدة الوهمية»، أي إضافة أسماء «موظفين وهميين» إلى جدول الرواتب ـ يوظِّف مديرو الشركة عدداً معيناً من السعوديين (على أساس حصص برنامج «نطاقات»)، وقد يكونون أحياناً من أفراد عائلاتهم، ويدفعون لهم رواتب على أن يظلوا في منازلهم(٢٥). يشرح أحد موظفي شركة رولكس هذا الإجراء بالقول:

(٢٣) «Saudi Labor Minister Faces «Deadly Prayers» from Angry Clerics,» Alarabiya.net, 26 December 2012, <http://english.alarabiya.net/articles/2012/12/26/257217.html> (Last accessed 26 September 2013).

(٢٤) Central Intelligence Agency, <https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/sa.html> (Last accessed 1 February 2014).

(٢٥) Ellen Knickmeyer, «Saudi Labor Market Overhaul Comes at a Cost,» *Wall Street Journal*, 3/2/2014, <http://blogs.wsj.com/middleeast/2014/02/03/saudi-labour-market-overhaul-comes-at-a-cost> (Last accessed 1 February 2014).

هناك طريقة أخرى لتعزيز عملية السعْوَدة وهي توظيف ذوي الاحتياجات الخاصة. انظر: «Companies Misuse Nitaqat Concession,» *Arab News*, 1/12/2014, <http://www.arabnews.com/saudi-arabia/news/668001> (Last accessed 2 December 2014), and Hertog, «Arab Gulf States: An Assessment of Nationalisation Policies,» p. 15.

«تقوم الشركة بانتظام بإضافة أسماء نساء سعوديات إلى جدول الرواتب ـ وهناك حقيقة لافتة وهي أن خمس نساء يساوين عشرة رجال ـ وتطلب منهن، مهما كانت أنشطتهن الأخرى، ألا يأتين إلى العمل. يمكن القول عموماً إن مديري لا يرغب بوجود سوى أقل عدد ممكن من السعوديين في الورشة ـ فهم لا يعملون بالجدية الكافية ولا يمكن ضبطهم إطلاقاً وغالباً ما يتركون العمل بعد أسابيع».

وبذلك يمكن للشركة أن تكون مؤهلة للمنطقة «الخضراء» أو حتى «الممتازة» في برنامج «نطاقات» بكل ما يرتبط بهاتين المنطقتين من مزايا، ومن بينها السماح لها بالاستمرار في استقدام العمالة الوافدة. ويفترض بعض الخبراء الاقتصاديين، مثل سفاكياناكيس، أن عدداً كبيراً من العمال الوافدين سيحتفظون بأعمالهم في المملكة خلال الفترة القادمة[٢٦]. ففي عام ٢٠١٣، مثلاً، أصدرت ١٧٠٠٠٠٠ تأشيرة عمل[٢٧].

رابعاً: تنامي مشاعر الإحباط

في بداية الربيع العربي، أطلق الملك عبد الله برنامجَ توزيع العطايا التي بلغت قيمتها المليارات، وشملت إيجاد ١٢٦٠٠٠ فرصة عمل في القطاع العام، إضافة إلى تحديد مستوى أدنى للأجور ومكافأة شهرين لموظفي الدولة. كان هدف الملك هو إسعاد رعاياه وإبعادهم عن التظاهر في الشوارع. أما الآن، وبعد أن تدهورت أسعار النفط اعتباراً من منتصف عام ٢٠١٤، فإن الشكوك تحيط بإمكان خَلَفه تقديم عطايا سخية على هذا المستوى؛ إلا إذا كان لا يمانع في اللجوء إلى الاحتياطيات النقدية. ولكن يبدو أن من الصعب الوثوق بإمكان الحكومة على استرضاء الشعب على المدى الطويل، ولا سيّما بسبب أزمة بطالة الشباب التي تتفاقم. يقول سفاكياناكيس: «مع نهاية هذا العقد، سوف يكون هناك أكثر من ٢,٥ مليون سعودي يبحثون عن عمل»[٢٨].

عندما يكون الشاب عاطلاً من العمل، أو يعمل براتب زهيد، فهذا يعني أنه يعاني مشكلة العثور على خطيبة مناسبة. فخلال الأعوام الأخيرة، لم تكن تكاليف حفل الزفاف، فقط، هي التي أصبحت

---

(٢٦) John Sfakianakis, «Comprehensive Reform of the Labor Market in Saudi Arabia,» Saudi-US Trade Group, 26 January 2014, <http://sustg.com/comprehensive-reform-of-the-labor-market-in-saudi-arabia> (Last accessed 2 February 2014).

(٢٧) «Despite Nitaqat, Kingdom Issued 1.7m Work Visas in 2013,» *Arab News*, 11/2/2014, <http://www.arabnews.com/news/524191>, (Last accessed 27 March 2014).

والمدهش أيضاً هو أن التحويلات النقدية التي يرسلها الوافدون العاملون في العربية السعودية تزداد سنة بعد سنة. «منذ بدء تطبيق برنامج نطاقات عام ٢٠١١، وصلت التحويلات المالية ٣٨٣,٦ مليار ريال سعودي، وهذه زيادة تصل إلى ٥٧,٨ بالمئة مقارنة بالسنوات العشر الماضية. انظر: «Saudi Expat Remittances up 18pc,» Trade Arabia Busniess News Information, 2 February 2014, <http://www.tradear-abia.com/news/BANK_251125.html> (Last accessed 26 March 2014).

(٢٨) John Sfakianakis, «For Saudi Arabia, Change in Fiscal Policy Should Come Sooner than Later,» Saudi-US Trade Group, 28 December 2013, <http://sustg.com/for-saudi-arabia-change-in-fiscal-policy-should-come-sooner-than-later> (Last accessed 27 March 2014).

خيالية، بل إن المهر الذي يطلبه الآباء لبناتهم المتعلمات قد ارتفع إلى حد كبير. وقد أدى ذلك في عام ٢٠٠٩، من بين ما أدى، إلى قيام بعض الرجال الغاضبين بوضع احتجاج على شبكة الإنترنت يحمل عنوان «دعها تصبح عانساً، إذا كانت تلك رغبتها». يشكو عبد الرحمن، وهو شاب في العشرين من عمره يعيش في الرياض ويعمل كاتباً في مركز تسوق براتب ضئيل، من هذا النوع من المشاكل المرتبطة بالزواج. «لن يصبح الوضع أفضل ولا أملك سوى التحلّي بالأمل عسى أن تتحسن الأمور. إذا لم يتغير وضعي، فإنني أخشى أن تضطر حبيبتي للزواج بغيري»[٢٩]. بدأت، خلال السنوات القليلة الماضية، تُقام حفلات زفاف جماعية، تنظمها وتمولها جمعيات خيرية أو أحد رجال الأعمال الأثرياء أو أحد أفراد العائلة المالكة، وذلك بهدف تخفيف أعباء تكاليف حفلات الزفاف.

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، إذ إن هناك مشكلة أخرى تتمثل بأن المواطن السعودي عندما يتزوج يُفترَض به أن يكون مالكاً لمنزله الخاص. لكن المساكن التي يمكن دفع أسعارها تُعتبر نادرة، إلى درجة أن ثلث العائلات فقط تمتلك منزلاً خاصاً بها. ومع أنه جرى إقرار قانون جديد للرهن العقاري، منتصف عام ٢٠١٢، أدى إلى تسهيل أمر شراء منزل، لكن ذلك لم يكن كافياً. يقول أحد رجال الأعمال في الخُبَر، من باب المزاح وإن كان لا يخفي غضبه: «كان ينبغي لهذا القانون أن يصدر قبل مئة عام». بالتالي، يجري تأجيل الزيجات إلى ما لا نهاية بل إنه قد جرى نحت تعبير جديد يفسّر هذا الوضع «الانتظارية» ـ وهكذا تتراكم مشاعر الإحباط في نفوس الرجال والنساء.

هناك الكثير من الانتقادات الموجَّهة إلى الألاعيب القذرة الدائرة حول ملكية الأراضي التي يمكن تخصيصها لبناء بيوت معقولة التكلفة بات الناس بحاجة ماسة إليها. فقد كانت العائلة المالكة قد وهبت مساحات كبيرة من الأراضي غير المزروعة لأصدقاء لها من ذوي النفوذ، كما أن مساحات أخرى ما زالت مملوكة من قبل بعض الأمراء. لم يفعل أولئك الأصدقاء أي شيء بخصوص تلك الأراضي سوى إحاطتها بسور أو استخدامها في المضاربات ـ بل إنهم لا يضطرون إلى دفع ضرائب عليها. وتمثل هذه الأراضي موضوعاً إشكالياً يثير الكثير من السخط، حتى على صفحات التويتر. الاسم الشائع لهذا الوضع هو «شابوك» وهو يثير حفيظة عدد لا يحصى من الأشخاص المسجلين على قوائم انتظار الحصول على مساكن. ينفث هؤلاء مشاعر الإحباط لديهم بأساليب عدة، أشهرها الفيلم القصير «الاحتكار» الذي انتشر بسرعة البرق على موقع يوتيوب، وشاهده ٧٥٠٠٠٠ متفرج خلال الأسبوع الأول من إدراجه على الموقع، وارتفع الرقم إلى أكثر من مليوني مشاهد عام ٢٠١٤[٣٠]. يحتوي الفيلم، من بين ما يحتوي، على تصوير لوضع شاب يقضي أيامه داخل (أو فوق سطح) شاحنة مقفلة وينتظر، بصبر فلسفي، الحصول على منزل، وهو أمل لن يتحقق أبداً.

(٢٩) Knickmeyer, «Idle Kingdom: Saudi Arabia's Youth Unemployment Woes Go Far Deeper than Most Realize».

(٣٠) «Monopoly Short Film,» Youtube, 13 September 2011, <https://www.youtube.com/watch?v=NMvCURQEhpM> (Last accessed 15 September 2015).

بدأت الحكومة، مؤخراً فقط، بتطوير خطط لمعالجة هذا الموضوع. في آذار/مارس من عام ٢٠١٥، وعد مجلس الشؤون الاقتصادية والتنمية، التابع لمحمد بن سلمان، بفرض ضرائب على ما يدعى بـ«الأراضي البيضاء».

في مطلع عام ٢٠١١، وضع الملك عبد الله خطة لبناء ٥٠٠٠٠٠ منزل[٣١]، لكن علينا الانتظار لمعرفة إن كانت تكلفة تلك المنازل ضمن حدود المعقول. على أية حال، لا يثق أمجد تركستاني، البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً، إطلاقاً بهذا المشروع:

«نحن نرغب فعلاً في امتلاك منزل لكن الأسعار تظل مرتفعة، والرهن العقاري لا يمكن تأمينه بسهولة والقروض المالية يصعب العثور عليها. ولهذا ما زال العديد منا يعيش في بيوت مستأجَرَة. تزوجت منذ أربع سنوات ولدي الآن طفلان، وما زلت حتى الآن عاجزاً عن تأمين ثمن منزل بسبب الأسعار المرتفعة والطلبات العسيرة للمصارف المحلية لقاء الحصول على قرض. بل إن الحصول على قرض شخصي عبر الأصدقاء وأفراد الأسرة يصبح أكثر صعوبة»[٣٢].

في منتصف عام ٢٠١٥، عيَّن الملك السعودي وزير إسكان جديداً، وهو ماجد بن عبد الله بن حمد الحجيل. ومن المبكر الحديث عما إذا كان هو الشخص الذي سيُحدث تغييراً حقيقياً في سوق الإسكان.

لكن معظم الأحاديث المعبرة عن احتجاجات جيل الشباب تدور في مواقع التواصل الاجتماعي، وهو أمر يتعلق بالظروف المادية لا بالافتقار إلى الحريات السياسية أو إلى الحقوق المدنية. مسألة الحريات السياسية والحقوق المدنية تُعتبر قضية السعوديين في الثلاثينيات أو الأربعينيات من العمر[٣٣]. أما جيل الشباب فغالباً ما يشغل بالَهُم عدم توافر الوظائف والبيوت. كما ويشكو الطلاب من المرافق الجامعية غير الوافية ومن المدرِّسين الذين يفتقرون إلى الكفاءة والفساد المستشري. في مدينة أبها، الواقعة إلى الجنوب الغربي من المملكة، على سبيل المثال، وقعت اضطرابات خطيرة في جامعة الملك خالد في عدة مناسبات. وفي ربيع عام ٢٠١٢، نجحت الطالبات في التسبُّب بطرد مدير الجامعة من منصبه. كما حصلت احتجاجات مماثلة قامت بها الطالبات في جامعة تبوك، الواقعة في أقصى الشمال الغربي من المملكة. وتداول موقعا فيسبوك ويوتيوب صوراً مثيرة لآلاف الطالبات وهن يتظاهرن وقد ارتدين العباءات.

---

(٣١) كما كان متوقعاً في مطلع عام ٢٠١٤، ذُكِر أن تنفيذ برنامج البناء كان بطيئاً. انظر: «Saudi Arabia Launches New Housing Scheme to Ease Shortage,» Reuters, 13 March 2014, <http://uk.reuters.com/article/2014/03/13 saudi-housing-idUKL6N0MA17I20140313> (Last accessed 27 March 2014).

(٣٢) *Saudi Gazette* (17 March 2013), <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20130317157181> (Last accessed 18 September 2013).

(٣٣) انظر على سبيل المثال: Carlyle Murphy, «A Kingdom's Future: Saudi Arabia through the Eyes of its Twenty-Somethings,» Wilson Center, 2013, <http://www.wilsoncenter.org/sites/default/files/kingdoms_future_saudi_arabia_through_the_eyes_twentysomethings.pdf>.

خامساً: «نحن لا نعاني بما يكفي»

ولكن، وحتى لو كان بعض الشباب، سواء أكانوا يتبنون آراء محافظة أو آراء ليبرالية، ناشطين سياسياً، فإنهم يمارسون هذا النشاط عبر شبكة الإنترنت، ولا يمارسونه على أرض الواقع إلا من حين لآخر. واللافت هنا أن معظم أولئك الشباب لا تعنيهم السياسة كثيراً، هذا إن كانت تعنيهم. وربما كان العامل الأهم في هذه اللامبالاة بالسياسة هي الشعبية التي كان يتمتع بها الملك عبد الله. والعامل الذي لا يقل أهمية هو الفكرة الشائعة القائلة إن العائلة السعودية هي الرباط الوثيق الذي يحافظ على وحدة البلاد. وفي حال رغبة الناس بالتغيير السياسي، فإنهم لا يريدون تحقيق هذه الرغبة من طريق الثورة. فهم شديدو الارتباط بوسائل الراحة الجسدية التي يوفرها الأمن والسلام في الحياة اليومية، وقد تعزّز هذا الموقف نتيجة الفوضى وسفك الدماء والصعوبات الاقتصادية التي يعانيها العراق واليمن والبحرين ومصر وسورية.

يقول ريان كركدان، وهو طبيب يبلغ الرابعة والعشرين من العمر، يعيش في جدة، إن الشخص العادي في العربية السعودية يعيش حياة مريحة أكثر من نظرائه في مصر وتونس. «لدينا الكثير لنخسره؛ نحن لا نعاني بما يكفي». ويؤكد زميله أُبَيّ البشير، وهو بالعمر نفسه، هذا القول «نحن نخاف أن نخسر منطقتنا الآمنة».

كما يجب ألّا ننسى أن الدين أيضاً ينطوي على تأثير ملطِّف للنشاط السياسي. يعبّر محمد، وهو طالب يدرس العلوم السياسية في جامعة الملك سعود في الرياض، عن هذه الفكرة على نحو بليغ، «إن عدم إسباغ الشرعية على الأحزاب السياسية هو تصرف سليم؛ فهم يهدفون بالنتيجة إلى الاستيلاء على السلطة وهذا شيء لا نريده هنا! علينا معاملة الملك بالاحترام الواجب». ولكن من البديهي أن للخوف دوراً هنا ـ إذ إن شبح الاعتقالات الاعتباطية وأحكام السجن المديدة، المترافقة غالباً بالسجن الانفرادي، التي يواجهها المنشقون السياسيون، يخيّم فوق الجميع. والواقع أن هذه المشاعر تولّدت، أساساً، نتيجة الخوف من الإخفاق الكامل الذي واجهه يوم الغضب في الحادي عشر من آذار/مارس، عام ٢٠١١.

لكن الأمور، طبعاً، قد تخرج فجأة عن نطاق السيطرة. وعلى المرء فقط أن يتذكر الأيام الأولى من الربيع العربي الذي لم يكن أحد ليتوقع حدوثه. مع ذلك، لا أحد يتوقع فعلياً أن تجد الحكومة السعودية نفسها بمواجهة شباب غاضبين ثائرين على نطاق واسع، مهما بلغت درجة إحباطهم نتيجة الوضع الاجتماعي.

في المقابل، يصعب أيضاً أن نتوقع استمرار هذا الوضع إلى ما لا نهاية. إذ إن تماس الشباب السعودي مع الثقافات الأخرى على نحو متنام، وبخاصة من خلال ثورة المعلومات على شبكة الإنترنت، سيكون له تأثير متسارع على هؤلاء الشباب (انظر الفصل السابع، «الانفجار الرقمي»). أما العائلة المالكة، فهي تعيش وضعاً انتقالياً، فالأمراء من الجيلين الثاني والثالث في العائلة السعودية يتنافسون على السلطة. وقد تخلق هذه الوضعية مجالاً للأصوات الناقدة في المجتمع؛ فالتوقعات

هنا تقول إن أميراً، أو أكثر، سيسعى للحصول على دعم شعبي للقضاء على منافسيه. «وإلا»، يتنهد أحد الناشطين قائلاً: «سيكون أمامنا ثلاثون عاماً أخرى من الديكتاتورية حتى ينفجر الوضع بكل بساطة، وليكن الله في عوننا عندما يحدث ذلك»[٣٤].

ثمة عامل آخر سيؤدي دوراً في السنوات القادمة، وهو عودة عشرات آلاف الطلاب الذين درسوا في الخارج بموجب برنامج البعثات الدراسية الذي أطلقه الملك عبد الله. ولن يعود أولئك الطلاب وهم يحملون فقط درجاتهم العلمية، بل إن معظمهم سيكون قد قضى وقته في بيئة سياسية وثقافية مختلفة تماماً. عادت الموجة الأولى من هؤلاء الطلاب، وعددهم متواضع نسبياً، ولكن سرعان ما ستتبعهم موجة ثانية وثالثة من الطلاب ممن يحملون درجات علمية، ومن المؤكد أنهم لن يجدوا عملاً لائقاً، وبالتالي، لن يتمكنوا من شراء منزل أو من الزواج. وإذا حدث، إضافة إلى كل ذلك، أن ظلت القيود الاجتماعية على حالها من التشدُّد، دون أن تتوافر حرية سياسية أكبر، فسوف يشكل كل ذلك، المكونات الكافية لانطلاق حركات احتجاج واسعة النطاق. عندئذ، لن يعود هناك من يُخدَع بالعطايا المالية، كتلك التي قدمها الملك مطلع عام ٢٠١١ وفي كانون الثاني/يناير من عام ٢٠١٥. وقد بدأ بعض الشباب يعبّرون عن نيّاتهم المضمرة:

«نحن بحاجة إلى خطة طويلة الأمد لتحسين المداخيل. ولا نريد أن نبقى بانتظار هبة أو منحة. كلا، نحن بحاجة إلى الحصول على ما نستحقه... وإذا لم توفر لي الحكومة ذلك، فلن أبقى صامتاً. لن أقبل بذلك بعد الآن»[٣٥].

التوقعات من هذا النوع لا يمكن إلا أن تتنامى بمرور الوقت.

---

(٣٤) Stéphane Lacroix, «Is Saudi Arabia Immune?,» *Journal of Democracy*, vol. 22, no. 4 (October 2011), p. 58.

(٣٥) Murphy, Ibid., p. 49.

الفصل الخامس

تغييرات خلف النقاب: النساء يتقدمن

لا يختلف اثنان على أن العربية السعودية تشهد تغييرات، لكن الآراء تنقسم حول ما إذا كانت تلك التغييرات جوهرية أم سطحية. هل هي تغييرات دائمة، أم أن خليفة عبدالله، أو أي ملك آخر، سيقوم بإلغائها؟ وهل تؤيد غالبية النساء، ودعْك من الرجال، فكرة التغيير؟ لا يوجد إجماع حول أي من هذه المسائل.

أصبح الوضع المتخلف للنساء في المملكة أشبه بلازمة مملة تتكرر باستمرار. ما يعرفه الجميع عن العربية السعودية هو أن النساء ممنوعات من قيادة السيارة، يجري إخفاؤهن عن عيون الرجال قدر المستطاع. وهن يتلحفن بالعباءة، وبالنسبة إلى المطاوعة يُفَضَّلُ أيضاً أن يرتدين النقاب. كما يعتقد كثيرون أن النساء هناك مجرد أشباح سود مجهولات الهوية يسرنَ خلسة على الأرضية المرمرية لمراكز التسوق، أو أنهن مواطنات من الدرجة الثانية يتعين عليهن طلب موافقة الوصي لدى اتخاذ كل قرار مهم. كل ذلك صحيح على وجه العموم، لكننا نلاحظ أن الأمور كثيراً ما تكون خلاف ذلك تماماً. ويُعتبر وضع حقوق المرأة معياراً صالحاً للمجتمع السعودي.

إذا ألقينا نظرة على الماضي يتضح لنا مدى التغييرات التي حصلت. قبل خمسين عاماً، افتتح فيصل، ولي العهد آنذاك، أول مدرسة حكومية للإناث في العربية السعودية، رغم المعارضة الشرسة من جانب رجال الدين المتشددين ذوي النفوذ والمدعومين من جانب الرأي العام. كانت حجة الأمير فيصل أن الآباء ليسوا مُجبَرين على إرسال بناتهم إلى المدارس. ولمواجهة الاعتراضات، عهد الأمير إلى المؤسسة الدينية بتنظيم تعليم الإناث والإشراف عليه. اعتبر رجال الدين أن مهمتهم كانت إنتاج نساء تقيّات يلبّينَ احتياجات الزوج والأولاد ويدبّرن شؤون المنزل. فالأسرة هي إحدى دعائم الإسلام.

لكن هذا المفهوم المحدود لتعليم الإناث غدا شيئاً من الماضي. لا شك في أن السعودية تظل مجتمعاً محافِظاً إلى حد كبير، لكن الارتياب الذي شعر به الشعب آنذاك إزاء تعليم بناتهن قد تلاشى تماماً. فهناك عدد نساء يدرسنَ في الجامعات (المخصصة للنساء) يفوق عدد الرجال الذين يدرسون في الجامعات (المخصصة للرجال). جُرِّدَ رجال الدين من صلاحية اتخاذ القرارات في ما يتصل بتعليم الإناث، بل إن نائب وزير التربية والتعليم امرأة، وهي أول امرأة تتسلم منصباً وزارياً. تقول إحدى الفتيات واسمها نورا (في السابعة عشرة من العمر)، وهي تقدم حالياً امتحاناتها النهائية في إحدى المدارس الخاصة في الرياض: «لا يوجد حالياً عائلة تعارض فكرة تعليم بناتها والسماح لهن بالعمل». تخطط نورا لدراسة التصميم الغرافيكي وبعد ذلك ستؤسس عملاً خاصاً بها. وتصادق فتاة أخرى، اسمها نورا أيضاً، تبلغ السابعة عشر وتتهيأ للسفر إلى الخارج لدراسة فن الأزياء، على ما تقوله الفتاة الأخرى: «لقد تغير كل السعوديين». ولكن، في نهاية اليوم، وأثناء مغادرة الفتيات للمدرسة عبر باب مزدوج لحمايتهن من نظرات الرجال المتطفلة، تحرض الحارسات على أن ترتدي الفتيات النقاب.

أولاً: الجدات

لم يكن الفصل بين النساء والرجال يُطبَّق بهذه الصرامة دائماً. فقد نشأت جدة المؤرخة هتون أجواد الفاسي في عصر مختلف:

«في الريف كانت النساء يشاركن الرجال العمل. ففي المزارع كان على النساء حلب البقر والعمل في الأرض والذهاب إلى السوق. وحتى عندما كانت النساء يعشن وحدهن في بيوتهن، كن قويات. فلم تكن جدتي تمانع في السماح لزوار رجال بدخول منزلها. كانت قوية وتتمتع بثقة كبيرة بنفسها. وهذا يعكس الكيفية التي كان المجتمع ينظر بها إلى المرأة».

لم يكن الوضع على هذا النحو في الريف فقط. فالعديد من السعوديات اللواتي قابلتهن يتذكرن جداتهن اللواتي كن أكثر استقلالية ولا يشبهن في شيء «اللحم الميت»، وهو التعبير الذي استخدمته إحدى العالمات النفسيات السعوديات لوصف بعض نساء جيلها. لقد تربَّت الجدّات في جو مختلف. ففي ذلك الزمن، كانت تظهر في الصحف إعلانات عن نواد ليلية في جدة. إذ كانت هذه المدينة تعتبر أكثر تحرراً من الرياض، لكن النوادي الليلية، قد غدت ومنذ زمن طويل شيئاً من الماضي حتى في جدة.

تغير كل شيء بعد عام ١٩٧٩. فقد كان ذلك هو العام الذي انطلقت فيه الثورة الإسلامية في إيران، الدولة الشيعية المجاورة، وعام الغزو السوفياتي لأفغانستان، وعام احتلال المسجد الكبير في مكة من قبل جماعة جهيمان المتشددة التي كانت تعارض «انحطاط القيم الإسلامية».

جرى احتلال المسجد الكبير بعد إراقة الكثير من الدماء، لكن الحكومة لجأت إلى إطلاق ثورة إسلامية خاصة بها لاستعادة هيبتها التي فقدت ألقها. وكان ذلك هو السبب الكامن وراء حملة التشدد في القيم العامة، وهي الحملة التي فرضها المطاوعة بأسلوب متوحش.

قالت هتون الفاسي قبل عامين: «اكتشفنا أن هناك أشياء بدأت تُمنع تدريجياً. سمعنا بداية عن الأحكام التي تحدد سلوكنا ثم لاحظنا أن تلك الأحكام أصبحت ممأسسة. والمطاعم خير مثال على ذلك. في السبعينيات كانت المطاعم مفتوحة أمام الجميع. ثم بدأت تخصص غرفاً منفصلة للعائلات. علماً أن النساء كن أحياناً يُمنعن من دخول المطاعم. في البداية قالوا لنا بصورة غير رسمية إن الوضع سيكون على هذا النحو؛ وفيما بعد شاهدنا اللافتات معلقة على الباب. مع اقتراب التسعينيات، صارت المطاعم الجديدة تُجبَر على تخصيص قسم منفصل للنساء، أشبه بحجيرة صغيرة. ثم أصبحت تلك هي القاعدة، وكانت النتيجة أن المطاوعة صاروا يدققون مخططات البناء قبل الشروع بالتنفيذ».

نشاهد اليوم في محل ستاربكس، وسط مدينة الرياض، أن الرجال هم فقط من يُسمح لهم بالجلوس وتبادل الأحاديث باسترخاء على الشرفة الخارجية، بينما تضطر النساء إلى الجلوس داخل المحل، في ما يشبه مقهى صغير خانق، مختفيات خلف الزجاج المبرغل.

يُطبَّق الفصل بين الرجال والنساء في العربية السعودية بأسلوب يُعتبر الأكثر صرامة من أي دولة أخرى في العالم الإسلامي، بعد زوال حكم طالبان الأكثر تشدداً في أفغانستان. ورغم ذلك، لم يكن بالإمكان الفصل بين النساء والرجال، ممن لا يُعتبرون من أفراد الأسرة المباشرين، على نحو منهجي. فالممرضة هناء العواني تعمل في غرفة العمليات في أحد المستشفيات جنباً إلى جنب مع الرجال، لأن الفصل في مجال الرعاية الصحية غير ممكن التحقيق فهنا يمنع ارتداء غطاء الوجه. (تتذكر هناء، التي نشأت وهي ترتدي غطاء الوجه، كيف شعرت بأنها عارية عندما اضطرت إلى نزعه). كما ويُعتبر ظهور الممثلات شخصياً على خشبة المسرح إلى جانب الممثلين أمراً منافياً للأخلاق العامة، ولكن يُسمح لهن بالظهور إذا كان البرنامج يصوَّر لمصلحة التلفزيون السعودي. لا يسمح للنساء بقيادة السيارة، ولكن يسمح لهن بالجلوس في سيارة يقودها سائق، دون مرافق. لكن السائقين هم دائماً من الوافدين، وبالتالي لا يُعتبرون «رجالاً».

ولكن لا يظنّنن أحد أن النساء يطالبن، على نحو جماعي، بتخفيف القيود التي تحكم لباس المرأة أو بإلغاء نظام الوصي الذكر أو بالسماح لهن بقيادة السيارة. بل على العكس، فما زال بإمكان السلطات التعويل على تأييد أغلبية محافظة ترفض الإصلاحات من هذا النوع. ورغم أننا لا نستطيع أن نزعم وجود إحصاءات تتناول موضوع التغيير، ولكن إذا سأل المرء نساء شابات بل وحتى نساء بعمر أكبر قليلاً حول هذا الموضوع، فإنهن لن يكن بالضرورة إيجابيات بهذا الشأن. فعازفة البيانو نادين، وهي تعيش في جدة وتظهر في أفلام يوتيوب مكشوفة الرأس، تؤيد وجود المطاوعة «شرط التزامهم بقواعد محددة. وبإمكانهم تعريف الجميع بالتقاليد الاجتماعية المقبولة». وترى

هناء العواني، الممرضة في غرفة العمليات، أن عدم وجود دور سينما في العربية السعودية هو أمر غريب. وفي حال إنشائها، يفضل تخصيص أيام مختلفة للرجال والنساء.

تتشوق هناء نفسها لقيادة سيارة. كانت هتون الفاسي وفوزية البكر، وهي عالمة اجتماع، ضمن مجموعة النساء اللواتي ذهبن وجلسن خلف مقود السيارة عام ١٩٩٠ وسط مدينة الرياض، لكنهن دفعن الثمن، ولمدة طويلة، من حياتهن المهنية. مع ذلك، هناك نساء حاصلات على تعليم عال لا يطالبن بهذا التغيير. تقول بشاية وريم، وهما طالبتان تدرسان علم النفس في جامعة الأميرة نورا الضخمة في الرياض، إنهما لا تجرؤان حتى على قيادة السيارة. وفي كل مرة تقوم فيها النساء بالجلوس خلف مقود السيارة، كما حصل بضع مرات منذ عام ٢٠١١، يتعرضن لانتقادات على موقع التويتر من قبل عدد كبير من الأشخاص، من بينهم نساء.

في عام ٢٠٠٩، بدأ جدل كبير حول موضوع تخفيف - وليس إلغاء - الفصل الصارم بين النساء والرجال. بدأ الجدل مع افتتاح أول جامعة يدرس فيها الرجال والنساء سوياً - وهي جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا، قرب جدة. وتُعتبر هذه الجامعة المختلطة من أحب المشاريع إلى الملك عبد الله. ترك افتتاح هذه الجامعة انطباعاً عميقاً لدى أستاذة علم النفس التربوي، فوزية البكر. «لأول مرة مررت بتجربة امرأة سعودية تتحدث أمام جمهور مختلط. كان الملك يجلس في الصف الأول مع رؤساء كل الجامعات، بما فيها جامعتا مكة والمدينة؛ وحتى أكثر الرجال تشدداً حضروا هذا الحدث»!

وترى البكر أن الملك كان يتمتع بشجاعة استثنائية:

«موضوع الفصل بين النساء والرجال هو موضوع بالغ الحساسية في العربية السعودية؛ وهو السبب الأساسي لكل التوترات في المجتمع وفي الدين وفي سوق العمل وفي المجتمع التربوي، ولك أن تضيف ما تشاء. المجتمع مؤلَّف من رجال ونساء. وإذا كان هناك مشكلة في الطريقة التي يتواصل بها الطرفان، فإن كل المجتمع يصاب بالركود. وهذا بالضبط ما حصل هنا».

التهب الجدل فعلياً في كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام عندما صرح الشيخ أحمد قاسم الغامدي، في مقابلة أجريت معه في صحيفة عكاظ أن الفصل بين الرجال والنساء لا أصل له في التشريع الإسلامي، ما دامت النساء يرتدين العباءة والنقاب حسب الأصول. كان الغامدي آنذاك رئيس المطاوعة في مكة المكرمة، ما يعني أن عدداً كبيراً من الناس أخذ رأيه على محمل الجد.

ولكن كان هناك آخرون ممن أدانوا أقواله فوراً. دُعي الغامدي للمشاركة في مناظرة تلفزيونية، لم يسمح له فيها بعض زملائه من الشيوخ بالكلام وأسكتوه بصراخهم. نشرت الصحافة خبر إعفائه من منصبه، وأفتى بعض الشيوخ البارزين، وهو الشيخ عبد الرحمن البراك، بجواز قتل كل من يبيح هرطقات من هذا النوع. فالتماسّ المباشر بين الجنسين يؤدي إلى «النظر الحرام والكلام الحرام بين الرجال والنساء».

عُقدت ندوة تلفزيونية أخرى أتيحت للغامدي خلالها فرصة الكلام، كما تمكن مؤيدوه من الاتصال به هاتفياً. وأعلن هو في الصحف أن أحداً لم يبلغه بأنه فُصل من عمله ـ وفي ذلك رسالة مبطنة فحواها أنه يتمتع بحماية الدوائر العليا من السلطة.

وبعد عام، وضع الربيع العربي حداً لهذا الجدل حول التغيير. أعيد تشديد القيود للحيلولة دون وصول الثورة إلى البلاد. وترافقت الاستثمارات الهائلة في برامج إيجاد فرص العمل مع فرض حظر على التظاهرات. أعلن رجال الدين، باسم الحكومة، أن كل أنواع الاحتجاجات تتنافى مع الإسلام. أصبح موضوع «التغيير» من المحرمات. فُصِل الغامدي من عمله ولم تنطلق جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا كما كان مرجواً منها. كتبت المدوِّنة إيمان النفجان في مدوَّنتها «المرأة السعودية» تقول إن الحكومة قد أبدعت اختراعاً عجيباً ـ آلة زمان استطاعت استخدامها لإعادة البلاد إلى فترة ثمانينيات القرن العشرين سيئة الذِكر[1].

ثانياً: النساء في مجلس الشورى

هل كان السبب هو الانفتاح الحذر، باعتراف الجميع، للملك عبد الله على الإصلاح، أم الضغط من وسائل التواصل الاجتماعي والقنوات الفضائية؟ على أية حال، وخلافاً لما حصل في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، سرعان ما انطلقت حركة التغيير ثانية. في أيلول/سبتمبر من عام ٢٠١١، أعلن الملك نيته تعيين ثلاثين سيدة في مجلس الشورى التابع له. كما مُنحت المرأة حق الاقتراع في الانتخابات المحلية التي نُظِّمت عام ٢٠١٥.

ما من شك في أن القرارين يمثلان أهم التغييرات الحاصلة منذ أن افتتح الأمير فيصل أول مدرسة حكومية للإناث عام ١٩٦٠، حتى ولو كان مجلس الشورى هيئة استشارية وكانت الانتخابات في العربية السعودية لا تتمتع بأي تأثير، حتى الآن. ولأول مرة منذ أربعين عاماً، نُظِّمت انتخابات عام ٢٠٠٥، لاختيار نصف أعضاء المجالس البلدية. لكنها لم تحظَ بقدر كبير من الاهتمام، ولم يقترع سوى ١٨ بالمئة من الذكور الذين يحق لهم الإدلاء بأصواتهم. والمعروف أن عدد من شاركوا في الانتخابات المحلية عام ٢٠١١، كان قليلاً جداً. إلى ذلك، لا يبدو واضحاً على الإطلاق ما هي المهام المنوطة بتلك المجالس. ولكن، لا يمكن إنكار حصول تغييرات جعلت النساء السعوديات في دائرة الضوء.

في خطابه أمام مجلس الشورى، أوضح الملك أنه اتخذ قراره وفق رؤية شرعية بالكامل. وقال إن النساء المسلمات قد أسهمن بتقديم الآراء والمشورة منذ عهد النبي محمد (ﷺ). أضاف الملك:

---

(١) «Going Back in Time,» Saudiwoman's Weblog (3 April 2011), <http://saudiwoman.me/2011/04/03/going-back-in-time> (Last accessed 30 March 2013).

«نرفض تهميش المرأة في المجتمع السعودي لدى قيامها بلعب أدوارها بما يتوافق مع الضوابط الشرعية»[٢].

كان المفتي العام، وهو الدعامة الدينية الأساسية للمملكة، حاضراً في جلسة مجلس الشورى للتعبير عن دعمه قرار الملك. لكن دعمه هذا كان أبعد ما يكون عن صدق النية؛ ففي عام ٢٠٠٦، عزا المفتي منْح النساء حق الاقتراع وحقوق أخرى إلى تدخّل المسيحيين واليهود الذين يريدون تدمير الإسلام. وقبل بضعة أشهر من منح الملك للمرأة حق الاقتراع، عبَّر المفتي العام عن سخطه إزاء عريضة رفعتها إحدى المواطنات للملك تطلب فيها منح حقوق مساوية للنساء. وكان السؤال البلاغي الذي طرحه المفتي: «هل تقدّم المطالبات من هذا النوع خدمةً للإسلام»؟

يعارض رجالُ الدين المتشددون، مع وجود بعض الاستثناءات من حين إلى آخر، فكرةَ التغيير بكاملها. ويؤكد هؤلاء أن الإسلام يضمن للمرأة حقوقاً مساوية لحقوق الرجل. فالإسلام أعزَّ النساء بوصفهن أمهات وزوجات وبنات؛ دورهن مكمّل لدور الرجل. وكل من يشكّك بذلك إنما يرتكب جرم تحريف الدين. لا يملُّ رجال الدين من تحذيرنا عن طريق موقع تويتر أن التغيير لا بد من أن يؤدي إلى العلاقات الجنسية الحرة وإلى زواج المثليين. يؤكد الشيخ عبد الرحمن البراك ـ الذي وجه الاتهامات القاسية إلى زميله الشيخ الغامدي ـ «إنما تجب المساواة بين المتماثلات». ويمضي ليضيف: «فرّق الله في شريعة الإسلام بين الرجل والمرأة بما تقتضيه فطرتهما وخلقتهما»[٣].

ثالثاً: التسوق

كان أكثر الدعاة فاعلية في قضية المرأة رجل؛ وهو خالد الخضير، الذي أنشأ وكالة توظيف للنساء في نهاية عام ٢٠١١:

«كنت أواجه صعوبات جمة في العثور على عمل، رغم كوني رجلاً. ولكن ليس بسبب عدم توافر الوظائف، بل لأن الشركات لا تستثمر في سياسة توظيف مناسبة. وإذا كنت أواجه المشاكل، رغم كوني رجلاً، فمن الواضح أن الوضع سيكون أصعب كثيراً بالنسبة إلى المرأة. لم تستطع شقيقتي حتى الحصول على مقابلة مع دائرة شؤون الموظفين. كان عليها تسليم سيرتها المهنية إلى موظفي الأمن. أردت أن أبدأ شيئاً ما يكون له تأثير دائم في المجتمع، فقط لأظهِر أن بإمكان المرء مواجهة أصعب التحديات والنجاح في مسعاه».

هناك عدد كبير نسبياً من النساء السعوديات الناشطات في المراتب العليا من عالم الأعمال. وهن يملكن ما يقارب ٤٠ بالمئة من الشركات العائلية، حتى ولو كنَّ مجرد شريكات لا يقمن بأي

(٢) «Shoura Council to Have 30 Women,» *Arab News*, 2/9/2012, <http://www.arabnews.com/saudi-arabia/shoura-council-have-30-women> (Last accessed 30 June 2014).

(٣) Abdur Rahman Ibn Nasir Al Barrak, «The Islamic Far-Right in Britain,» <http://tifrib.com/abdur-rahman-ibn-nasir-al-barrak/> (Last accessed 15 February 2015).

دور في أعمال الشركة. يبلغ حجم استثماراتهن ٢١ بالمئة من مجموع الاستثمارات الخاصة، في الوقت الذي نشهد فيه معدل بطالة مرتفعاً في صفوف النساء العاديات. واستناداً إلى الإحصاءات الرسمية، كانت نسبة ٣٤ بالمئة من النساء السعوديات عاطلات من العمل في عام ٢٠١٣[٤]. بالإضافة إلى كل ذلك، تُعتبر الحاجة الاقتصادية عاملاً مهماً في دفع حركة التغيير.

شاءت الصدفة السعيدة أن تكون مبادرة الخضير قد حصلت في نفس الوقت الذي أصدرت فيه الحكومة قرارها بالسماح للنساء بالعمل في متاجر الثياب الداخلية. وكانت قد جرت مناقشة هذا القرار لسنوات، غير أن رجال الدين تمكنوا دائماً من وضع العراقيل بوجه الفكرة. لم يكن يُسمح للنساء بالعمل في المتاجر، لأن في ذلك مفسدة للأخلاق، رغم أن قيام رجال هنود أو بنغاليين ببيع حمالات صدر وسراويل داخلية لم يكن يُعتبر أمراً مشيناً. قام مجلس الشورى بالخطوة الرائدة وحصل وزير العمل، عادل الفقيه، على دعم الملك، وهو ما كان أمراً ضرورياً لتفادي غضب العلماء.

أطلق الخضير على شركته اسم غلوورك (Glowork, Glowing Careers for Women)؛ ألوان الشركة هي الوردي والرمادي، وهما «غير مألوفَيْن هنا، وبذلك يلفتان الأنظار». اتصل الخضير بوزارة العمل، وأشار إلى أن إعانات البطالة تصل إلى مليار دولار شهرياً. سأل الخضير الوزارة: «لماذا لا نصبح شركاء؟ نساعد النساء العاطلات من العمل على الدخول إلى السوق وندعمهن لمدة عام. مقابل ذلك تدفعون لنا ١٠ بالمئة من أرباحهن». وقال الخضير لأصحابِ العمل: «سوف أختار لكم الموظفين وأدربهم لمدة عام مجاناً».

بدأ الخضير بمتاجر الثياب الداخلية ثم انتقل إلى قطاع مواد التجميل. حالياً تعمل النساء أيضاً أمينات صندوق في المتاجر الكبرى. كان المجال التالي الذي تخصص به الخضير لاحقاً هو متاجر العباءات ومخازن الأثاث. «تغيرت وجهات النظر. الناس ترى الجانب الإيجابي. في البداية، كان مجال الأعمال يعارض لأن شركاته كانت مضطرة لإدخال تغييرات للفصل بين النساء والرجال. أما الآن فقد أصبح هذا القطاع متحمساً للتطور من هذا النوع، فالنساء عاملات ماهرات كما أن الأرباح بدأت تزداد».

والخضير، إذ يساعد النساء على دخول معترك العمل، إنما يقوم بتفتيت الجوانب الأشد إيلاماً في فكرة الفصل بين الجنسين. فلم يعد من الضروري تخصيص مدخل منفصل لكل من النساء والرجال. كما أن هناك نساء بين موظفي شركة غلوورك. وفي مؤتمرات الأعمال الكبرى التي ينظمها الخضير، لم يعد هناك فصل بين النساء والرجال، بل يجلس الجميع معاً.

«نحن نحاول، ونحن نغيّر التقاليد وليس الدين. فالتقاليد هي التي لا تسمح للمرأة بالعمل». لكن كل ذلك يتغير بسرعة. واستناداً إلى ما يقوله الخضير، فإن عدد النساء نفسه عثرن على عمل

(٤) Fadia Jiffry, «Unemployment Rate among Saudi Women Hits 34%,» *Arab News*, 23/6/2014, <http://www.arabnews.com/news/560096> (Last accessed 30 September 2014).

عام ٢٠١٢ كما في الأعوام الثلاثة السابقة. وهو يَعِدُ بأن يصبح موظفو قطاع التسوق بكامله من النساء. «هذا سيؤمن ٤٠٠٠٠٠ ـ ٥٠٠٠٠٠ فرصة عمل خلال السنوات الثلاث القادمة». بتاريخ ٤ نيسان/أبريل من عام ٢٠١٤، أعلنت الصحيفة السعودية الناطقة بالإنكليزية *Arab News*، أن عدد النساء السعوديات الموظفات في ميدان الأعمال ازداد من ٤٢٤٠٠ عام ٢٠١١ إلى ٤٥٤٣٠٠ عام ٢٠١٣[٥]. والأهم من ذلك أن تلك الأرقام نُشرت ضمن مقال يتحدث عن العدد المرتفع من النساء اللواتي تركن العمل في مجال الألبسة الداخلية وفي متاجر أخرى في القطاع نفسه بسبب انخفاض الأجور.

إلى جانب أنشطته الأخرى، ينظم الخضير لقاءات تجمع أصحاب الأعمال بالنساء الباحثات عن عمل. في عام ٢٠١٣، حضرت ١٧٠٠٠ سيدة باحثة عن عمل إلى اللقاء الأول الذي عُقد في الرياض؛ في نيسان/أبريل من عام ٢٠١٤، ارتفع العدد إلى ٢٠٠٠٠ سيدة. شاركت أكثر من تسعين شركة في اللقاء الذي عقد ليومين. تلقت السيدات المهتمات بالأمر توجيهات حول كيفية كتابة سيرة مهنية وحول الاستعداد لإجراء مقابلة عمل، وهي مهارات تفتقر إليها الشابات السعوديات عموماً.

يقول الخضير إن المملكة تمر بمرحلة تغيير كبير. ولكن كم يمكن أن يدوم ذلك؟ وهنا يورِد الخضير نموذج نظام البعثات الذي أصدره الملك عبد الله:

«هناك ما يقارب ١٥٠٠٠٠ شاب سعودي يدرسون في الخارج، من بينهم ٣٠٠٠٠ سيدة، في بلاد تمتد ما بين أمريكا والصين. سيعود هؤلاء وقد تعلموا كيف تجري الأمور في البلاد الأخرى. والنتيجة أنهم سيصبحون متفتحي الأذهان. وسوف يدركون فائدة تساوي الحقوق بين النساء والرجال».

لم يكن الخضيري الشخص الوحيد الذي تطرّق إلى هذه الفكرة. تقول الدكتورة هند الشيخ، مديرة معهد الإدارة العامة في الرياض: «حتى العائلات الآتية من خلفية محافظة تسمح الآن لبناتها بالسفر إلى الخارج للدراسة. وسرعان ما سيكون في كل بيت شخص درس في الخارج. ومن شأن ذلك إحداث تأثير كبير في المجتمع».

يتفادى الخضير، بتفاؤله الذي يملأ الأجواء حوله، الأسئلة التي تُطرح حول مقاومة الجهات المحافظة لمشاريعه، رغم استمرار وجود مثل هذه المقاومة. فقد دعا أحد الكتّاب المحافظين، وهو عبد الله الداوود، متابعيه على موقع التويتر إلى الاعتداء على أمينات الصندوق في المخازن الكبرى. وعندما لاحظ الغضب الشديد الذي أثارته تغريدته، قال الداوود إن عبارته قد أسيء الاستشهاد بها. لكنه أورد فتوى تحظر على المرأة العمل أمينة صندوق. وجاء بعد ذلك دور رجل دين آخر، وهو خالد ابراهيم الصقعبي، الذي أيّد ملاحظات الداوود الأصلية[٦].

---

(٥) Galal Fakkar, «Women Quit Jobs over Low Wages,» *Arab News*, 4/4/2014, <http://www.arabnews.com/news/550396> (Last accessed 14 October 2014).

(٦) <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20130531168003> (Last accessed 14 October 2014).

لم تقتصر مقاومة التغيير على رجال الدين، بل صدرت أيضاً عن الدرجات الوسطى من الموظفين الحكوميين. تقول إيمان النفجان في مقابلة أُجريت في الرياض: «الوزراء يتمتعون بذهنيات متفتحة». ولكن عند مستوى التنفيذ، توضع العراقيل بوجه قراراتهم. «لقد تخلّت كل من وزارة العمل ووزارة الخدمة المدنية عن مطلب موافقة الوصي على المرأة إذا شاءت العمل في شركة ما. مع ذلك، ما زالت الشركات تشترط موافقة الوصي». لأن الشركة إذا استثمرت في تدريب السيدة ثم قرر الوصي أن عليها ترك العمل، لا تستطيع الشركة فعْل شيء بهذا الخصوص. إذ لا يوجد قانون يساعد المرأة في هذه الحالة. «هناك أشخاص أشبه بحرس مؤخرة الجيش يرفضون التغيير. لنأخذ وزارة العدل على سبيل المثال، كم من الوقت احتاجت أول محامية متدربة؟ هناك معارضة شديدة للفكرة».

كما وتلزم سمر فطاني، إحدى أوائل الصحفيات في دار الإذاعة إضافة، إلى كونها صاحبة عمود خاص في إحدى الصحف الصادرة في جدة، جانب الحذر. فلولا دعم الملك عبد الله للخضير ولوزير العمل، عادل الفقيه، لم يكن الرجلان ليتمكنا من إنجاز الكثير مما أنجزاه. وبرأي الفطاني، أن هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور في العربية السعودية:

«لقد منح الملك للنساء مجالاً أكبر للحركة رغم معارضة المناوئين العدوانيين. يتحدى الملك المتشددين وآخرين ممن لا يريدون رؤية أي تغيير. ولكن سيبقى الوضع على ما هو عندما يموت الملك؟ مازال أولئك المعارضون موجودين، بل إنه يتعين حتى على الملك التحلّي بالحذر لدى التعامل مع هؤلاء».

توافق المدوِّنة النفجان على ما قالته فطاني من أن الملك تحدى المتشددين:

«هو لا يسمح لهم بالاحتفاظ بالنفوذ الذي كانوا يتمتعون به سابقاً. عندما عيّن الملك ثلاثين سيدة في مجلس الشورى، قال له المتشددون: «كيف يمكن أن تفعل ذلك؟» كما أنهم لا يتوقفون عن مهاجمة وزير العدل قائلين له إنه يفسد نساءنا عندما يسمح لهن بالعمل فهن سينحرفن عن طريق الأخلاق القويمة. الفرق حالياً هو أن الحكومة لم تعد تصغي إليهم. والقرار الذي يسمح للنساء بالعمل بائعات في المتاجر هو قرار سياسي. إذا حظي القرار بدعم الملك، لا يمكن لأحد تجاوزه. وإذا جاء ملك مستعد لتقديم التنازلات لأولئك المتشددين، فسوف تعود كل تلك الخطوات التطورية للانقلاب إلى الخلف».

حالياً، يبعث الملك سلمان، برسائل ملتبسة. في شهر آب/أغسطس من عام ٢٠١٥، أُعلن عن تنظيم انتخابات جديدة لاختيار نصف مقاعد المجالس البلدية، وذلك في شهر كانون الأول/ديسمبر. وطبقاً لإصلاحات الملك عبد الله، كانت النساء قد شُجِّعنَ على التسجيل كمرشحات ومقترعات. في مقال نُشر في العربية نيوز، رحبت سمر فطاني بـ: «عصر جديد من المشاركة

العامة»(٧). واستناداً إلى ما قالته فإن المرأة يجب ألّا تحتاج إلى موافقة الوصي عليها من أجل المشاركة. لكن المنتقدين أشاروا إلى أن حضور النساء كان يعتمد على توفّر سائقين لنقلهن إلى مراكز الاقتراع لأنهن ممنوعات من قيادة السيارة. أضف إلى ذلك، أن نائب وزير التربية والتعليم، نورا الفايز، المرأة الوحيدة التي تشغل منصباً وزارياً، استُعيض عنها برجل.

---

(٧) Samar Fatany, «Why the Participation of Saudi Women in Elections Gets My Vote,» Al Arabiya, 13 September 2015, <http://english.alarabiya.net/en/views/news/middle-east/2015/09/13/Why-the-participation-of-Saudi-women-in-elections-gets-my-vote-.html> (Last accessed 16 September 2015).

الفصل السادس

«على كل شخص أن يتعلم كيف يفكر بطريقة مستقلة»: مليارات الدولارات تنفَق على التعليم

لدى النظر إلى المدرسة الرقم ١٢٠، الواقعة شمال الرياض، من الداخل لا تبدو مختلفة عن أية مدرسة ثانوية أخرى. هذا صحيح، فهي مدرسة تضم جنساً واحداً فقط، خاصة بالفتيات وبالشابات الصغيرات، لكن التلميذات هنا بذلن جهداً فائقاً لإعداد مشاريع آخر العام الدراسي، شأن أي تلامذة في أي مدرسة أوروبية. تقدم تلميذات الصفين النهائيين مشاريعهن قبل بداية العطلة المدرسية. صوّرت التلميذات في المشاريع مخاطر التدخين المميتة وتأثير أكل الشوكولاتة على الضغط النفسي، كما أعددن أفلاماً حول ثقافات أخرى، وحول الحياة في الأردن أو في الولايات المتحدة، وحول مستقبلهن كطبيبات أسنان أو فنانات أو سيدات أعمال.

تتقدم عواطف (وهي في السابعة عشرة) بفخر ـ اختيرت من أجل برنامج القادة الشباب الذي تنظمه السلطات ـ وتقول: «يلجؤون إلى التحفيز. علينا أن نتعامل مع بعضنا، جميعاً، بوصفنا قادة المستقبل. تعلّمنا كيف نطور مهاراتنا القيادية وتفكيرنا». تلك هي الروح الجديدة التي بدأت تهب منذ بضع سنوات في وزارة التعليم. يقول أحد مستشاري الوزير: «لم نعد نريد أن يكرر التلاميذ دون تفكير ما يقوله المدرِّس. على كل شخص أن يتعلم كيف يفكر بطريقة مستقلة». تشدد المدرِّسات في المدرسة ١٢٠ على هذه الفكرة:

«الهدف من المشاريع هو تشجيع التلميذات على التفكير بطريقة مستقلة. على التلميذة أن تتعلم ألا تتقوقع داخل نفسها بجبْن، بل أن تفرض حضورها وتدلي بآرائها بشجاعة. عليها أن تتمكن من التواصل مع الآخرين وأن تكون قادرة على اتخاذ قراراتها بطريقة مستقلة».

تختار التلميذات مشاريعهن بأنفسهن، دور المدرِّسة يقتصر على تقديم المشورة.

لكن هناك العديد من المشاكل المحيطة بالمجال التربوي السعودي. فقد ثارت عاصفة من الانتقادات عندما تبيَّن أن العديد من المشاركين في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر كانوا من السعوديين. كانت الكتب المدرسية المستعملة في تدريس المعارف الدينية ـ وهو الموضوع الأهم في المنهاج الدراسي ـ تغرس بذور كراهية الكفار والخارجين عن الدين، وتخلق بذلك جواً ملائماً للأنشطة الإرهابية. كما كان رجال الدين الراديكاليون يتلاعبون بالصيغة الصارمة للإسلام، وهي الصيغة السائدة في العربية السعودية على أية حال، وبذلك تمكنوا من تجييش الناس ودفعهم نحو التطرف. كان يجري تشجيع التلاميذ والطلاب عموماً، على عدم التفكير بذهنية نقدية وعلى تكرار ما يقوله مدرِّسوهم كالببغاوات، في حين كان أي إبداع وأية فكرة جديدة يقابلان بالقمع. حصلت تغييرات كثيرة منذ ذلك الوقت، لكن الشباب السعوديين ما زالوا، حتى اليوم، يفتقرون إلى رؤية واقعية حول إمكاناتهم. فهم يختارون موضوعات دراسية لا تؤمّن لهم أي مستقبل وهناك تركيز شديد على الدراسات الدينية. إلى ذلك، لا علاقة للمنهاج الدراسي بمتطلبات عالم الأعمال. وهذا ما يدفع الشركات إلى أن تفضِّل توظيف الوافدين ويحول دون عثور الشباب السعوديين على عمل. ويتجلى ذلك، حالياً، على نحو أوضح في مجال الوظيفة الحكومية التي يفضل العديد من الشباب العمل فيها والتي لم يعد فيها الكثير من الشواغر.

لا تتردد السلطات السعودية في الاعتراف بوجود مشاكل في المجال التربوي السعودي. فقد أُجرِيَ تعديل مهم على الكتب المدرسية بهدف إبعاد شبح التطرف (لكن ذلك حصل بعد أن أصبحت العائلة المالكة نفسها هدفاً لإرهاب المتطرفين المسلمين، عام ٢٠٠٣، وقد سحقت الحكومة تلك الموجة بعنف بالِغ، وجمعت بين الأحكام طويلة الأجل وبرامج إعادة التأهيل في السجون). وفي المدارس، أُطلِقت حملة وقائية من أجل تحقيق «الأمن الفكري»، وأكدت الحملة الحاجة إلى التسامح واحترام الآخرين وإلى التفكير المستقل. ويُعتبَر تلاميذ المدارس الثانوية الهدف الرئيس لهذه الحملة، حيث يعيشون عمراً حرجاً يمكن للمتطرفين التأثير فيهم بسهولة.

يجري إلقاء المحاضرات وتوزيع الكتيبات في المدارس. ويمارس الدكتور عبد الرحمن الحلاق، منسق حملة وزارة الداخلية، الضغط على مديري المدارس والمدرسين ورجال الدين: «هم فاعلون مؤثرون في حملتنا لمكافحة التطرف، فالمدرِّس لديه مائة تلميذ والإمام لديه ألف مؤمن». ويعتقد الأمير خالد المشاري آل سعود، النائب السابق لوزير التربية والتعليم، أن المشكلة الكبرى في المجال التربوي السعودي هم المدرِّسون:

«العديد من المدرّسين، سواء منهم الرجال والنساء، يفتقرون للمؤهلات. وهذه مشكلة خطيرة. فالمدرسون متخرجون من كليات التربية التي لا تجذب أفضل الطلاب. فالطلاب الأفضل يتوجهون لدراسة الطب أو التكنولوجيا أو الحاسوب. والباقون يذهبون إلى كليات التربية».

تبدو آراء الطلاب في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، في الظهران، مشابهة: «الجامعات الدينية تسمح لأي كان بالدراسة فيها. بإمكانك أن تتخيل نوع الأشخاص الذين يتخرجون فيها ويلتحقون بسلك التعليم»!

وقد أكد الأمير خالد، وهو يشغل حالياً رئيس لجنة الشؤون التعليمية في مجلس الشورى، أن من الواجب جعْل شروط الدخول إلى الكليات الدراسية أكثر صرامة. «ينبغي رفع المعيار. وهذا بدوره سيؤدي إلى زيادة الضغط الإيجابي على الطلاب المأمولين وإلى رفع مستواهم».

ويضيف الأمير خالد أن العديد من المدرّسات قد جرى إنتاجهن بالجملة في وقت ازداد فيه الطلب عليهن بعد إقرار برنامج جديد لمدارس حكومية خاصة بالإناث. «ولا نستطيع فصلهن من العمل بالطبع. علينا الانتظار إلى أن يتقاعدن».

أولاً: النزعة المحافظة

مارس الدين ورجال الدين والتقاليد ـ باختصار، النزعة المحافظة ـ تأثيراً مدمِّراً أيضاً. ويتجلى ذلك بوضوح في مجال تعليم الفتيات، مع أن الصبيان يعانون أيضاً. لم يبدأ التعليم الحكومي للفتيات قبل عام ١٩٦٠. وكان إنشاء مدارس حكومية للفتيات أحد إنجازات الأمير فيصل، ولي العهد آنذاك، ولكن بعد أن كانت زوجته، عفّت، قد وضعت أساس الفكرة. ولغاية ذلك الوقت، كان بعض الفتيات قد تلقين تعليماً دينياً غير رسمي. حيث لم ينجزن أكثر من حفظ القرآن غيباً، إضافة إلى غرس تعاليم السلوك الإسلامي في أذهانهن عن طريق التكرار. وكان ذلك يستمر إلى حين وصولهن سن البلوغ، إذ كنَّ يلازمن المنزل ومن ثم يتزوجن. لم تكن الفتيات اللواتي لا تتعدى مهمتهن في الحياة حدَّ كونهن ربات منزل صالحات وأمهات تقيّات، بحاجة إلى أكثر من ذلك.

ومن الطبيعي أن يعارض رجال الدين فكرة المدارس الحكومية للإناث، وشاركهم قسم لا بأس به من الشعب في هذه المعارضة. لكن ولي العهد فيصل رد عليهم بحجتهم ـ وهي أن الأمومة أهم وظيفة للمرأة. فقد قال إن التعليم يجعل من النساء أمهات أفضل. وأضاف أنه واستناداً إلى بعض المصادر، لم ينكر القرآن على المرأة حقها في التعليم. بل على العكس، «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[1].

في البداية، لم يجعل فيصل تعليم الإناث إلزامياً؛ بل حاول احتواء غضب المؤسسة الدينية بأن أوكل إليها مهمة الإشراف على هذا التعليم. وكانت النتيجة إخضاع الفتيات لقواعد أشد صرامة من القيود المفروضة على التلاميذ الذكور. كان على الفتيات قضاء ساعات عديدة في دروس التوجيه الديني وساعات أقل في دراسة العلوم واللغات، ولم يمارسن أية تدريبات رياضية على الإطلاق. أُخفيت الفتيات خلف جدران سميكة، ولم يكن يسمح للرجال ولو بإلقاء نظرة خاطفة عليهن. ولم

(١) Robert Lacey, *The Kingdom: Arabia and the House of Saud* (New York: Avon Books, 1981), p. 368.

يكن رجال الدين يتوفرون على ما يكفي من المال للإنفاق على تعليم الفتيات، ما أدى غالباً إلى افتتاح المدارس في أبنية متداعية.

في عام ٢٠٠٢، أدى هذا المزج بين الأبنية المدرسية المتداعية وحجب الفتيات عن أعين الرجال بأي ثمن، إلى مصرع خمس عشرة فتاة في حريق شب في إحدى المدارس الثانوية في مكة. واستناداً إلى ما ورد في تقرير لمجلة نيوزويك (*Newsweek*)، تسببت سيجارة، أُشعِلت خلسة، في اندلاع اللهب ما أحدث ذعراً بين التلميذات وعددهن ٧٥٠ تلميذة[٢]. كان البناء مقفلاً وكان البواب قد أُرسِل لأداء مهمة. حاول رجال الإطفاء إنقاذ الفتيات من البناء المشتعل لكن المطاوعة منعوهم من أداء عملهم لأن العديد من الفتيات كن قد تركن أغطية الرؤوس في الصفوف نتيجة الذعر الذي استولى عليهن. بل إن المطاوعة دفعوا ببعضهن وأعادوهن إلى وسط الدخان واللهب.

كان رد الفعل بالغ العنف. فقد كانت مشاعر الشك إزاء تعليم البنات قد تلاشت من نفوس الشعب. أما سلوك المطاوعة فقد كان القشة التي قصمت ظهر البعير. استغل عبد الله، ولي العهد آنذاك، هذه المأساة واتخذها ذريعة لتجريد رجال الدين من سلطتهم على تعليم الفتيات. وبهذا المعنى، يمكن القول إن الحريق قد وفّر للمُصلِح الحذر فرصة. عُهِد إلى وزارة التربية والتعليم بمسؤولية الإشراف على تعليم الفتيات.

يتواصل الفصل بين الإناث والذكور في مجال التعليم في المدارس الابتدائية وصولاً إلى الجامعة، دون أي استثناء، ولكن لم يعد هناك فرق في المناهج الدراسية. عوّضت الفتيات ما فاتهن في الماضي بسبب دخولهن متأخرات إلى مجال التعليم، وهناك حالياً عدد من النساء في الجامعات يفوق عدد الرجال. في عام ٢٠٠٩، عُيِّنت سيدة لتكون وزيرة دولة لشؤون قسم تعليم الإناث في وزارة التربية والتعليم، وهي نورا الفايز. وقد علّقت إحدى المدرِّسات في الجامعة بفخر بالقول إن ذلك يجعل من نورا الفايز أول امرأة في العربية السعودية ينبغي أن يتوجه لها المخاطِب بكلمة «حضرتك».

ثانياً: عرف اجتماعي

فور دخول الفتيات إلى المدارس أو الجامعات المخصصة لهن أو إلى الدوائر الخاصة بتعليم الإناث في وزارة التربية والتعليم، يخلعن النقاب وغطاء الرأس، رغم أنه لا يُسمح للرجال بالدخول إلى تلك الأبنية. الرجال الوحيدون الموجودون قرب المنشآت المذكورة هم عناصر الأمن عند المدخل الخارجي حيث يتوجب على الفتيات الداخلات إلى الأبنية أو الخارجات منها ارتداء العباءة والنقاب. تقول الفايز، نائب الوزير، «لا يتقبّل مجتمعنا فكرة عمل النساء والرجال في نفس المكان»، والسيدة الفايز هي أبعد ما تكون عن الدعوة إلى إلغاء الفصل بين الجنسين:

(٢) Christopher Dickey, «The Fire That Won't Die Out,» *Newsweek* (22 July 2002), <http://www.newsweek.com/fire-wont-die-out-147083> (Last accessed 16 April 2014).

«يُتَوَقَّع من النساء تغطية رؤوسهن. أشعر براحة أكبر في مكان عملي عندما أتمكن من خلع عباءتي. عندما أقابل زملائي الرجال، أضطر للعودة إلى ارتداء العباءة وتغطية رأسي. وأنا أغطي شعري، بالطبع، حتى عندما أكون خارج البلاد. أولاً، هذا تقليد اجتماعي. ثانياً، بالنظر إلى الأعراف السائدة، نحن نشعر أن العمل في مكان منفصل عن الرجال أكثر سهولة وراحة. قبل عشر أو اثنتي عشرة سنة، كنت في برنامج تدريب في دنفر (Denver). سمعت شكاوى كل النساء الآتيات من الولايات المتحدة ومن كندا حول تحرش الرجال بهن في أماكن العمل. عندما سألوني عن هذا الموضوع، كان جوابي، الحمد لله على أنني لست مضطرة لمواجهة مثل هذه المواقف».

لا يزال مبدأ الفصل بين النساء والرجال مُطبّقاً على نحو صارم في المجال التعليمي (خلافاً للمجال الصحي، مثلاً، ومجال الأعمال إلى حد ما): «لدينا دارة تلفزيونية مغلقة. وبذلك أستطيع «مقابلة» أي شخص في الوزارة. ولا يختلف الأمر عن كوني أجلس مع الرجال حول طاولة المكتب. أستطيع رؤية كل شيء ومناقشة كل الأمور مع زملائي. وهم بدورهم يستطيعون سماعي بوضوح لكنهم لا يرونني». هذا ما قالته الفايز قبل أن يجري استبدالها. إذاً هي لا تضطر إلى ارتداء العباءة.

تعترف الوزارة بأن مسألة كفاءة المدرسين تمثل مشكلة جدية. كان الطلب على المدرسين، ولوقت طويل، ملحّاً لدرجة أنه كان يتم قبول كل المتقدمين. لكن هذا الأسلوب لم يعد مجدياً في مجال اقتصاد المعلوماتية الذي تسعى العربية السعودية لتطبيقه. وفي هذا السياق جاء طرح برنامج «تطوير» قبل بضع سنوات؛ وهو مشروع الملك عبد الله بن عبد العزيز لتطوير التعليم الحكومي للإناث والذكور. يشمل برنامج «تطوير» خططاً لتدريب المدرسين وتحديث المناهج وتحسين ظروف المدارس. وسوف تنفَق مليارات الدولارات على هذا البرنامج الذي يهدف إلى إلغاء أسلوب غرس المادة التعليمية في أذهان التلاميذ عن طريق التكرار الممل، وهو الأسلوب الذي اقترحه المدرسون المطيعون، وجعله شيئاً من الماضي. وتبدو الأمور في المدرسة رقم ١٢٠ في الرياض نتاجاً لهذه السياسة. تقول إحدى المدرِّسات الشابات: «أنا مسؤولة عن الخيارات التي أتبناها. أنا مَن أقول «نعم» أو «لا»، حتى لوالدي». وقد كوَّنت كل الفتيات اللواتي يدرسن في السنوات الأخيرة قبل التحاقهن بالجامعة، أفكاراً بشأن مستقبلهن. تريد وَضِيف، وكذلك نوف، أن تصبح طبيبة. بينما ترغب ديما في ممارسة المحاماة، إذ إن شقيقتها محامية. تحاول بعض الفتيات إغاظتها بالقول «إذاً أنت تريدين الدفاع عن حقوق المرأة، ديمة؛ اعترفي».

المدرسة الرقم ١٢٠ هي مدرسة حكومية، ويبلغ عدد المدارس الحكومية عشرة أضعاف المدارس الخاصة. مدارس الرياض، التي تدرّس التلاميذ اعتباراً من روضة الأطفال ولغاية المرحلة الثانوية وما بعدها، هي منظومة ذات تمويل خاص للذكور والإناث؛ الذين يتلقون الدروس، بالطبع، في أبنية منفصلة. ويكون المدير دائماً رجلاً. في الجانب المخصص للفتيات، يدرَّس منهاج باللغة الإنكليزية إضافة إلى المنهاج العادي باللغة العربية. ويعود سبب دراسة التلميذات للمنهاج الأول إلى أن العديد من الجامعات الخاصة ومساقات كليات الطب يجري التدريس فيها باللغة الإنكليزية.

ريهام، على سبيل المثال، سوف تلتحق بجامعة فيصل الجديدة الخاصة، حيث بُدئ تدريس مساق لنيل درجة في مجال الأعمال. وهناك عدد كبير من التلميذات ممن يرغبن في الالتحاق بجامعات خارج البلاد.

ثالثاً: الرياضة

بحلول عام ٢٠١٣، كان قد سُمِح رسمياً بالأنشطة الرياضية للفتيات في المدارس الخاصة. وفي مدارس الرياض، كان الوضع على هذا النحو منذ سنوات عديدة، ولو أن تلك الأنشطة كانت تجري، حرفياً ومجازياً، بصورة سرية. وقد شُرِّعَت الرياضة للفتيات باعتبارها أحد جوانب الإصلاحات المستمرة بثبات، وإن ببطء، في المملكة. وهنا قد تمثل البدانة إحدى خلفيات الرغبة في ممارسة الرياضة، إذ إن جيل الشباب في العربية السعودية يُعتبر بين أكثر الفئات بدانة على المستوى العالمي(٣).

أرسلت العربية السعودية، بضغط من اللجنة الأولمبية الدولية، سيدتين للمشاركة في الألعاب الأولمبية التي نظمت في لندن عام ٢٠١٢، عدّاءة محتشمة اللباس كانت تعيش وتمارس رياضة الجري في الولايات المتحدة، ولاعبة جودو ترتدي غطاء الرأس. واستناداً إلى ما قالته إذاعة BBC، جرت مناقشة هذا الموضوع الحساس مطولاً بحضور الملك وولي العهد ووزير الخارجية وبعض كبار رجال الدين(٤). خرجت السيدتان من التسابق في الجولة الأولى.

قبل بضعة أشهر من بدء الألعاب الأولمبية، نقلت منظمة مراقبة حقوق الإنسان في أحد تقاريرها عن إحدى المدرّسات في جامعة مخصصة للفتيات أن رئيسة الجامعة كانت قد سمحت للطالبات قبل أربع سنوات بلعب كرة السلة وكرة الطاولة لكن صالة الألعاب لم تُستخدم قط، وأن رئيسة الجامعة قد جرى استبدالها خلال عملية «إعادة التنظيم»، لأنها، كما وُصِفَتْ «تقدمية أكثر مما يجب»(٥). وفي هذا السياق، تبدو السياسة الرسمية الجديدة في ما يخص الرياضة في المدارس الخاصة، ودون أي شك، إشارة إلى التطور.

واستناداً إلى ما يقوله ناطق باسم وزارة التربية والتعليم، فإن القرار صدر انطلاقاً من «تعاليم ديننا الذي سمح للنساء بممارسة الأنشطة من هذا النوع وفقاً للشريعة»(٦). ولكن، إذا كانت الرياضة لا تخالف الشريعة، لماذا إذاً لا يُسمح أيضاً للفتيات في المدارس الحكومية بالمشاركة فيها؟

---

(٣) Maha Hamdan, «High Rates of Obesity in Saudi Arabia behind Diabetes and Heart Disease,» alarabiya.net, 26 August 2013,<http://english.alarabiya.net/en/life-style/healthy-living/2013/08/26/High-rates-of-obesity-in-Saudi-Arabia-behind-diabetes-and-heart-disease.html> (Last accessed 15 September 2013).

(٤) Frank Gardner, «London 2012 Olympics: Saudis Allow Women to Compete,» BBC News (24 June 2012), <http://www.bbc.com/news/world-middle-east-18571193> (Last accessed 14 October 2014).

(٥) <http://www.hrw.org/news/2012/02/15/iocsaudi-arabia-end-ban-women-sport> (Last accessed 14 October 2014).

(٦) «Saudi Arabia to Allow Girls to Play Sport at Private Schools,» *The Guardian*, 5/5/2013, <http://www.theguardian.com/world/2013/may/05/saudi-arabia-allows-women-sport> (Last accessed 11 July 2013).

الجواب هو أن السلطات كانت تخشى معارضة الجماعات المحافظة، وأن خطوة كبيرة من هذا النوع لا يمكن، بالطبع، القيام بها دفعة واحدة. فقد كان الهدف من تلك المقاربة التدريجية للموضوع هو توفير وقت كافٍ للعلماء وللقطاعات المحافِظة من الشعب للاعتياد على فكرة مشاركة النساء في تلك الأنشطة. تمثلت الخطوة التالية، التي اتُّخِذت في نيسان/أبريل من عام ٢٠١٤، في طلب رسمي تقدم به مجلس الشورى إلى وزارة التربية والتعليم يدعوها فيه إلى دراسة مسألة السماح بإدخال الرياضة إلى المدارس الحكومية أيضاً. على أن يجري ذلك، بالطبع، مع الأخذ بالاعتبار تطبيق التعاليم الإسلامية في ما يتصل باللباس وبالفصل بين الجنسين، تطبيقاً صارماً. مع ذلك، أدى هذا الطلب إلى احتجاج غير مألوف في الشارع قام بها عشرات السعوديين المعارضين لـ «التشبه بالغرب».

كان الملك عبد الله يقف وراء العديد من التغييرات الحاصلة في المجال التعليمي، مثل إنشاء الجامعة المختلطة قرب جدة (جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا). واستناداً إلى ما يقوله نائب وزير التربية والتعليم، الأمير خالد المشاري، فإن هذه الجامعة تُعتبر «دون شك» مثالاً ينبغي أن يحتذى:

«لو سألتني إن كان من الواجب تطبيق التعليم المختلط في المدارس الثانوية، أي في سن المراهقة، فسأضطر للإجابة بالنفي، لأن ذلك سيؤدي إلى العديد من المشاكل. أما في المرحلة الجامعية، فإن الطلاب يكونون قد نضجوا بما يكفي لجعل علاقاتهم تقتصر على مجال العمل المنوط بهم دون أن تصل حد ارتكاب أي نوع من المحرمات. علينا أن نطور ثقافتنا بحيث نتفادى أي تداعيات سلبية. وفي مجتمع كمجتمعنا، حيث يوجد شكل صارم من الفصل بين الجنسين، لا يمكنك أن تبدأ فجأة بالسماح باختلاط الرجال والنساء. على الناس أن تتعلم كيف تتواصل مع بعضها. وقد بدأ هذا التطور يأخذ مجراه».

ولكن، ورغم أن جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا لم تغلق أبوابها، فإنها لم تتطور فعلياً. وفي عام ٢٠١٥، لا نجدها تُذكَر كثيراً في الأخبار. يعتقد بعضهم أن السلطات تتعمَّد عدم عرضها أمام الرأي العام، حتى لا تثير حفيظة المتشددين. تقول إيمان النفجان إنه لا أحد يهتم كثيراً بالجامعة طالما أنها تظل معزولة عن المجتمع السعودي.

رابعاً: البعثات

من بين المشاريع الخاصة بالملك عبد الله، وهو مشروع أطلقه الملك بنجاح، برنامجه الطموح الهادف إلى توفير البعثات للشباب السعودي للدراسة خارج المملكة بعد حصولهم على شهادة من إحدى الجامعات السعودية. الفكرة الكامنة في أساس المشروع هي أن الشباب، وبعد أن يتعرفوا على الحياة خارج البلاد، سوف يعودون وهم يتبنّون مواقف جديدة أكثر انفتاحاً. بدأ تنفيذ المشروع قبل سنتين. ويوجد حالياً ما يقارب ١٥٠٠٠٠ ـ ٢٠٠٠٠٠ طالب سعودي ـ ويعتمد الرقم

على الشخص الذي يحدثك ـ يدرسون في الخارج بموجب بعثات. ذكرت صحيفة أرب نيوز أن ١١١٠٠٠ طالب سعودي كانوا يدرسون في الولايات المتحدة عام ٢٠١٤(٧). واستقبلت المملكة المتحدة أكثر من ١٠٠٠٠ طالب سعودي(٨). وفي الصين، هناك ما يقارب ٣٠٠٠ طالب سعودي، وهو ما دعا أستاذ جامعة سعودي إلى أن يقول من قبيل المزاح إن الأمر سينتهي بالعربية السعودية إلى أن تكون البلد الذي يضم أكبر عدد من الناطقين بالصينية خارج الصين.

هناك أيضاً عدد أكبر من السعوديات، الأصغر سناً، يسافرن إلى الخارج في بعثات دراسية. تقول هند الشيخ، من معهد الإدارة العامة، إن الجميع يرغبون بالحصول على بعثة. بل إن العائلات التقليدية الآتية من خلفيات دينية متشددة تسمح لبناتها بالسفر إلى الخارج. تشعر الشيخ بالفخر الشديد بمعهدها الذي يوفر الدراسات العليا. في عام ٢٠١٣، كان هناك ١,٣٧٧ فرصة عمل معروضة على ١٥٦ خريجاً. ويبدو أن البطالة ليست مسألة مهمة هنا. تقول الشيخ إن هذا يُثبت أن التعليم السليم يوفر للمرأة فرصاً جديدة. وهي تعتقد أن العربية السعودية وصلت إلى مفترق طرق. توفير الحوافز هو مفتاح التغيير، وهناك حالياً العديد من الحوافز. العامل المهم هنا هو أن الشباب اليوم يعيشون ضمن عائلات يتمتع الوالدان فيها بدرجة لا بأس بها من التعليم؛ فهناك العديد من الأمهات العاملات.

مع ذلك، فإن أساليب التفكير البالية لا تختفي بسهولة.

يقول روبرت ليس: «لدي صديق سعودي شاب يدير عملاً ناجحاً وهو تمديد كابلات خط إنترنت سريع في المباني التي تضم مكاتب. وهناك بالطبع طلب ملحّ على هذا النوع من العمل بسبب الزيادة الكبيرة في أعداد المكاتب الجديدة. بإمكان صديقي استقدام العديد من الفنيين السعوديين؛ فهذا عمل تقليدي محترم. ولكن لا يمكن إيجاد أشخاص سعوديين من خريجي الجامعات لتعيينهم في مناصب إدارية؛ فهؤلاء يرفضون العمل لدى أي شخص لا ينتمي إلى قبيلتهم. جاءه يوماً المدير التنفيذي الرئيس الذي يعمل لديه وأخبره أنه سيترك العمل لأنه سيعمل في وزارة الداخلية في إحدى تلك الوظائف الجديدة. سأله صديقي عن السبب، إذ إنه كان سيحصل على نصف المرتب في الوظيفة الجديدة. أجاب أن والده يعتقد أن المنصب الجديد أكثر احتراماً؛ فوالده لا يستطيع أن يفهم السبب الذي يدعوه للعمل بجد في شركة لا يملكها أحد أفراد العائلة. وهو يعتقد أن العمل لدى الحكومة أكثر احتراماً وأسهل أيضاً، لأن الموظفين الحكوميين يحصلون على معاش تقاعدي. وأضاف الرجل أنه يستطيع بالإضافة إلى ذلك البدء بمشروع عمل خاص به في أوقات فراغه. فهناك طرق لكسب المزيد من النقود عندما تعمل لدى الحكومة. على سبيل المثال، بيع تأشيرات الدخول للسعوديين من أجل العمال الوافدين».

---

(٧) Ibrahim Naffee, «Number of Saudi Students in US Reaches 111,000,» *Arab News*, 20/4/2014, <http://www.arabnews.com/news/558416> (Last accessed 6 August 2014).

(٨) <http://www.ukcisa.org.uk/Info-for-universities-colleges—schools/Policy-research—statistics/Research—statistics/International-students-in-UK-HE/> (Last accessed 6 August 2014).

في الطريق إلى مطار الرياض، تقوم جامعة الأميرة نورا الجديدة. وهي جامعة مخصصة للنساء حصراً، وتُعتبر، بعدد طالباتها البالغ ٤٥٠٠٠ طالبة، أكبر جامعة للنساء في العالم. يضم حرم الجامعة مئات الأبنية، بما في ذلك مساجد ومشفى خاص بالجامعة. وهناك خمس طالبات، وهن فتيات في العشرين من العمر، يدرسن علم النفس في الجامعة، مصممات على اقتناص الفرصة لإثبات ذواتهن. وهن يمثلن مؤشراً صحيحاً على درجة التطور التي حققتها العربية السعودية في السنوات الأخيرة. لكن آراءَهن الشخصية بخصوص مسائل من نوع قيادة المرأة للسيارة أو ارتداء النقاب ليست متماثلة؛ بعضهن يؤيدن التغييرات، والأخريات يعارضنها. تقول الطالبات إن البلاد تتغير، وهذا شيء جيد. لكن ما ترغب الطالبات في التشديد عليه هو أن التغيير يجب ألّا يحدث بالشكل الذي اتخذه الربيع العربي. تقول مريم: «سوف تسوء الأمور لا أكثر. انظروا فقط إلى سورية وإلى مصر: فوضى كبيرة عارمة».

تدرك الطالبات أنهن سيسافرن إلى الخارج في إحدى بعثات الملك عبد الله فور حصولهن على درجاتهن الجامعية، وبعد ذلك سيحصلن على عمل. وهن مقتنعات أنهن جديرات بالحقوق نفسها الممنوحة للرجال. تقول بشايا: «الفكرة القائلة إن الرجال يتمتعون بحقوق أكثر من النساء، هي تفسير خاطئ للدين. ديننا يمنح الحقوق نفسها للرجال والنساء». لا ترى أي من الطالبات مشكلة في العمل مع الرجال في نفس المكان. تقول مريم: «طالما أنه يحترمك».

في جدة، تحذر سمر فطاني، الصحافية والناشطة في القضايا النسائية، من الإفراط في الأمل. فقد عانت الفطاني الكثير. عندما كانت شابة، كان يسود شعور بالتفاؤل حول التطور، لكن حركة التشدد التي بدأت بعد عام ١٩٧٩، دمَّرت كل الآمال. عندما أجرينا معها مقابلة عام ٢٠١٣، قالت إن الكثير يتوقف على الملك عبد الله:

«مشاعري مختلطة. علينا الانتظار لنرى ما سيحصل. لقد برهن الملك أنه، رجل يحترم كلمته. نفَّذ كل ما كان قد وعد به. تصدى للمتشددين ولآخرين ممن عارضوا التغيير من أي نوع. ولكن هل يبقى الوضع على حاله بعد رحيل الملك؟ فالجهات التي تعارض التغيير لم تختفِ بعد. وحتى الملك يضطر إلى التعامل معها بحذر. ما زال لدى هؤلاء الكثير من النفوذ. وهذا جانب سلبي».

تضيف فطاني: «في المقابل، هناك الجيل الجديد الذي يضم ٧٠ بالمئة تقريباً من الشعب. وهناك حالياً صراع بين المتشددين والإصلاحيين، كلا الطرفين يحاول التأثير في الشباب وجلبهم كلٌّ إلى معسكره. يعود حالياً عدد كبير من الشباب من دراستهم في الخارج. وأعتقد أن تلك كانت خطوة حكيمة من جانب الملك. فقد كان من الواجب تعريف هؤلاء الشباب على العالم ودفعهم لاختبار طريقة عيش الناس في الثقافات الأخرى، بدل أن ينعزلوا ويتشربوا الأفكار المتشددة التي لا تجيز أي تسامح أو قبول للثقافات الأخرى».

«المتشددون في الحكومة هم المشكلة أما المعتدلون من أمثالنا فيجري تهميشهم. قبل أن يتولى الملك الحالي الحكم، لم يكن يُسمح للنساء بحضور المؤتمرات أو بظهور صورهن في الصحافة الوطنية. الآن توفَّرت للنساء فرصة إثبات ذواتهن».

خامساً: دار الحكمة

تعتبر جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا، واحة للتفكير الحر، نسبياً، في مملكة إسلامية تُعتبر متشددة في جوانب أخرى. فكل شيء مسموح داخل حرم هذه الجامعة المختلطة؛ بل إن الجامعة تضم داراً للسينما، وهذا لا يمكن تصوره في أمكنة أخرى. لكن جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا، شأن مجمَّع أرامكو وتبذير الأمير وليد بن طلال، هي الاستثناء الذي يثبت القواعد السائدة في العربية السعودية. فلا يوجد ما يشير إلى أن باقي المملكة ستحذو حذو الجامعة، أو إلى أن حدة الفصل بين الجنسين ستتراجع قريباً.

المجالان الوحيدان اللذان لا يطبّقان الفصل بين الجنسين في المملكة، هما مجال الخدمات الصحية ومجال دراسة الطب. وكان الأمر على هذا النحو منذ وقت طويل ولأسباب عملية محضة ـ حيث لا يتوافر طاقم كافٍ من الذكور والإناث في القطاع الصحي بما يسمح للرجال بمعالجة الرجال أو للنساء بمعالجة النساء. كما وبدأت النساء اختراق ميدان الأعمال الذي كان حتى الآن مجالاً ذكورياً. أما في المجال التعليمي، فما زال يطبّق الفصل الصارم بين الصبيان والفتيات، وبين الرجال والنساء. تدرس النساء في جامعات النساء، ويدرس الرجال في جامعات الرجال. وفي حال وجود محاضِر ذكر واحد فقط يدرِّس موضوعاً محدداً في جامعة للنساء، يضطر إلى إلقاء محاضراته من خلال دارة تلفزيونية مغلقة حتى لا يرى طالباته.

هذا ما جعل افتتاح جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا، في الثالث والعشرين من أيلول/ سبتمبر من عام ٢٠٠٩، حدثاً خارقاً ـ إذ إنها تعتبر الجامعة الأولى في العربية السعودية التي يدرس فيها الطلاب من الجنسين سوياً كل الفروع الدراسية. وهنا ينبغي الاعتراف أن هذه الجامعة تدرِّس فقط طلاب درجات الماجستير والدكتوراه ـ فالرأي السائد هو أن التعليم المختلط في عمر أصغر قد يؤدي إلى إشاعة الفوضى، ويتبنى هذا الرأي بعض المؤيدين لهذه الواحة.

كانت جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا، الواقعة في قرية ثول على بعد ساعة بالسيارة من مدينة جدة الساحلية، هي مشروع الملك عبد الله الخاص. فقد افتتح الجامعة بنفسه في اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية بحضور ثلاثة آلاف ضيف، من الذكور والإناث. من بين هؤلاء كان محمد يونس، البنغالي الحائز جائزة نوبل، مؤسس مصرف «غرامين بنك» (Grameen Bank) في بنغلادش، الذي يهدف إلى تشجيع التطور الاجتماعي من طريق تقديم القروض الصغيرة. وقد أكد يونس في الكلمة التي ألقاها أهمية تحرير المرأة في الحرب العالمية ضد الفقر.

يطلق الملك على هذه الجامعة اسم «دار الحكمة الجديد» و«منارة للسلام والأمل والتصالح».

قال الملك: «سوف تكون الجامعة في خدمة شعب المملكة وسوف تستفيد منها كل شعوب العالم وفقاً لتعاليم القرآن الكريم الذي يقول إن الله خلق بني البشر لكي نتعارف».

ورغم أن الجامعة كانت واحدة من المشاريع الأثيرة لدى الملك عبد الله، فقد سبق إنشاؤها نزاعٌ عنيف مع رجال الدين والجماعات المتشددة الأخرى، واستمر صراع الأفكار حتى بعد افتتاحها. فبعد شهر من افتتاح الجامعة، شن أحد رجال الدين البارزين، وهو الدكتور سعد بن ناصر الشيثري، هجوماً شرساً في القناة التلفزيونية الوطنية على الجامعة بوصفها جامعة مختلطة. وكان رأيه أن «اختلاط الجنسين هو خطيئة كبرى وإثم عظيم». لكن الدكتور الشيثري بالغ في هجومه وأُجبِرَ على الاستقالة من منصبه في هيئة كبار العلماء، وهو ما كان مدعاة سرور السعوديين من ذوي الأفكار الأكثر تطوراً. لكن الملك سلمان أعاده إلى منصبه ليكون مستشاراً له.

لم يكن الشيثري الوحيد في مشاعره العدائية تجاه الجامعة. فالعديد من مؤيدي الجامعة يخشون أن تغلق الجامعة أبوابها إذا خلف الملكَ عبد الله ملكٌ أقل ميلاً للإصلاح. ولن يكون ذلك بالأمر الصعب، إذ إن الإجراءات الأمنية الصارمة تعزل الحرم الجامعي، البالغة مساحته ٣٦ كم٢، عن العالم الخارجي. ومع أن الجامعة ما زالت مفتوحة حتى الآن، فإن النتائج المتوخاة منها ليست حتى الآن مشجعة على الإطلاق. فقد جرى فصل بعض المرافق نتيجة ضغط من الطلاب المحافظين؛ لم تكن تلك المرافق قاعات المحاضرات، بل أحواض السباحة ومهاجع الطلاب. والأهم من كل ذلك أن عدد الطلاب لا يزال ضئيلاً، ٨٤٠ رجلاً وامرأة في عام ٢٠١٥[٩]، بالمقارنة مع ٤٥٠٠٠ طالبة في جامعة الأميرة نورا للنساء في الرياض. ويمثل الوافدون الأغلبية في هذا العدد الضئيل، كما أن المحاضرين في غالبيتهم هم من الوافدين. ولا يتجاوز عدد الطلاب السعوديين ٢٤٦ طالباً.

ورغم الهبة السخية التي منحها الملك للجامعة، والبالغة عشرة مليارات دولار، لم تشهد الجامعة توسعاً كبيراً. ما زالت الجامعة مستمرة في أداء وظيفتها، ولكن لا تلوح في الأفق أية بشائر تدل على أن هذا المثال يجري تطبيقه في مكان آخر في المملكة.

---

(٩) King Abdullah University of Science and Technology (KAUST), <http://www.kaust.edu.sa/media-relations.html> (Last accessed 8 February 2015).

الفصل السابع

الانفجار الرقمي: وسائل التواصل الاجتماعي ـ القوة ووهم القوة

الأرقام الإحصائية واضحة وضوح الشمس. عندما يتعلق الأمر بوسائل التواصل الاجتماعي، يظهر السعوديون في مقدمة شاغلي معظم المنابر، وخصوصاً موقع تويتر. إذ نجد العديد من الشباب السعوديين يتنقلون من مكان لآخر يحمل الواحد منهم جهازين أو ثلاثة أجهزة هواتف نقالة ذكية، ولا يغيبون لحظة عن شبكة الإنترنت. وصل معدل انتشار الهواتف النقالة بين المواطنين السعوديين ١٧٠ بالمئة، وهناك نسبة ٦٠ بالمئة من المواطنين لديها خط اتصال مع الإنترنت. وتزداد هذه النسبة يومياً. وفي ما يخص الشريحة العمرية بين ١٨ ـ ٢٤، ينتشر استخدام شبكة الإنترنت انتشاراً هائلاً (٩٠ بالمئة)؛ وهي نسبة تتعدى معدل استخدام الإنترنت في أي مكان آخر في الشرق الأوسط. لم تعد العربية السعودية المجتمع المغلق الذي كانت عليه لسنوات عديدة. فهناك الكثير مما يمكن أن يحدث في الفضاء الإلكتروني، حتى في حال وجود قيود.

أولاً: الأمطار الغزيرة بوصفها قضية سياسية

انقضى وقت طويل قبل أن تسمح العربية السعودية باستخدام الإنترنت، ولكن ليس في ذلك ما يثير الدهشة عندما نتذكر أن إدخال الراديو والتلفزيون في ستينيات القرن العشرين أحدث هياجاً في صفوف رجال الدين. بل إن هؤلاء شعروا بالذعر عندما سمعوا «لأول مرة» صوت امرأة صادراً عن جهاز الراديو عام ١٩٦٣. وبعد عامين تعرضت أول محطة تلفزيونية في الرياض لهجوم عنيف. وفي ما يتعلق بشبكة الإنترنت، كان على السعوديين الانتظار لغاية منتصف التسعينيات قبل أن يتمكنوا من الاتصال بالشبكة. تغير الوضع عام ١٩٩٤، ولكن بالتدريج في البداية؛ إذ كانت الأوساط الأكاديمية والطبية والمعاهد البحثية، فقط، هي من سُمح لها بالحصول على خطوط إنترنت سريعة، ولم يُسمح للشعب عموماً بالحصول على وصلة إنترنت قبل عام ٢٠٠٠.

منذ تلك اللحظة، تطورت الأمور بسرعة فائقة، أسرع من أي مكان في العالم. وفي ما يتعلق بوسائل التواصل الاجتماعي، لا يوجد أي موقع لا يُستخدم إلى الحد الأقصى في العربية السعودية: تويتر، فيسبوك، يوتيوب، بلوجر، إنستاغرام، بلارك، ويكيس، فليكر، نينغ، تمبلر، ليريود، لنكدن، فايبر، واتسآب...

يتوسع استخدام موقع تويتر بأسرع من استخدام باقي المواقع، فهناك واحد بين كل ثلاثة سعوديين يغرّد على تويتر[1]. تضم السعودية أكبر عدد من مستخدمي تويتر مقارنة بمستخدمي الإنترنت في العالم[2]. وفي كل شهر تُرسَل خمسين مليون تغريدة (أي أكثر من ١,٥ مليون تغريدة في اليوم). وهنا يمكن أن نضيف أنِ موقع تويتر لم يُدخِل برنامج التواصل باللغة العربية قبل شهر آذار/مارس من عام ٢٠١٢. أما موقع فيسبوك، الذي كان قد أدخل مثل هذا البرنامج منذ عام ٢٠١١، فهو يشهد أيضاً إقبالاً كبيراً. يتنامى عدد المشتركين في هذا الموقع في العربية السعودية على نحو أسرع من أي مكان آخر في منطقة الخليج. كان في المملكة، يوجد، لحظة كتابة هذه السطور، ثمانية ملايين مستخدِم تقريباً من أصل عدد سكان العربية السعودية البالغ ثلاثين مليون نسمة تقريباً، ما يجعل نسبة مستخدمي فيسبوك في المملكة واحدة من أعلى النسب في العالم[3]. ولا يقل موقع يوتيوب شعبية. فالسعوديون يشاهدون تسعين مليون فيلم يومياً؛ وهنا أيضاً يبدو الرقم الأعلى منه في أي دولة أخرى في العالم بالنسبة إلى عدد السكان.

---

(١) بعض المصادر تعطي نسباً أعلى. «العربية»، مثلاً، تعطي نسبة ٤١ بالمئة من كل مستخدمي الإنترنت. انظر: Eman El-Shenawi, «Saudi Religious Police to Monitor Social Media?,» Alarabiya.net, 22 February 2014, <http://english.alarabiya.net/en/media/digital/2014/02/22/Saudi-columnist-urges-religious-police-to-monitor-social-media.html> (Last accessed 14 March 2014).

ولكن يجب ألّا ننسى أن الأرقام ليست كلها موثوقة. يمكن معرفة «الخمسين الأوائل» من مستخدمي توتر السعوديين، في: «أكثر ٥٠ شخصية سعودية تأثيراً على موقع تويتر،» صحيفة أنحاء الإلكترونية، ٢٠١٣/٧/١٣، <http://www.an7a.com/112982> (Last accessed 14 March 2014).

انظر أيضاً: Cooper Smith, «These Are the Most Twitter-Crazy Countries in the World, Starting with Saudi Arabia(!?),» *Business Insider* (7 November 2013), <http://www.businessinsider.com/the-top-twitter-markets-in-the-world-2013-11> (Last accessed 12 August 2014).

(٢) Zoe Fox, «Just 11% of Americans Tweet Every Month,» Mashable (16 November 2013), <http://mashable.com/2013/11/15/twitter-penetration-countries/> (Last accessed 13 August 2014).

للاطلاع على دراسة أجريت مؤخراً حول استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في السعودية، انظر: «Getting to Know Social Saudis: A Closer Look at the Behavior of Saudi Users on Social Networks,» The Online Project (December 2013), <http://theonlineproject.me/page/insights/20/getting-to-know-social-saudis> (Last accessed 11 August 2014).

(٣) للاطلاع على مسح حديث لتوجهات استخدام التشبيك الاجتماعي عبر الإنترنت في المنطقة العربية، انظر: «Arab Social Media Report 2014», <http://www.arabsocialmediareport.com/home/index.aspx>, (Last accessed 2 December 2014).

انظر أيضاً: «Expert: Saudis Waste Eight Hours a Day on Internet,» *Arab News*, 27/12/2014, <http://www.arabnews.com/saudi-arabia/news/680406> (Last accessed 15 September 2015).

وكما في الدول الأخرى، لا يحمل التواصل عبر تلك المواقع أية صبغة سياسية؛ فالترفيه والدين والرياضة هي الموضوعات التي تحظى بحصة الأسد من المناقشة أو المشاهَدة أو التصفح. لم يجرِ حتى الآن دراسة هذا الموضوع، في منطقة الخليج على الأقل. كيف يمكن أن نفسر، إذاً، هذا الحماس لقضاء ساعات عديدة في الجلوس أمام شاشة والنظر إليها؟ لا بد من أن انعدام أي تسلية خارج نطاق الإنترنت ـ وندرة الفضاءات العامة، عموماً ـ يمكن أن يعتبر أحد الأسباب. فلا يوجد في العربية السعودية أي دور سينما، كما ولا يتوافر سوى عدد قليل من المسارح. في حين يمكن، عملياً، الوصول إلى كل شيء عبر شبكة الإنترنت. وغالباً ما يُقال إن موقع يوتيوب يتيح لك مشاهدة كل ما ترغب به. ثمة تفسير آخر محتمل وهو وقت الفراغ الطويل المتوافر لدى المواطنين السعوديين، النساء على وجه الخصوص، نتيجة نسبة البطالة المرتفعة.

ورغم أننا لا نستطيع إنكار النقص في المعطيات الدقيقة، لكن ثمة احتمال بأن طرْح المواضيع السياسية قد ازداد عما كان عليه، وذلك نتيجة استخدام وسائل التواصل الاجتماعي. والمثال المناسب هنا هو الهيجان السياسي الذي يحصل في كل مرة تُمْنى فيها العربية السعودية بكارثة الفيضانات. ولنأخذ مثلاً الأربعاء الأسود، الواقع في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠٠٩، عندما شهدت جدة وأجزاء أخرى من منطقة مكة هطولات مطرية غزيرة أدت إلى حصول انزلاقات طينية هائلة حوّلت الشوارع إلى أنهار. أحدث ذلك دماراً في المدينة وبلغ عدد حالات الوفاة ١٢٣ حالة على الأقل، ويقدِّر بعضهم أن العدد كان أكبر من ذلك كثيراً. وفي اليوم نفسه تشكلت مجموعة على فيسبوك باسم «الحملة الشعبية لإنقاذ مدينة جدة»، وخلال بضعة أيام أصبح لدى المجموعة ٤٠٠٠٠ متابع. كان الأشخاص الذين عبّروا عن «إعجابهم»، بالحملة مواطنين ساخطين حمّلوا السلطات البلدية مسؤولية البنى التحتية المهترئة ـ إذ لا يوجد في المدينة منظومة تصريف ملائمة ـ ودعوا إلى إطاحة بعض المسؤولين الكبار[٤]. أُغرِقَ موقع يوتيوب بالأفلام التي توضح مدى الكارثة. وسرعان ما أصبح الأربعاء الأسود موضوع الساعة على عدة مواقع مدوَّنات ومنابر الإنترنت. لم ينج حاكم منطقة مكة، الأمير خالد بن فيصل آل سعود، من سهام النقد؛ ولا الأشخاص الذين انبروا للدفاع عنه، كالصحافي المعروف جمال الخاشقجي.

جرى تداول أربع عرائض على شبكة الإنترنت، كانت العرائض تدين السلطات المحلية والمناطقية، كلٌ من منظورها. كانت العريضة التي حظيت بالعدد الأكبر من التواقيع عريضة نظمها محام شاب (وليد أبو الخير)، ركّز على الفساد واعتبره أحد الأسباب الرئيسة لفشل الإدارة. قال أبو الخير في مقابلة أجريت معه آنذاك: «كانت مملكتنا، ولغاية وقت قريب، مملكة الصمت،

(٤) أُعلنت أخيراً الأحكام التي طال انتظارها بحق الأشخاص الذين اتهموا بأنهم السبب في حصول فيضانات جدة عام ٢٠٠٩ في تشرين الثاني/نوفمبر. أصدرت محكمة الشكايات تسعة وثلاثين قراراً حُكم بموجبها على خمسة وأربعين متهماً وأخلت سبيل ثمانية وسبعين آخرين. سوف يقضي المحكومون ما مجموعه ١١٨ عاماً وستة أشهر في السجن كما سيدفعون غرامات يبلغ مجموعها ١٤,١٧ مليون ريال سعودي؛ انظر: «118 Years for Accused in Jeddah Flood Disaster,» *Arab News*, 1/12/2014, <http://www.arabnews.com/featured/news/668036> (Last accessed 2 December 2014).

لكننا لن نسمح لأحد بعد الآن بإخافتنا» (فيما بعد، وفي منتصف عام ٢٠١٤، اعتُقِلَ أبو الخير). كما اعتبرت عريضةٌ أخرى، نُشرت على موقع «جمعية الحقوق المدنية والسياسية في السعودية» (جرى حلّها بقرار محكمة آنذاك)، أن الفساد هو سبب مهم؛ لكنها مضت أبعد من ذلك ووصفت كارثة جدة بأنها «إبادة جماعية»، وطالبت بمحاسبة «أمراء الظلام» (لاحظ صيغة الجمع). عادت الفيضانات لتحصل مؤخراً(٥). تركّز الاهتمام على تلك الأحداث، ولا سيّما من خلال الأفلام التي عُرضت على موقع يوتيوب، وجرت ـ وما زالت تجري ـ نقاشات عنيفة على موقع تويتر. وهكذا تحولت الأمطار الغزيرة إلى موضوعة سياسية.

ثانياً: تطبيق لكل المناسبات

خلال السنوات الأخيرة، كان رجال الدين والناشطات النسويات وأفراد الأسرة المالكة، يستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي أيضاً. ورغم معارضة رجال الدين في البداية لاستخدام وسائل التواصل الاجتماعي «الخطِرة على الأخلاق»، فإنهم من أكبر مستخدمي هذه الوسائل في الوقت الحالي. وينطبق ذلك خصوصاً على رجال الدين «غير الرسميين»، أي من خارج المؤسسة الرسمية، الذين تمكنوا بهذه الواسطة من توسيع مجال تأثيرهم إلى حد كبير عبر تويتر وفيسبوك واليوتيوب وتطبيقات الهواتف الذكية. ازداد عدد التغريدات التي ينشرها أفراد تلك الجماعات بسرعة قياسية منذ اندلاع الثورات في تونس ومصر. تضم الأسماء التي غالباً ما نصادفها على هذه المواقع محمد العريفي وعايد القرني وسلمان العودة. يحتل العريفي المقام الأول، دون جدال، إذ إن لديه ١٢ مليوناً وتسعمئة ألف متابع على الأقل؛ يأتي بعده القرني («المحبوب الأثير» بين شيوخ تويتر)، ولديه ١٠ ملايين و٢٠٠ ألف متابع، ومن ثم يأتي العودة، ولديه أكثر من سبعة ملايين متابع. هناك أيضاً أحمد الشقيري، نجم الوعاظ في التلفزيون السعودي ـ الذي يعتبر نفسه الأبرز والأكثر شعبية بينهم، وهو يستحق اهتماماً خاصاً. الشقيري ليس شيخاً رسمياً حائزاً مؤهلات، لكن ذلك لم يقلل من شعبيته ـ ولا سيّما بسبب دعوته إلى تطبيق شكل مرن من الإسلام، خلافاً للتشدد الوهابي السائد. لدى الشقيري أحد عشر مليون وخمسمئة ألف متابع على تويتر(٦).

---

(٥) في كانون الثاني/يناير من عام ٢٠١١ حصلت فيضانات مدمرة في جدة توفي جراءها عشرة أشخاص وتعرض آخرون لإصابات وبلغت الخسائر في الممتلكات ملايين الدولارات. في أواخر عام ٢٠١٣، توفي أحد عشر شخصاً بسبب الفيضانات في مناطق متعددة، وفي شهر آذار/مارس من عام ٢٠١٤، حصل فيضان في منطقة حائل وهي صحراء بمعظمها وأدت إلى مصرع سبعة أشخاص. وفي تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٤، عانت أجزاء مختلفة من البلاد أمطاراً غزيرة. شلت الحركة في مدينة الرياض، وتوقف العمل في المنطقة الصناعية في العاصمة. كما غمرت المياه كل الطرق في منطقة الفيصلية بعد خمس عشرة دقيقة فقط من بدء الهطول. ظلت المستودعات مغلقة خلال فترة بعد الظهر بينما كانت المياه تتسرب إلى العديد منها.

(٦) Garrat Nada, «Twitter Sheikhs of Saudi Arabia,» Al-Monitor (18 December 2013), <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2013/12/twitter-sheikhs-saudi-arabia.html#> (Last accessed 12 August 2014), and Habib Toumi, «Religious Scholars Dominate Most-Followed List,» *Gulf News*, 14/8/2013, <http://gulfnews.com/ =

وقد صرَّح العودة أن التقنيات الحديثة لا تتناقض والإسلام، معلناً على صفحته في فيسبوك أن «الإسلام وبرمجيات «آبل» (Apple) يسيران سوياً تربطهما صداقة حميمة وعلاقة أخوية». يوفر موقع iTunes للمعجبين بالعودة تطبيقات مجانية تضم مقالات وتسجيلات صوتية وروابط إلى صفحاته على تويتر وفيسبوك ويوتيوب. ويضم نفس التطبيق مقالات عنه كما يوجد رابط مباشر إلى عنوان بريده الإلكتروني(٧). كما ويوجد رجل دين آخر ذو ذهنية متفتحة لبرمجيات «آبل»، ناشط على تويتر، وهو محمد المنجد ـ هناك تطبيق مجاني في موقع المنجد (الإسلام سؤال وجواب)(٨). وهو متوافر بإحدى عشرة لغة (بما فيها الإنكليزية، والعربية، والصينية، والروسية، والإسبانية، والفرنسية) حيث يقدم المنجد النصح في مجالات واسعة من العقيدة الإسلامية والتاريخ والسياسة.

لكن آراء وعاظ الإنترنت حول الثورات التي اندلعت في بلدان أخرى في الوطن العربي أو حول الاحتجاجات السياسية في العربية السعودية، تختلف كثيراً؛ بعضهم يؤيد السلطات وبعضهم الآخر يبدو شرساً في انتقاداته. فرجال الدين الذين ينتمون إلى المؤسسة الدينية الرسمية يتصرفون عموماً كدعاة للنظام، وينفذون ما يأمرهم «السياسيون» بالقيام به. لا يبدو المفتي العام، عبد العزيز آل الشيخ، خلافاً للعديد من زملائه، متحمساً إزاء استخدام وسائل الاتصال الاجتماعي. بل إنه صرح أنه يعتبر تويتر «مجلسَ المهرِّجين» و«خطراً على المؤمنين». في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠١٤، شن المفتي هجوماً عنيفاً على موقع المدونات القصيرة لأنه «مقر لكل شر ومصدر للأكاذيب والأباطيل»(٩). لكنه لا يشترك مع رجال الدين «الرسميين» الآخرين في أمر واحد، وهو الاعتقاد بأن «الطاعة العمياء» واجبة للملك (ولي الأمر). وعادة ما تؤدي تصريحات من هذا النوع إلى مناقشات حادة في وسائل التواصل الاجتماعي.

يستخدم رجالُ الدين وسائل التواصل الاجتماعي، أحياناً، كسلاح، كما يتبدى على نحو لافت في قضية حمزة الكشغري سيئة الصيت. في مطلع عام ٢٠١٢، نشر هذا الشاب السعودي نقاشاً نقدياً خيالياً مع النبي محمد على موقع تويتر. («لا أحب هالات القداسة المحيطة بك. لن أصلي لك»). أُغرِقَ موقع تويتر بسيل من رسائل السعوديين الغاضبين الذين حرّضهم عدد من العلماء المحنَّكين. وخلال أربع وعشرين ساعة، وصلت إلى الموقع ٣٠٠٠٠ تغريدة طالب جزء كبير منها بإنزال عقوبة الإعدام بالكشغري، سواء أعلن توبته أو لم يعلنها. فالتجديف جريمة بالغة الخطورة؛ لا مجال للنقاش. كان الكشغري في هذه الأثناء قد فرّ إلى ماليزيا حيث أُلقي القبض عليه. وسرعان ما تم تسليمه إلى العربية السعودية وأودع السجن. حصلت عريضة نشرت على الإنترنت تطالب

= news/gulf/saudi-arabia/religious-scholars-dominate-most-followed-list-1.1220096> (Last accessed 15 August 2013).

(٧) Jonathan Schanzer and Steven Miller, *Facebook Fatwa: Saudi Clerics, Wahhabi Islam and Social Media* (Washington, DC: Foundation for the Defense of Democracies, 2012), p. 51, <http://www.defenddemocracy.org/content/uploads/documents/face-book_fatwa_low_res_2.pdf>.

(٨) <http://islamqa.info/en> (Last accessed 2 December 2014).

(٩) Habib Toumi, «Saudi Mufti Blasts Twitter as Evil,» *Gulf News*, 21/10/2014, <http://gulfnews.com/news/gulf/saudi-arabia/saudi-mufti-blasts-twitter-as-evil-1.1401887> (Last accessed 2 December 2014).

بإطلاق سراحه على ٤٠٠٠ توقيع، في حين حصل المعارضون له، ممن طالبوا من خلال فيسبوك بإعدامه فوراً على ٢١٠٠٠ «إعجاب» بسرعة فائقة. بعد قضاء عامين في السجن، كانت أول تغريدة لحمزة الكشغري «صباح الخير للأمل... للأرواح التي لا تموت... الحمد لله».

ثالثاً: النسوية الرقمية

لا داعي طبعاً للقول إن النساء أيضاً يستخدمن وسائل التواصل الحديثة بكثافة. تقوم النساء، ببطء ولكن ليس بالضرورة بثبات، بتقويض أسس الفصل الصارم بين النساء والرجال، الذي يُعتبر من السمات المميزة للمجتمع السعودي. قبل سنوات، كانت الفتيات والشبان يرمون إلى بعضهم بقصاصات.تحوي أرقام هواتفهم عند وقوفهم أمام المصاعد أو خلال سيرهم في مراكز التسوق. أما الآن فلم يعد هناك ضرورة للتصرفات الخفية من هذا النوع؛ حيث إن المنابر المتوافرة على شبكة الإنترنت وغرف الدردشة والمدوَّنات وفيسبوك وخدمة الرسائل النصية القصيرة وموقعي سكايب وتويتر توفر فرصاً عديدة للتواصل. ورغم كل هذا التفاعل الجاري على شبكة الإنترنت، لا يزال هناك فرق واضح بين العالم الافتراضي والعالم الواقعي، وتشرح طالبة شابة هذه الفكرة بأسلوب مدهش:

«لدي مجموعة كبيرة من الأصدقاء من الجنس الآخر على شبكة الإنترنت، لكن الأمر يختلف كثيراً عن اللقاء بهم على أرض الواقع... في العربية السعودية، إذا كنت في نفس المكان مع شخص من الجنس الآخر، فيبدو الأمر أشبه بإقامة علاقة جنسية. هذا شيء مخز، لكنه الواقع».

في ما يتصل بتحرر المرأة، فإن أنشطة النسويات السعوديات، ولا سيَّما تلك التي تتمحور حول منع النساء من قيادة السيارة، هي أول ما يخطر في البال. تشعر بعض النساء بغضب شديد بسبب التصريحات المتواصلة التي يدلي بها الوعّاظ البارزون والتي يعبّرون فيها عن عدائهم للمرأة. على سبيل المثال، وصف رجلُ الدين الضرير عبد الرحمن البراك، الذي يتمتع بتأثير مهم، النساءَ اللواتي يقدن السيارة بأنهن «يقتحمن باباً من أبواب الشر». وبدورها، قالت اللجنة الدائمة للبحوث الإسلامية والإفتاء، وهي إحدى أعلى الهيئات الدينية في المملكة، إن قيادة المرأة للسيارة ستؤدي إلى «موجة من الدعارة والشذوذ والطلاق»، وخلصت إلى نتيجة واهية مفادها أنه، وخلال عشر سنوات «لن يبقى هناك أي فتاة عذراء»[١٠]. هذا النوع من التصريحات يثير حفيظة النسويات السعوديات، ويحفزهن للقيام بأفعال لم يكن أحد ليحلم بالقيام بها قبل عقد من الزمن، أفعال تصل إلى أعداد متنامية من الناس؛ وإن كان عبر العالم الافتراضي على أية حال.

تُعتبَر منال الشريف المثال الأشهر في هذا المجال، فقد نشرت على موقعَي تويتر وفيسبوك فيلماً يُظهِرها وهي تقود سيارة، وكان ذلك في شهر أيار/مايو من عام ٢٠١١، وأثارت بذلك ذعر

(١٠) «Saudis Fear There Will Be «No More Virgins» and People Will Turn Gay If Female Drive Ban Is Lifted,» *The Daily Mail*, 1/12/2011, <http://www.dailymail.co.uk/news/article-2068810/Saudis-fear-virgins-people-turn-gay-female-drive-ban-lifted.html> (Last accessed 3 October 2014).

السلطات. أطلق الفيلم جدلاً حاداً بين المؤيدين والمعارضين لقيادة المرأة للسيارة في هاشتاغ W2Drive#. شاهد ٤٠٠٠٠٠ شخص على اليوتيوب خطابها في منتدى أوسلو للحرية، في أيار/ مايو ٢٠١٢[١١]. كان الثمن الذي دفعته منال الشريف بسبب أنشطتها هو عملها كمستشارة أمن الإنترنت في شركة أرامكو السعودية ـ وهو منصب كانت قد شغلته لعشر سنوات. بعد أن رفضت منال التخلي عن نشاطها، أصدر الشيخ عبد العزيز الطريفي، وهو رجل دين سعودي بارز، فتوى وصفها فيها بـ «المنافقة». بعد أن طُردت من عملها وتلقت تهديدات بالقتل، غادرت المملكة لتعيش في الخارج.

في صيف ٢٠١٢، قدَّمت شابة سعودية مثالاً مثيراً على استخدام وسائل التواصل الاجتماعي وذلك عندما أمرها المطاوعة بمغادرة مركز تسوُّق بعد أن استشاطوا غضباً لرؤية أظافرها المطلية. شرعت الشابة تجادلهم بأعلى صوتها وهي تصور الحادثة بهاتفها. لقي الفيلم رواجاً شديداً على موقع اليوتيوب[١٢].

يستمر النزاع بين مؤيدي الفصل بين الجنسين ومعارضيه دون توقف. وتحصل حوادث شبه يومية تشجعها أو تباشر بها، على نحو متواتر، حملات تُنظم على شبكة الإنترنت. وقد أحدثت العريضةُ التي نشرت على موقع فيسبوك مطلع عام ٢٠١١، والتي دعت إلى إنشاء «مستشفيات صافية» ـ أي خاصة بالنساء ـ موجةً أخرى من الهيجان. لقيت العريضة ترحيباً واسعاً: «هذا صحيح أيضاً! يجب إيقاف أولئك الأطباء الذين يقفون بين ساقي فتاة»! وتساءل آخر «هل تعتقد أنه لا ضير في أن ينظر أطباء ذكور إلى أعضاء زوجتك التناسلية؟» وصل الأمر بموقع «نور اليقين» حد الدعوة إلى الفصل بين الجنسين حتى في العالم الافتراضي. فهذا الموقع يمنع النساء من التواصل مع رجال الدين من خلال منبره على شبكة الإنترنت، «إلا في حال الضرورة القصوى». وحذر أحد رجال الدين الكبار، الشيخ عبد الله المطلق، عضو هيئة كبار العلماء، من أن الدردشة بين الجنسين قد توقع في الخطيئة. وقال تحديداً إن «الشيطان يكون حاضراً أثناء الحديث بين الرجال والنساء»[١٣].

يوجد، بالطبع، العديد من الناشطين على الإنترنت ممن يعبِّرون عن اشمئزازهم، مثل إيمان النفجان التي تتحدث علناً عن الاختلاط الطبيعي بين الرجال والنساء في موقعها Saudiwoman's Weblog، وممن يعارضون فرض ارتداء النقاب على النساء، ويؤيدون السماح للمرأة بقيادة السيارة. لكن اللافت هو عدد المواقع الموجودة لمدوِّنات إناث يدافعن فعلياً عن الوضع الراهن ويُثنين على رجال الدين.

---

(١١) «Manal Al Sharif: The Drive for Freedom,» Youtube, 10 May 2012, https://www.youtube.com/watch?v=0PXXNK-3zQ4> (Last accessed 2 December 2014).

(١٢) «Saudi Woman Defies Religious Police: It Is None of Your Business If I Wear Nail Polish,» Youtube, 24 May 2012, <https://www.youtube.com/watch?x-yt-ts=1421914688&x-yt-cl=84503534&v=OpUUOYRLW3k#t=77>.

(١٣) Rick Gladstone, «Online Chats between Sexes Denounced in Saudi Arabia.» *The New York Times*, 29/5/2014, <http://www.nytimes.com/2014/05/30/world/middleeast/online-chats-between-sexes-denounced-in-saudi-arabia.html?_r=0> (Last accessed 30 May 2014).

رابعاً: جوليان أسانج العربية السعودية

يزداد عدد أفراد العائلة المالكة الذين يزورون الفضاء الإلكتروني، وخصوصاً موقع تويتر. ولغاية سنين قليلة مضت، كانت الأميرة «أميرة»، زوجة الأمير الوليد بن طلال، هي الرائدة في هذا المجال، ويبلغ عدد متابعيها ٨٠٠٠٠٠ متابع (أصبح عددهم الآن مليوناً ومئة ألف متابع). ولأسباب غير معروفة، لم يبدأ زوجها باستخدام تويتر قبل شهر آذار/مارس من عام ٢٠١٣، ولكن خلال هذه الفترة أصبح لديه ثلاثة ملايين وسبعمئة ألف متابع. في نهاية عام ٢٠١١، كان الملياردير قد استثمر ٣٠٠ مليون دولار في هذا النوع الجديد من مواقع المدونات الصغيرة. هناك أفراد في المراتب العليا من العائلة المالكة مشتركون في موقع تويتر، بمن فيهم ولي العهد (الملك الحالي) سلمان بن عبد العزيز آل سعود، الذي حصد ٢٠٠٠٠٠ متابع في حركة انقضاض بارعة في أول تغريدة له مطلع عام ٢٠١٣؛ لديه حالياً ثلاثة ملايين وستمئة ألف متابع.

إذا كان المرء يبحث عن الشائعات، وخصوصاً منها فضائح أفراد عائلة آل سعود، فإن صفحة «المجتهد mujtahidd@» ستكون بالنسبة إليه مصدراً مثيراً للمعلومات. بل إن هناك من يبالغ ويطلق عليه اسم «جوليان أسانج العربية السعودية»[(١٤)]. لا أحد يعرف على وجه الدقة من يكون ـ ربما كان أحد أفراد العائلة المالكة جرى تجاهله لدى منح المكاسب وفي مظاهر التكريم. يبدو مستخدم تويتر هذا مطّلعاً على أمور مثيرة تبقى عادة طي الكتمان. ورغم أن «المجتهد» يصوب سهامه على عدد من أفراد العائلة المالكة، فإن هدفه المفضل هو عبد العزيز بن فهد، أصغر أبناء الملك الراحل فهد. إذ يتلقى هذا الرجل المستهتر المِتْلاف، بانتظام، ما يستحقه من توبيخ بذريعة «أنا أشن حرباً شعواء على الفساد القذر، معركة تبدأ بكشف الفاسدين وتنتهي بتجريدهم من مناصبهم». سأل المدونُ الأميرَ ذات مرة:

هل صحيح أن قصرك في الرياض أكبر من قصر الملك وأنه كلف الدولة اثني عشر مليار ريال؟ هل صحيح أنه يشغل مليوني م^2 وأن بناءه كلف ثلاثة مليارات إذ إنك احتفظت لنفسك بتسعة مليارات؟

أحياناً قد يكون المجتهد أكثر كياسة «وصلتني أخبار تقول إنه [عبد العزيز بن فهد] قد أجَّل الجهاد في سورية، الذي كان قد وعد به المشايخ، إلى ما بعد العودة من جولته على النوادي الليلية في نيويورك وباريس». ليس هناك شيء أو شخص يمكن أن يكون بمنأى عن سلاطة لسان المجتهد، ولا حتى الأفراد الأكثر تحرراً في العائلة المالكة، مثل «الأمير الأحمر»، طلال بن عبد العزيز ـ وبالطبع ـ ابنه الوليد بن طلال الذي يمارس النفوذ المتأتي عن ثروته. تبدو رسالة المجتهد بسيطة: «ليست مهمتي أن أدلّ الناس على ما يجب أن يفعلوه. مهمتي هي الكشف عن الحقيقة القذرة؛

(١٤) Joshua Berlinger, «An Anonymous Twitter Account May Be Starting a Quiet Revolution in Saudi Arabia,» *Business Insider* (22 October 2012), <http://www.businessinsider.com/mujtahidd-saudi-arabias-rebel-tweeter-2012-10?IR=T> (Last accessed 2 December 2013).

وبعدها يمكن للناس أن يقرروا بأنفسهم ماذا يفعلون بهذا الشأن». يتنامى عدد متابعيه على تويتر باستمرار؛ وفي شهر أيلول/سبتمبر من عام ٢٠١٥، وصل العدد إلى ما يقارب مليوني متابع.

خامساً: حدود الاحتجاج الافتراضي

هل تسمح السلطات بحدوث كل ذلك من دون أن تحرك ساكناً؟ تجدر الملاحظة هنا أن العربية السعودية لا تطلب من مزودي خدمة الإنترنت إضافة كل أنواع الرقابة، مع أن بإمكانها القيام بذلك في أي وقت. ربما كانت السلطات تتجاهل كل هذا القدر من الحرية لأن ذلك يتيح لها الاطلاع على لمحات مهمة مما يدور في صفوف الشعب من أحاديث، وفي نفس الوقت يمثل ذلك صمام أمان يصرّف الناس من خلاله مشاعر الإحباط لديهم. واللافت هو ظهور مجموعة من صنّاع الأفلام الغاضبين الذين يستخدمون موقع يوتيوب بصورة أساسية. بل إن عدداً من هؤلاء صار يُعتبر من نجوم وسائل التواصل، مثل الكوميدي عمر حسين بطل البرنامج الناجح «على الطاير» الذي يمكن مقارنته ببرنامج « دايلي شو» (Daily Show) لـ «جون ستيوارت» (Jon Stewart). كما أن البرنامج الهجائي «لا يكثر»، الذي يعدّه فهد التبيري، يتمتع أيضاً بالشعبية، فهناك ٨٤٠٠٠٠ مشترك وأكثر من ٨٠ مليون مشاهِد لأفلام البرنامج[١٥]. يجري إنتاج العديد من الأفلام برعاية شبكة «UTURN Entertainment»، التي أطلقت سلسلة كاملة من مشاهير وأفلام اليوتيوب. في الثالث عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠١٣، مثلاً، أنتج البتيري، بالاشتراك مع اثنين من الممثلين الكوميديين المعروفين، هشام الفقيه وعلاء وردي، فيلماً بعنوان: «No Woman No Drive»، في إشارة لا تخفى إلى الموسيقي الأمريكي بوب مارلي (Bob Marley). خلال اليومين الأولين من تحميل الفيلم على الموقع، شاهده أكثر من ثلاثة ملايين شخص، وحتى لحظة كتابة هذه السطور، شوهد الفيلم أكثر من ثلاثة عشرة مليون مرة. تتضمن هذه النسخة الساخرة من رائعة مارلي لعام ١٩٧٤، عبارات من نوع «المبايض سليمة وفي حال جيدة، بإمكانك إنجاب العديد والعديد من الأطفال»، وهذا ردٌّ على الشيخ صلاح اللهيدان، وهو رجل دين سبق أن قال إن النساء اللواتي يقدن السيارة يخاطرن بإيذاء مبايضهن ويلدن أطفالاً مشوَّهين. وفي مجتمع مثل العربية السعودية، مشبع تماماً بالروح الدينية، لا بد من أن تزدهر الفكاهة والهجاء. ومهما كان الوضع، فإن الحقيقة اللافتة هي أن تلك الإنتاجات السعودية تلاقي نجاحاً، وليس فقط في بلادها؛ فالبرنامج الكوميدي «إيش إللي»، الذي يبلغ عدد مشتركيه مليوناً ونصف المليون ويتجاوز عدد مشاهديه ١٩٠ مليوناً، يعتبر أكثر الأعمال الكوميدية مشاهدة في الوطن العربي[١٦].

---

(١٥) بعض من حلقاته لاقت رواجاً أكثر من ٥ ملايين مشاهدة. للمزيد من الأرقام، انظر: Layan Jawdat, «Laughing in the Kingdom: On Saudi YouTube Comedy,» Jadaliyya, 11 November 2014, <http://quickthoughts.jadaliyya.com/pages/index/17256/laughing-in-the-kingdom_on-saudi-youtube-comedy> (Last accessed 2 December 2014).

(١٦) Reine Farhat, «What are Users in the Arab World Watching on YouTube? [Infographic],» Wamda (19 March 2014), <http://www.wamda.com/2014/03/what-did-users- in-the-middle-east-watch-on-youtube-this-year> (Last accessed 15 April 2014). =

يتسم المثال الأخير بطبيعة تربوية. وهو فيلم قصير يُعرض في يوتيوب يبدأ بجملة «في كل عام، يذهب آلاف الأشخاص ضحية الإرهاب في العربية السعودية؛ نحن نتكلم هنا عن إرهاب الشوارع»! يجري تذكير المشاهدين قسراً بأن العربية السعودية هي الدولة الأولى في العالم من حيث حالات الموت بسبب حوادث السير. شوهد الفيلم أكثر من مليون مرة، والأمر المثير للدهشة أن شرطة المرور بدأت تستخدم الفيلم كمادة تعليمية. ما من شك بأنه كانت هناك حدود على الدوام، لكن الحكومة لم تبدأ بفرض القيود الصارمة إلا بعد أن بدأ الربيع العربي. وتطبق الحكومة القوانين تطبيقاً تعسفياً، مثل القانون الذي ينص على أنه «تُمنع مخالفة القواعد الدينية». وينص قانون مكافحة الإرهاب الصادر في شباط/فبراير من عام ٢٠١٤ على عقوبة السجن وعلى عقوبات أخرى جراء ارتكاب جرائم غامضة مثل «إلحاق الأذى بسمعة المملكة» و«بث روح الشقاق». في كثير من الأحيان يجري اعتقال مواطنين (ومن بينهم رجال الدين المتمردين، مثل يوسف الأحمد «الأستاذ في جامعة محمد بن سعود الإسلامية») وإغلاق حساباتهم على تويتر و/أو فيسبوك. لكن غالبية من يتعرضون للملاحقة القضائية هم نشطاء حقوق الإنسان، مثل أبو الخير وخالد الناصر وسعاد الشمري. فهم يتعرضون لمضايقات علنية من قِبَل السلطات السعودية، كما تُغلق حساباتهم من حين لآخر؛ وقد يحدث أسوأ من ذلك. في شهر تموز/يوليو من عام ٢٠١٤، أصدرت المحكمة الجنائية المتخصصة قراراً بسجن أبو الخير خمسة عشر عاماً، تتلوها خمسة عشر عاماً يُمنع خلالها من السفر. وكان أبو الخير قد أنشأ، عام ٢٠٠٩، موقع «Human Rights Monitor». اعتُبر مذنباً بـ «تحريض الرأي العام» و«إهانة القضاء» و«تشويه سمعة النظام والمسؤولين»[(١٧)].

قبل إقرار قانون مكافحة الإرهاب، كان آخرون، مثل عبد الله الحامد ومحمد القحطاني، يدفعون ثمناً غالياً نتيجة أنشطتهم. ففي مطلع عام ٢٠١٣، حُكم عليهما بالسجن لمدة أحد عشر عاماً وعشرة أعوام على التوالي. وفي منتصف عام ٢٠١٣، حُكم على سبعة نشطاء من المنطقة الشرقية بالسجن لمدد تتراوح بين خمسة إلى عشرة أعوام لأنهم «حرضوا الناس على الاحتجاج» عبر فيسبوك. كما حُكم على رائف بدوي، مؤسس موقع «الليبراليون السعوديون الأحرار» بالسجن لمدة عشرة أعوام وبألف جلدة وبدفع غرامة. وزاد الشيخ عبد الرحمن البراك الوضع سوءاً بإصداره فتوى نعَتَ فيها البدوي بـ «الكافر... والمرتد الذي يجب أن يُحاكَم ويحكَم عليه بما تقتضيه أقواله»[(١٨)].

= انظر أيضاً: Carlyle Murphy, «Young Saudis Embrace Internet Satire, Rejecting Ultraconservative Islam,» *Global Post*, 23/6/2014, <http://www.globalpost.com/dispatches/globalpost-blogs/belief/young-saudis-embrace-internet-satire-Islam> (Last accessed 11 August 2014), and <http://www.postray.com/mag/most-watched-arabic-youtube-channels/> (Last accessed 15 September 2015).

(١٧) Human Rights Watch, «Saudi Arabia: 15-Year Sentence for Prominent Activist,» <http://www.hrw.org/news/2014/07/07/saudi-arabia-15-year-sentence-promi-nent-activist> (Last accessed 1 December 2014).

(١٨) «الشيخ البراك: ما ينقله رائف بدوي من كفريات ترويج للكفر والإلحاد،» المسلم.نت، ١٨ آذار/مارس ٢٠١٢، <http://almoslim.net/node/162191> (Last accessed 1 July 2013). =

يُعتبر إغلاق المواقع من الأمور المألوفة ـ في شهر شباط/فبراير من عام ٢٠١٤، مثلاً، جرى إغلاق واحد وأربعين موقعاً جديداً ـ وقد تُحجب أحياناً خدمات الإنترنت بالكامل. وقد حصل ذلك في شهر حزيران/يونيو من عام ٢٠١٣، إذ جرى تعطيل الهواتف الموصولة بشبكة الإنترنت وبرنامج الرسائل النصية فايبر (Viber)، وأصيب عشرة ملايين مستخدم بالإحباط. وقد عبّر مستخدم تويتر @gabertoon عن الفكرة بوضوح إذ قال «أسوأ ما في حجب فايبر ليس الحجب بحد ذاته، بل معاملة الناس وكأنهم مجموعة من الأطفال». وتخطط لجنة الاتصالات وتقنية المعلومات للهجوم على موقعَيْ سكايب وواتسآب. ولكن ما يبعث على القلق أكثر هو الأخبار التي يتم تناقلها على تويتر والقائلة إن السلطات تنوي تعديل قانون مكافحة جرائم تقنية المعلومات بحيث يمكن اتخاذ الإجراءات القانونية ضد مواقع التشبيك، مثل تويتر، لسماحها بحسابات «تنشر الرذيلة والشذوذ والإلحاد»[١٩].

كما وتبدو الحرية النسبية التي يتمتع بها مستخدمو اليوتيوب السعوديون معرَّضة للخطر حيث سيطالَبون بتسجيل أنفسهم وبالحصول على رخصة تسمح لهم بالاستمرار في أنشطتهم[٢٠]. في منتصف عام ٢٠١٤، ذكرت صحيفة الإيكونوميست أن مستخدمي أجهزة الهاتف الخليوي في المنطقة الشرقية، حيث أغلبية السكان من الشيعة، ذعروا لدى اكتشافهم أنهم حمّلوا، دون قصد منهم، برمجيات تجسسية. وتلجأ الحكومة لاستخدام برمجيات توصف بأنها «أجهزة تحكم عن بعد» تتيح لها الوصول إلى كل المعلومات المتعلقة بالمستخدمين[٢١].

منذ أن بدأ سريان قانون مكافحة الإرهاب، بدا واضحاً أن السلطات أحكمت قبضتها على وسائل التواصل الاجتماعي. تصف كريستين ديوان (Kristin Diwan) الوضع وصفاً صحيحاً: «يبدو تعريف الحكومة الفضفاض للإرهاب بأنه أي فعل يؤدي إلى المساس باستقرار النظام العام أو إلحاق الأذى بالوحدة الوطنية، وكأنه يشمل كل أنواع المعارضة»[٢٢]. ومن الطبيعي أن يبدأ

= للحصول على قائمة أطول على أولئك الذين أدينوا، انظر: Human Rights Watch, «Challenging the Red Lines: Stories of Rights Activists in Saudi Arabia,» 18 December 2013, <http://www.hrw.org/news/2013/12/17/saudi-arabia-activists-chal-lenging-status-quo> (Last accessed 13 August 2014).

(١٩) «Kingdom Amending Laws to Monitor Social Media,» *Saudi Gazette* (2 June 2014), <http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140602207166> (Last accessed 11 August 2014).

(٢٠) Saad al-Dosari, «Is it Really Necessary to Curb Freedom on YouTube Productions?,» *Arab News*, 29/4/2014, <http://www.arabnews.com/news/562651> (Last accessed 11 August 2014).

(٢١) «We're Watching You,» *The Economist* (16 July 2014), <http://www.economist.com/blogs/pomegranate/2014/07/internet-monitoring-gulf> (Last accessed 20 July 2014).

(٢٢) Kristin Diwan, «Breaking Taboos: Youth Activism in the Gulf States,» Atlantic Council (7 March 2014), p. 4, <http://www.atlanticcouncil.org/publications/issue-briefs/breaking-taboos-youth-activism-in-the-gulf-states> (Last accessed 16 March 2014).

انظر أيضاً: Abeer Allam, «Saudi Arabia Cracks Down on Twitter,» Al-Monitor (20 March 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/03/saudi-twit-ter-crackdown-political-dissent.html#> (Last accessed 25 March 2014).

السعوديون في انتقاد القانون الجديد، في هاشتاغ يحمل اسماً سرياً ساخراً وهو «في موزامبيق». صنّفت «لجنةُ حماية الصحفيين» العربيةَ السعودية، في آخر تقييم سنوي أصدرته؛ بأنها الدولة الثالثة في العالم من حيث تشديد الرقابة[٢٣].

تجلت حقيقة أن السلطات السعودية ليست الجهة الوحيدة القادرة على التحكم بما يجري على شبكة الإنترنت في شهر أيار/مايو من عام ٢٠١٣، عندما نجحت مجموعة من قراصنة الحاسوب، تطلق على نفسها اسم «مجهول» (Anonymous)، في حجب عدد من المواقع الحكومية، بما فيها موقع وزارة المالية وموقع وزارة الخارجية. كان قراصنة الحاسوب يعبّرون، عبر حملة على تويتر Opsandi@، عن احتجاجهم على خطط الحكومة لاستخدام موبايلي (Mobily)، وهي أكبر شركة اتصالات في المملكة، لمراقبة الاتصالات عبر شبكة الإنترنت. عندما أنكرت شركة موبايلي ذلك، جاء رد القراصنة متوقعاً قدر ما كان جذرياً، فقد أُغلق موقع موبايلي. بعد بضعة أشهر، شنت المجموعة نفسها هجوماً إلكترونياً على كل من الحكومتين السورية والسعودية بهدف معاقبة طرفَي الحرب الأهلية في سورية على ما يقترفانه من جرائم. اتهمت مجموعةُ القراصنة الحكومةَ السعودية بدعم المقاتلين المرتبطين بالقاعدة.

سادساً: غياب تقليد الاحتجاج في الشارع

هل يمكن اعتبار وسائل التواصل الاجتماعي قوة تخلق ثورة؟ رغم وجود أعداد كبيرة من «المتفائلين الإلكترونيين»، فإن أعداداً متنامية من الناس تنظر بعين الحذر إلى ما يطلقون عليه الهوس الإلكتروني («كلما زادت وسائل التواصل الاجتماعي كان ذلك أفضل»). لا يملّ يفغيني موروزوف (Evgeny Morozov)، عرّاب «الواقعية الإلكترونية»، من تكرار مقولة إن الإنترنت ليست هي ما يحرر الناس، بل الناس هم من يحررون أنفسهم[٢٤]. يمكن للإنترنت أن تكون مساعداً، ولكن هذا كل ما في الأمر، لأن بإمكان الأنظمة الحاكمة أن تستخدمها أيضاً وبكل سهولة، بل إن الأنظمة قد تستخدمها أحياناً ببراعة تفوق براعة المعارضة. فالأمر هنا لا يتعلق فقط بالإمكانات العديدة المتوافرة للنظام لممارسة التحكم، بل يتعلق أيضاً باستخدام مسؤولي الحكومة للإنترنت، إما بمبادرة منهم أو من خلال أشخاص مؤتمنين،

---

(٢٣) «10 Most Censored Countries,» <https://cpj.org/2015/04/10-most-censored-countries.php> (Last accessed 15 September 2015).

(٢٤) انظر العمل الكلاسيكي حول هذا الموضوع: Evgeny Morozov, *The Net Delusion: How Not to Liberate the World* (London: Allen Lane, 2011).

انظر أيضاً: Evgeny Morozov, *To Save Everything, Click Here: The Folly of Technological Solutionism* (New York: Public Affairs, 2013).

يعتقد جودت أن استهلاك وسائل الإعلام للمعارف السياسية ـ ورغم أنها تقدم المعلومات من خلال الترفيه، كما في حال الكوميديا التي تُبث على اليوتيوب ـ يمكن أن يكون له تأثير إزالة مشاعر التعبئة ونزع حالة التسييس. انظر: Jawdat, «Laughing in the Kingdom: On Saudi YouTube Comedy».

بأجر أو بدون أجر. ويبذل هؤلاء أقصى جهدهم لتوجيه المناقشات إلى مسار محدد. قد ينجح ذلك أحياناً؛ وقد يفشل أحياناً أخرى؛ والسعودية ليست استثناء في هذا المجال. ففي صفوف المعارضة، يمكن اكتشاف الموظفين الحكوميين المغردين من على بعد ميل، ويُطلق عليها تهكماً «الرؤوس البيضاوية»، تيمُّناً بالفراغ البيضاوي الشكل حيث ينبغي أن تظهر صورهم.

في العربية السعودية، كما في الدول الأخرى، تُعتبر الديناميات الاجتماعية والسياسية الأساسية أكثر أهمية من التكنولوجيا، سواء أكانت أشكال تلك الديناميات جديدة أم قديمة. وهذه الدينامية هي التي تحدد إن كانت حركة المعارضة تتمتع بفرصة للبقاء أم لا. فوسائل التواصل الاجتماعي، وفي أفضل الحالات، يمكن أن تساعد في تسريع الصيرورة من هذا النوع. وقد تجلى ذلك بوضوح، وعلى نحو مؤلم، في السياق السعودي في مناسبات عديدة ـ خلال يوم الغضب في الحادي عشر من آذار/مارس من عام ٢٠١١، وخلال حركة احتجاج النساء التي أطلقتها منال الشريف منتصف عام ٢٠١١. بعد اعتقال منال الشريف، نُظمت صفحة على فيسبوك تدعو إلى احتجاج وطني (حملت اسم «Women 2 Drive»). حصلت الصفحة على ١٠٠٠٠ تعليق «إعجاب» بسرعة البرق، لكن قدوم بضع عشرات فقط من النساء لقيادة سياراتهن أصاب العديد من الناس بالذعر. حصل شيء مماثل مع صفحة فيسبوك نُظمت مطلع عام ٢٠١١ ودعت إلى احتجاج عام يشمل كل المملكة أسوة بالتظاهرات الضخمة في كل من تونس ومصر. ولكن أن تؤدي صفحة مجهولة الهوية على فيسبوك إلى رد فعل حكومي تمثَّل في حضور رجال الشرطة وطائرات هيليوكوبتر تحوم في السماء، لا بد من أن يشي بمدى قوة وسائل التواصل الاجتماعي. الأمر الذي لا يقل أهمية، هو أن ذلك اليوم (١١ آذار/مارس ٢٠١١)، لم يشهد سوى متظاهر واحد؛ بل إن بعض السعوديين بدأوا يشيرون بسخرية إلى يوم الغضب باسم يوم الهدوء.

لا تتوفر لدى العربية السعودية خبرة في ظاهرة العمل الجماعي الحديث، التي تجلت في أمكنة أخرى من العالمين العربي والإسلامي. لم يحصل أن كان «الشارع» مسرحاً للاحتجاج، باستثناء المنطقة الشرقية حيث أصبحت الاحتجاجات في الشارع جزءاً لا يتجزأ من الاضطرابات الموجودة في صفوف السكان الشيعة (انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب). ثمة عامل مهم وهو أن الوضع الاقتصادي ليس بائساً على الإطلاق مقارنة بمصر مثلاً. ولدى خبير في العلوم السياسية، وهو مدرّس في جامعة الملك سعود، رأيه الخاص بهذا الشأن. «لقد تبين أن الناس أكثر عقلانية مما كنا نعتقد. فهم يحسبون الأمور قبل الخروج إلى الشوارع للاحتجاج كما فعل إخوانهم العرب في أماكن أخرى. هم ينظرون حولهم. ماذا يرون»؟

يبدو حالياً أن هناك دعماً كبيراً للملك الجديد وشعوراً بالعداء تجاه أي اقتراح بالتظاهر. فمقابل كل مدوِّن ناشط يجري اعتقاله أو تُدمَّر حياته، يوجد على شبكة الإنترنت عشرة منابر عشائرية

للنقاش يمكن فيها للناس أن يشرعوا في الندب معلنين ولاءهم للملك وللملكية السعودية[٢٥]. تضم بعض تلك المنابر ما بين ٥٠٠٠٠ و١٠٠٠٠٠ مستخدم. عند أخذ مجمل الأمور بالاعتبار، يبدو أن على يوم الغضب الحقيقي الانتظار طويلاً.

(٢٥) للاطلاع على دور للعشائر، انظر: Sebastian Maisel, «The Resurgent Tribal Agenda in Saudi Arabia,» The Arab Gulf States Institute in Washington (2015), <http://www.agsiw.org/wp-content/uploads/2015/07/Maisel_Resurgent-Tribal-Agenda.pdf> (Last accessed 15 September 2015).

الفصل الثامن

مهمة الفن: رسالة تغيير

كانت جدة على الدوام مدينة مختلفة، مدينة أكثر تحرراً لا تنفر من تجربة الجديد. وهي مدينة ساحلية تضم مرفأ. وكان الحجاج والتجار من كل حدب وصوب يعبرونها منذ قرون، خلافاً لمدينة الرياض، الموجودة داخل شبه الجزيرة حيث يصعب الوصول، التي تُعتبر مدينة محافظة ترفض كل جديد. بالتالي، فإن افتتاح صالتَي عرض للفنون في مدينة الرياض ينبئ بالكثير حول التغيير الحاصل في العربية السعودية. أما في جدة، فيمكن لأي شيء أن يحصل طبعاً. بل إن المرء قد يصادف مجموعة محلية لموسيقى البوب تقيم حفلاً خاصاً بها. وهناك من ينعت سكان جدة بالمرتدّين عن الإسلام. لكن ييدنغ كاو (Yiding Cao)، وهو في الأصل من الصين وكان يعمل مديراً لصالة عرض «الآن» في الرياض عندما زرنا المدينة عام ٢٠١٣، لديه رأي آخر، وهو يقول بإعجاب: «جدة مختلفة. فهناك يحدث كل شيء!».

يعارض المذهبُ الإسلامي الوهابي السائد في العربية السعودية الفنَّ من حيث المبدأ. فن التخطيط التقليدي مقبول، لكن تصوير الأشخاص أو الحيوانات يعتبر محرماً وفقاً لهذا التفسير الأكثر تشدداً في الإسلام، إذ إنه قد يؤدي بسهولة إلى الوثنية.

المتاحف التاريخية هي المتاحف الوحيدة في العربية السعودية، لكن هناك بعض صالات العرض التي افتُتحت، حتى في مدينة الرياض. وهو شيء بدأ يصبح مألوفاً في المملكة؛ فافتتاح الصالات غير مسموح به نظرياً، مع ذلك، فهو يحصل، طالما أنه لا يُجابَه بمعارضة شديدة من الجماعات المحافظة. أما تدريس الفن، فيبدو أمراً مستبعداً في الوقت الحالي، والنتيجة هي أن الشعب عموماً يفتقر للمعلومات الأساسية حول الفن. أو أنه لا يبدي اهتماماً جدياً بالموضوع. يقول ييدنغ، مدير صالة «الآن» إن هذا ما دفع بمؤسسي الصالة للالتزام بما هو موجود فعلاً ـ أي الولع بالطعام. فإذا

رغبت في قضاء أمسية خارج المنزل، في العربية السعودية، فإنك تذهب لتناول العشاء. تضم صالة «الآن» مقهى ومطعماً ومكاناً مخصصاً للعرض. يعلق ييدنغ بالقول: «كُلْ وتمتع بالفن». افتُتحت الصالة المذكورة في تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠١٢ بمعرض «القوة الناعمة»، وهو مخصص لأعمال فنانات. وبرأي ييدنغ أن هذا المعرض كان يمثل «تحدياً كبيراً» إذا انطلقنا من واقع العربية السعودية. استوقف الزائرين، على نحو خاص، فيلم يصور حطام سيارة مأخوذاً من مقبرة السيارات ومدهوناً باللون الوردي. كانت الرسالة الخفية الكامنة وراء هذا الفيلم هي منع النساء من قيادة السيارة. وكان هناك معروض آخر يحمل عنوان «إسمي»، وهو عبارة عن تركيبة من الخرز حفرت عليها النساء أسماءهن. وكل من ينظر مرتين إلى هذا العمل سيرى فيه هجوماً على التقاليد التي تطالب النساءَ بالتصرف وكأنهن أشباح سوداء مجهولة الهوية. خُصصت صالة «الآن» للفن المعاصر الذي يحرض الناس على التفكير بالأوضاع الحالية. ولا تهدف الصالة للإساءة إلى مشاعر أحد:

«نحن نريد أن نعالج شؤون الحياة اليومية برفق لكي يبدأ الناس في التساؤل عن السبب الذي يجعل أمراً ما على ما هو عليه. هذا هو سبب وجودنا. ونأمل أن يأتي الزوار ويجلسوا إلى الطاولة ويتفحصوا كتب الفن التي وفرناها لهم. هناك أيضاً ورش ـ والقصد من وراء كل ذلك هو التعويض عن غياب تدريس الفن».

بعد مرور ستة أشهر على افتتاح صالة «الآن»، اجتذبت ألف زائر. يعرف هؤلاء بوجود الصالة عبر أحاديث المحيطين بهم ـ فالناس متحمسون للصالة ويخبرون آخرين عنها ـ ومن وسائل التواصل الاجتماعي. أحياناً قد يُفتح متجر صغير بشكل مفاجئ مكانَ المقهى الكائن في واجهة المبنى، تُعرَض فيه مواد تصميم رائجة، وذلك بأمل أن يتابع الزبائن الشباب مسيرهم من المتجر إلى المكان المخصص للعرض.

أولاً: توسيع المجال

ينبغي تقديم كل أعمال مجموعة فناني صالة «الآن»، المعروضة ـ أو التي ستعرض ـ في الصالة لكي تُراقَب من قِبَل وزارة الثقافة والإعلام. مع ذلك، تعرض الصالة لوحات تمثل أشخاصاً رغم تحريم الفن التصويري. لكن هذا مجال فائق الحساسية. «لا يمكن عرض لوحات تُظهر منظراً أمامياً كاملاً، وبخاصة إذا كانت تصور امرأة. لكن الفنانين يستفيدون مما هو متاح، وذلك عن طريق استخدام زاوية معينة من الضوء أو بإضافة غشاوة تستر معالم الوجه. نحن لا نخالف القواعد، لكننا نحاول توسيع المجال». وغالباً ما نسمع الشبان يرددون هذا الكلام ـ من أنهم لا يريدون الإساءة إلى مشاعر أحد أو استثارة مواجهة مع أحد، بل يريدون توجيه الناس كي يحلموا بالتطور. تقول هيفاء المنصور: «أعتقد أحياناً أن المرء إذا استفز مشاعر الناس، أو بالغ بالضغط عليهم، فلن تصل إليهم رسالته».

هيفاء منصور هي حالة فريدة، صانعة أفلام شابة في بلد تلعب النساء فيه دوراً ثانوياً، حيث لا توجد دور للسينما (رغم وجود مخططات جدّية لبناء دور سينما عام ٢٠١٥). نجحت هيفاء

في تنفيذ فيلم طويل في العربية السعودية حاز جوائز في مهرجان للأفلام خارج المملكة وقدمته السلطات السعودية للترشيح لجائزة الأوسكار، رغم عدم حصوله على الجائزة. تدور أحداث الفيلم، واسمه «وجدة»، حول فتاة ركّزت كل آمالها في الحصول على دراجة. لم تفقد الفتاة الأمل رغم أن الجميع من حولها كان يقول لها إن الفتيات لا يركبن الدراجة.

تقول هيفاء منصور: «نحن نعيش زمناً مثيراً في العربية السعودية. أعتقد أن الأمور ماضية نحو الانفتاح. ولكن علينا أن نكون واقعيين؛ فالتغيير لا يحصل بين عشية وضحاها. إذا ذهبت إلى مراكز التسوق الكبيرة الباهرة الأضواء، في الرياض وفي المدن الكبرى الأخرى، فسوف يتكون لديك انطباع خاطئ. إذ إن ذلك المظهر السطحي يخفي وراءه عمق النزعة المحافِظة التي تنطوي عليها نفوس الناس. هناك عدد كبير من المحافظين الذين يعتقدون أنه يجب عدم السماح للمرأة بصنع الأفلام، لأن في ذلك تهديداً للقيم الإسلامية كما يرونها هم. كما ويعتقدون أن المرأة لا ينبغي لها أن تثبت ذاتها على هذا النحو في الحياة العامة. عندما كتبت نص الفيلم، حاولت قدر المستطاع التزام جانب الحذر لدى معالجة الموضوعات الحساسة. كنت أريد أن أمنح الناس فيلماً يمدّهم بالأمل».

تتصرف السلطات السعودية مع دور السينما والأفلام بالطريقة نفسها التي تفتقر إلى المنطق، أو يمكن القول بالطريقة البراغماتية، التي تتصرف بها مع الفن وصالات عرض الأعمال الفنية. في منتصف شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٤، ذكرت صحيفة أراب نيوز أن الهيئات الحكومية المعنية، بمن فيها المطاوعة، وافقت على إنشاء دور سينما[(١)]. ولكن لم تُنشأ أي دار للسينما بعد منذ ذلك الوقت. وما زالت دور السينما ممنوعة حتى الآن لأنه، وحتى في حال تطبيق مبدأ الفصل بين الجنسين، فإن صالة مظلمة دافئة، كدار السينما، لا بد من أن تؤدي إلى الانحلال الأخلاقي وإلى آثام أخرى مرعبة. ويرتاد كثير من السعوديين دور السينما في البحرين المجاورة. لكن الأفلام تجد من يشاهدها ـ فرغم كل شيء، يصعب حظر القنوات التلفزيونية الفضائية وأفلام الفيديو والأقراص المدمجة. في إيران المجاورة للعربية السعودية، حاولت السلطات ولسنوات، الحيلولة دون وصول تلك الأمور، ولكن ما زالت الأفلام الحديثة متوافرة وقد يجري من حين لآخر نزع أطباق استقبال البث الفضائي من باب التذكير بأنها ممنوعة. وقد عُرض فيلم هيفاء منصور في التلفزيون السعودي.

• بوصفكِ امرأةً تعيش في بلد لا وجود فيه لدور السينما، كيف خَطرَتْ لك فكرة صنع فيلم؟

ـ إنه حب الأفلام. أنا لا أحاول نشر بيان سياسي أو ادعاء البطولة. نشأت في مدينة صغيرة في أسرة تضم اثني عشر طفلاً؛ ترتيبي بين الأطفال هو الثامن. لم يكن هناك الكثير مما يشغل الوقت، بالتالي، شاهدنا عدداً لا يحصى من الأفلام داخل المنزل. كان عالمنا محدوداً ووفّرت لي الأفلام الفرصة لرؤية العالم الكبير. كانت تلك أسعد أوقات طفولتي.

(١) «Cinema Green-lighted,» *Arab News*, 10/11/2014, <http://www.arabnews.com/featured/news/657726> (Last accessed 2 December 2014).

• تشعر هيفاء منصور أن خدماتها لم تلقَ التقدير من شركة النفط التي تعمل فيها:

ـ هناك عدد كبير من الشابات اللواتي لا يؤخذن على محمل الجد. كنت أرغب بالقيام بشيء يشعرني بالسعادة؛ وهكذا أنتجت فيلماً قصيراً لإرضاء نفسي لا أكثر. عرضت الفيلم في مهرجان أفلام في أبو ظبي، شعر الموجودون هناك بالذهول! يا إلهي، صانعة أفلام سعودية، وفوق ذلك امرأة! أنا فخورة بهذا الوصف. آمل أن أُلهم عدداً كبيراً من الشابات ليصنعن أفلاماً.

ثانياً: الدعم من العائلة

تستطيع المرأة في العربية السعودية العمل في مهنة، كالفن مثلاً، أو في مجال الأعمال وفي العديد من المجالات الأخرى. لكن الشرط الذي لا مهادنة فيه هو حصولها على دعم عائلتها، وخصوصاً أفراد العائلة الذكور ـ الأب أو الأخ أو الزوج. ولم يحصل حتى الآن أي تغيير بهذا الشأن. لكن التغيير الذي حصل هو تنامي عدد العائلات التي تدعم بناتها في حال رغبتهن في العمل بمهنة ما.

ـ كان والدي يقول دائماً: بإمكانك النجاح في أي شيء إذا كنت فعلاً ترغبين به. الشرط الوحيد هو العمل بدأب. لقد نشأت في كنف عائلة عادية، لم تكن عائلة ثرية أو عائلة تستطيع تعليم أولادها خارج البلاد. كان والداي يقدّران التعليم حق قدره. ولكن من المهم الحصول على دعم الرجل الذي يتحكم بحياتك، أي الوصي.

وفوق كل ذلك، طبعاً، الأسهل على المرأة العمل بمهنة التدريس أو في القطاع الصحي من العمل في مجال الفن. فالفن ما زال مسألة حساسة بالنسبة إلى قطاع محافظ يشمل عدداً كبيراً من الناس العاديين ومن رجال الدين. وتعتبر صناعة الأفلام تحدياً. وإذا كنت ستصور في موقع ما، يتعين عليك احترام مشاعر الناس الذين يعيشون هناك:

ـ على سبيل المثال، إذا لم أكن أرغب في خلق مواجهة، فإنه لم يكن بوسعي تصوير مشاهد خارجية في الشارع. فالناس لا يتوقعون رؤية امرأة تقف في منتصف الشارع تصدر الأوامر للرجال وتعمل معهم. احترمت مشاعرهم وكنت أتابع الممثلين عبر شاشة موجودة داخل مبنى وأستخدم جهازاً لاسلكياً محمولاً لتوجيههم. أنا أعمل ضمن حدود النظام، سواء أكان ذلك مطلباً صريحاً أم لم يكن.

في نهاية المطاف، جعل ذلك مني مخرجة أفضل. ففي كل عقبة يكمن جانب إيجابي خفي. الوضع في الشرق الأوسط وفي العربية السعودية في غاية الصعوبة، ولكن إذا كان كل ما تفعله هو التذمر مما لا يمكن القيام به، فلن تفلح في إنجاز شيء. الأفضل أن تعثر على ما يمكن تحقيقه. هناك الكثير من التغيير الحاصل. فقبل خمس سنوات، كان من المستحيل إخراج فيلم في العربية السعودية.

هناك الكثير من الأمور الممكنة في جدة أكثر من الرياض. فقد جرى في جدة قبل بضع سنوات تنظيم مهرجان متواضع للأفلام. ولكن، في جدة أيضاً، من بين كل الأماكن، مُنع المهرجان فجأة. هل يعني ذلك أن بالإمكان إلغاء كل التغيير الحاصل بلمح البصر؟

تقول هيفاء المنصور إن هناك الكثير من السعوديين الذين يتوجسون من هذا التغيير. وبرأيها أنهم مخطئون. فهي لا تعتقد ذلك:

ـ هناك حالياً موجة فنية ناشطة، كما أن هناك العديد من الكتّاب، وقد صورت فيلمي في العربية السعودية. وهذا مؤشر أفضل من الحادث الذي وقع في جدة. لا تنسَ أن الأطفال حالياً يستخدمون شبكة الإنترنت، وهم يسافرون إلى الخارج، وما أدراك أنهم لا يرغبون في الاستفادة أكثر من الحياة، بدل العودة إلى البيئة المغلقة التي لا يمكن لك فيها إنجاز شيء. العديد من التغييرات التي لا تُمكن رؤيتها من الخارج، لكن هناك الكثير مما يسري تحت السطح.

ثالثاً: دليل الفن السعودي

ما من شك في أن أموراً عديدة تغيرت، ولكن حتى في جدة المتحررة يُضطر الفنانون إلى توخي الحذر في ما يفعلونه. ولنأخذ هنا مثال المصممة التصويرية ثريا درويش، إحدى الشخصيات الناشطة في إعداد دليل الفن السعودي[٢]. «باختصار، العمل المذكور هو دليل ينشر عبر الإنترنت ويضم الأنشطة الثقافية وصالات العرض في العربية السعودية. كنت دائماً تسمع بالصدفة عن حدث ما؛ كان الناس يعتقدون أن لا وجود لمشهد فني هنا، كانت الفكرة هي القيام بشيء ما بهذا الشأن».

إذا سألت ثريا درويش عن حساسيات المجتمع والرقابة وكيفية تفادي الفنانين لتلك الحساسيات، فإنها تحيلك على مقالها المنشور في مدوّنة Hyperallergic، الذي يحمل عنوان: «What Is and Isn't Art in Saudi Arabia?»[٣]. وتقول ثريا إن «ذلك المقال كفيل بالإجابة عن سؤالك. هنا في جدة يجب أن أتحلى بالديبلوماسية». بالنسبة إلى القراء الغربيين، تبدو ثريا، حتى في المقال، شديدة الحذر من إخبارهم بما هو جديد.

يناقش المقال، من ضمن موضوعات أخرى، مسألة تدريس الفن، أو بالأحرى عدم تدريسه. فالرقابة تُعتبر بمثابة عائق يقف في وجه كل من ينادي بإضافة مادة الفن إلى المنهاج المدرسي كما ينبغي:

«قدم والدا أحد التلاميذ في مدرسة خاصة معروفة شكوى ضد مدرّس يسمح للتلاميذ برؤية صور عري. هناك عدد كبير من الأعمال في تاريخ الفن تصور العري؛ مع ذلك، ترفض المدارس والجامعات إضافتها إلى مناهجها. آن الأوان لكي نبدأ بالتصرف».

وهذا ما يفعله الناس حالياً وليس فقط عبر الكتب الفنية الموضوعة على طاولة صالة «الآن». لنأخذ مثلاً مؤسسة «آمين» الفنية التي يديرها الفنان التشكيلي عبد الناصر غارم. غارم هو أحد أكثر الفنانين السعوديين المعاصرين شهرة، إن لم نقل أشهرهم. مؤسسة «آمين» الفنية هي آخر مشاريعه؛

(٢) <http://www.saudiartguide.com> (Last accessed 6 February 2015).

(٣) Soraya Darwish, «What Is and Isn't Art in Saudi Arabia?,» Hyperallergic.com, 16 August 2012, <http://hyperallergic.com/55608/what-is-and-isnt-art-in-saudi-arabia> (Last accessed 26 July 2013).

وهي تطمح إلى إيجاد أفضل بيئة للفنانين في الرياض، التي تُعتبر إحدى أكثر المدن محافظة في العربية السعودية والتي توصف بأنها مدينة صارمة لا تلين. يقول غارم: «أنت لا تستطيع شراء آلة تصوير غالية الثمن هنا، ولا تعثر على استوديو أو حتى على كتاب يتناول الفن». مؤسسة آمين الفنية سوف تحقق كل هذه الأمور؛ سوف تكون مكتبة واستوديواً وغرفة تظهير أفلام، وسوف يكون عبد الناصر غارم موجوداً في المكان لمساعدة الفنانين.

غارم رسام توصّل عام ٢٠٠٣ إلى نتيجة مفادها أن لديه المزيد من الأفكار ليضمّنها في لوحاته وأن بإمكانه الوصول إلى جمهور أوسع إذا اختلط بالناس في الشارع. وهذا ما فعله مع مجموعة من الأشخاص، حيث قاموا بتخطيط كلمة «صراط» على سطح جسر متداعٍ قرب مسقط رأسه. يقول غارم، في مقابلة أُجريت معه في الرياض: «بالنسبة إلى المسلم، كلمة «صِراط» مشحونة بالمعاني. فهو يرددها مئة مرة في اليوم خلال صلاته. وكون المرء مسلماً يعني التزامه الصراط المستقيم».

تحوَّل «الصراط» إلى عمل تأسست عليه شهرته، واشترت العديد من المتاحف العالمية أفلام فيديو حول هذا العمل. ومع أن ما قام به غارم هو أداء، فإنه كان أيضاً يمثل مساراً جديداً. وهو يعني حرفياً بداية مرحلة جديدة من الفن المعاصر في العربية السعودية:

«الناس هنا يبحثون أيضاً عن مسار جديد، كنت أحاول العثور على قضية مشتركة تجمع بيننا للتفكير في خواطرنا أو لتحديد إلى أين ينبغي أن نتوجه بأنظارنا. جرى هدم نهاية الجسر. كانت نهاية، لكنها نهاية مفتوحة أمام شتى الاحتمالات».

رابعاً: التفكير بصورة مستقلة

يُعتبر غارم أيضاً مثالاً صالحاً على الإنسان السعودي البارز الذي يطمح لتحقيق التغيير دون استفزاز السلطات المدنية أو رجال الدين. يقول: «لا أرغب بإثارة أي صراع. أريد العثور على زاوية جديدة لمقاربة عملية تفحُّص أي شيء وتقديمه إلى الناس». هدفه هو دفع الناس للتفكير بصورة مستقلة.

تقول إحدى السيدات السعوديات المثقفات ـ لم ترغب في كشف هويتها ـ: «هم يحاولون اغتيال الفن». لكن السيدة عندما قالت «هم» لم تكن تشير فقط إلى رجال الدين الذين يبالغون في التشدد. فالملك عبد الله أوجد مجالاً بسيطاً للحركة، ولكن غالباً ما يكون موظفو الحكومة أو الأشخاص المسؤولون عن تنفيذ السياسات هم من يعرقلون التنفيذ خشية معارضة الجماعات المحافظة. ويعتقد غارم أن الناس أيضاً هم أنفسهم من يعترضون سبيل التغيير.

ويضيف غارم أن النظام التعليمي ينشر الجهل. وإذا زرت مكتبة فسوف تفهم ما يعنيه. «هناك فقط كتب إسلامية؛ لا يمكن أن تعثر على أي كتاب يتناول الفن أو الموسيقى. وعندما تطرح

سؤالاً، فكل ما تحصل عليه هو مَثَلٌ يعود إلى ألف سنة مضت. وفي هذا العصر الذي نعيش فيه، لا يسمحون لك بأن تفكر بصورة مستقلة».

من بين أشهر أعمال غارم الحواجز وإشارات المرور:

«أنا أضعها أمام الناس، بحيث لا يدرون ماذا يُفترض بهم أن يفعلوا. المجتمع هو الذي يوجد تلك «الحواجز»؛ وبالتالي هو عاجز عن الحركة. الحواجز التي أصنعها أنا تغطيها أختام تحمل عبارة «لا تثقوا بالإسمنت». نحن نقيم حاجزاً أمام أنفسنا عندما نتبنى فكرة سخيفة من وجهة نظر معينة، دون أن نقوم بتحليلها. هذا ما أرفضه. هذه هي رسالتي».

يُعتبر غارم أحد أهم رواد الفن التشكيلي في العربية السعودية. لكن الأمر المحيِّر هو أنه جندي أيضاً. فهو مقدم في الجيش ـ «خلال ستة أشهر سوف أترقى إلى رتبة عميد».

• كيف يمكن أن تكون جندياً صالحاً وفناناً ناجحاً في الوقت نفسه ـ فمفهوم الانصياع للأوامر يتعارض ومفهوم الحرية الروحية والفكرية؟

ـ نشأتُ في مدينة صغيرة جنوبي البلاد. في تلك الأيام، أي قبل عشرين سنة أو أكثر، كانت مهنة الضابط تعني الكثير. لم يكن أحد ليهتم بموهبتي الخاصة. كانت عائلتي تعتقد أنني مصيبة ـ فالفن حرام؛ ماذا ستفعل؟ شعرت بالإحباط في رسالتي كفنان. لكن الجندية علمتني الصبر من أجل تحقيق رسالتي.

لكن الجيش، بدوره، لا يرغب بالتخلي عنه:

ـ أتمتع بالمهارة في مجال التقنيات، وبذلك أستطيع تطوير كل ما يرغبون به. الجيش متمسّك بي حالياً؛ بل إن المسؤولين في الجيش جعلوا لي مخصصات لقاء عملي في الفن ومنحوني إجازة لمدة ثلاث سنوات. تلك هي قوة الفن. يدرك المسؤولون في الجيش مدى فائدتي للبلد.

وظيفة الفنان، برأي غارم، هي إيجاد الصلة بين النتيجة والدافع:

ـ هي مواجهة المجتمع بسؤال ـ لماذا يكون هذا الشيء على ما هو عليه؟ ماذا يخفي الناس، ما هي دوافعنا الأساسية؟ وهي إيجاد لغة مشتركة يفهمها الجميع بحيث يتمكنون من مجاراة الغير. على الفن أن يكون منصة يستطيع الكل مقاربتها، حيث يمكن لهم التفكير بأنفسهم وبعاداتهم وبمعايير التقييم المرجعية لديهم. هل ثمة ما يُثقِل عليهم؟ هل تجري الأمور على ما يرام؟ أنا أستمتع بتشجيع هذا النوع من عصف الأفكار. لكن الناس أنفسهم ـ وليس الفنان ـ هم من ينبغي عليهم إحداث التغييرات، هذه ليست مهمته.

في مزاد أجرته دار كريستيز (Christie's) في دبي عام ٢٠١١، اشترى أحد جامعي اللوحات لوحة غارم «رسول/رسالة» بمبلغ ثمانمئة ألف دولار، وهو مبلغ مذهل بالنسبة إلى فنان سعودي. أودع غارم كل المبلغ في مؤسسة آمين الفنية.

• ولماذا «آمين»؟

ـ أنت تجد كلمة «آمين» في كل الأديان؛ هي كلمة تحمل في طياتها السلام، يمكن بواسطتها تسوية جدل عنيف. كنت أعاني في طفولتي لأنني لم أكن أجد أية كتب، ولم أكن أستطيع لقاء أي فنان يسدي لي النصح. أما الآن فأنا أتمتع بالمعرفة وبالمصداقية الكافيتين لمساعدة الآخرين. لقد تعلمت في الجيش أن المرء يكون مسؤولاً عن جماعته، وأن لديه مهمة وعليه أن يؤديها بنجاح. سأفقد عقلي في الرياض، لكن ذلك لن يوقفني.

• ولكن، هل يهتم جيل الشباب فعلاً بالفن؟

ـ أنا أعمل في موقع يوتيوب مع شباب. وكل فيلم يحققونه يحصل على خمسة ملايين مشاهدة. وهي أفلام كوميدية من النوع الذي يعتمد على إلقاء النكات. يجلس ستة شبان في غرفة مكتب صغيرة ويصل إنتاجهم إلى مئتي مليون مشاهِد في العام. وهم يعرضون أفلامهم على موقع يوتيوب لأن القنوات الرسمية لا يمكن أن تقبل بعرض تلك الأفلام. لكنهم يتواصلون مع جمهور أكثر عدداً مما لو عرضوا إنتاجهم على مسرح.

أستطيع رؤية التغيير الذي بدأ. لا يدري أحد ماذا يحصل بالضبط، لكن هناك حراك من نوع ما. لقد اتخذ الملك مبادرة استثنائية لدى تخصيصه بعثات دراسية للشباب لتلقّي العلم في الخارج. لدينا حالياً ما يقارب ٢٠٠٠٠٠ شاب سعودي يدرسون في دول مختلفة. بعد ثلاث سنوات سيعودون وقد تغيروا كثيراً. وهذا أيضاً ما يدفعني للعمل في مؤسستي، لكي يجد هؤلاء، عندما يعودون إلى الوطن، منصة ويتمكنوا بذلك من الاستمرار في القيام بما كانوا يقومون به. التصوير، صنع الأفلام القصيرة، وكل الأمور الأخرى.

لكن المعركة لم تنته بعد، فهؤلاء الرواد، غارم وهيفاء المنصور وغيرهم من الفنانين، يواجهون أيضاً معارضة واسعة. تقول هيفاء المنصور دون اكتراث: «بالطبع أنا أواجه ردود فعل عدائية». وهي تقصد رسائل كراهية. «ولكن لا بأس بذلك، أنا لا أعتبر ذلك موجَّهاً لي شخصياً. فأي شخص يتعرض لذلك أحياناً. نحن لسنا في حرب».

غارم أيضاً لا يأبه بذلك:

«هناك مثل يقول «إذا لم يكرهك أحد، فلا بد من أنك ترتكب خطأ ما». في نهاية المطاف، يتعلق الأمر بالرسالة التي أؤديها، ولا يهمني ما يحصل. أعرف ما يتوجب علي عمله؛ وسوف أوسّع المنظمة التي أعمل بها بعد إنجاز كل تلك المشاريع الكبيرة. أود أن أشكّل مثالاً صالحاً للفنانين ولصالات العرض بهدف تشجيع الآخرين. يقول عبد الناصر مؤكِّداً: «نعم، نحن قادرون! أنا لست كغيري ممن لا يكفّون عن التذمر. أنا لا أكتفي بالقول إنني سأنشىء مؤسسة، أنا أنشىء المؤسسة فوراً ودونما تردد. سأذهب إلى برلين وإلى البندقية لأجمع أفكار الناس في كل مكان، ولأكتشف ما هو المنهج الأفضل. الناس بحاجة إلى مثل أعلى».

الفصل التاسع

«... الشيعة»! الثورة المنسية لأقلية مهمَّشة

هل الشيعة مسلمون حقاً؟ بالنسبة إلى بعض السعوديين هم ليسوا مسلمين. فهؤلاء يعتقدون، مثلاً، أن الشيعة يبصقون في طعامهم، ولذلك يصعب، مثلاً، على السنّة والشيعة تناول الطعام سوياً. أو يعتقدون أن مصافحة شخص شيعي تنجّس وبالتالي توجب الوضوء. وغالباً ما يُنعَت الشيعة بأنهم «روافض» يشعرون بالولاء لإيران لا للعربية السعودية. هذه الفكرة ليست حكراً على الأشخاص المتمسكين بحَرفية الدين، بل هي فكرة منتشرة في أوساط الشعب السعودي؛ وحتى المتعلمين والمتحررين منهم. الشيعة بدورهم يشعرون أنهم يتعرضون للتمييز ويفعلون ما بوسعهم لوضع حد لهذه المعاملة، بما في ذلك تنظيم التظاهرات الضخمة. ماهي جذور هذا الاحتجاج وما هي الأشكال التي تجلى بها منذ بداية الربيع العربي؟ وقد يكون السؤال الأهم هنا هو ما إذا كان الشيعة في موقع يتيح لهم تقديم عروض فعّالة في مواجهة المعارضة السنية.

أولاً: مواطنون من الدرجة الثانية

تعود جذور التمييز ضد الأقلية الشيعية، التي يشكل أتباعها ما بين ١٠ و١٥ بالمئة من الشعب، يعيش غالبيتهم في المنطقة الشرقية التي تحوي الموارد النفطية الوفيرة، إلى عهد ابن سعود[1]. في عام ١٩١٣، استولى ابن سعود على واحتَي الإحساء والقطيف حيث غالبية السكان من الشيعة، وعومل الشيعة وكأنهم مواطنون من الدرجة الثانية منذ أن ضُمَّت مناطقهم رسمياً إلى المملكة العربية السعودية (١٩٣٢). لا يتمتع الشيعة بحق تقرير أي شيء في المجالس المحلية أو المناطقية، كما

(١) رغم أن هناك تمييزاً ضد طائفتَي الإسماعيليين (أو «السبعية») والزيديين الشيعيتين، فإن هذا الفصل سيتناول فقط الشيعة الإثني عشرية.

أنهم لا يشغلون أية مراكز عليا في وزارات حساسة مثل وزارة الداخلية أو وزارة الدفاع أو في الحرس الوطني. كما أنهم مستثنون من المناصب في البلاط الملكي أو في مجلس الوزراء.

وحتى لو اتخذت الحكومة إجراءات لحذف البلاغيات المناوئة للشيعة من الكتب المدرسية، فإن المدرسين غالباً ما يصورون الشيعة بأنهم «كفار». في الوقت الحالي، يمكن أن يكون مدير مدرسة للصبيان في المنطقة الشرقية من الشيعة، لكن الوضع يختلف في مدارس الفتيات. أما مادة الدين فيدرّسها معلمون سنة في كل المدارس. ولا يوجد مكان يلجأ إليه الأهل أو التلاميذ إذا أرادوا الشكوى من أمور كهذه. يقول حمزة، وهو تلميذ شيعي في المرحلة الثانوية تبدو عليه الثقة بالنفس، إن من المستحيل تقريباً تقديم شكاوى من هذا النوع إلى المحاكم: «إلى من أتوجه بالشكوى؟ إلى قاض هو شيخ وهابي في الوقت نفسه»؟

يبدو حسين العلق، وهو ناشط في مجال حقوق الإنسان في بداية الثلاثينيات من عمره، أنموذجاً لمشاعر السخط التي يشعر بها كثيرون. يقول العلق: «لا أعتقد أن هناك حلاً ما لم تحصل تغييرات فعالة». وقد سبق له أن زار الولايات المتحدة وعلّق قائلاً: «هناك تشابه كبير بين وضع الأميركيين من أصل أفريقي قبل حركة الحقوق المدنية، والشيعة السعوديين حالياً. عندما كنت أتحدث مع أميركيين سود حول هذه الفكرة، كنت أشعر وكأنني أتحدث مع أشخاص شيعيين». ولا يقل توفيق السيف، وهو مفكر شيعي بارز، صراحة «بعض المطالب لا يمكن تأجيلها. أنا أعرف بالطبع أن السنّة لا يعامَلون جميعاً بصورة متساوية، لكننا نتعرض للإذلال بصورة ممنهجة»!

ما من شك في أن مستوى المعيشة لدى الشيعة قد تحسَّن بمرور الوقت، لكن الشعور بالتمييز السلبي والغبن ظل على حاله. وخير مثال على ذلك العوامية، في المنطقة الشرقية. وهي بلدة صغيرة فقيرة، رغم مرور أنبوب نفط ضخم بجوارها لا يستفيد منه السكان بشيء. فنسبة البطالة بين أهل المدينة مرعبة، وتغطي جدران المدينة شعارات من نوع «الموت للوهابيين»، و«فلتسقط الحكومة»، و«لن ننسى سجناءنا». وخلال اجتماع لشباب شيعيين في مدينة صفوى المجاورة، علق أحدهم بالقول «هذا الوضع يُشعرنا بالثمالة، لسنا بحاجة إلى الكحول أو إلى المخدرات»؟

يتفاقم الشعور بالإقصاء السياسي والاجتماعي بسبب التمييز الديني. فالمذهب الوهابي السني المتشدد يقرر كل شيء، دون أن يُحسَب أي حساب للشيعة. كما أنه لا وجود لتمثيل شيعي في أعلى هيئة دينية، وهي هيئة كبار العلماء. عند المستوى المحلي، يتجلى التمييز لدى ملاحظة عدم وجود أية مساجد خاصة بالطائفة الشيعية، أو أية مرافق دينية أخرى مثل الحسينيات، وهي منشآت عامة تجري بها شعائر الشيعة. عمّرت الحكومة مسجداً سنياً ضخماً في الساحة الرئيسية وسط القطيف، رغم أن من شبه المستحيل بالنسبة إلى الشيعة الحصول على إذن ببناء مسجد في المدن أو القرى التي لا يشكلون فيها أغلبية. كما ويُحظر على الشيعة تنظيم مواكبهم التقليدية في يومهم المقدس (عاشوراء)، عدا في القطيف؛ ففي هذا اليوم يحيي الشيعة ذكرى استشهاد الإمام الحسين في معركة كربلاء، عام ٦٨٠م.

ثانياً: إصلاحات شكلية

ثمة فكرة سائدة في صفوف السعوديين السنّة مفادها أن من المستحيل على الشيعة، من حيث المبدأ، أن يشعروا بالولاء للدولة. الشيعة يهتمون قبل كل شيء بمؤسسة «مرجع التقليد»: إذ يتحتم على كل شيعي اختيار زعيم ديني عالي المنزلة وإطاعة توجيهاته في المجالات الروحية والقانونية، بل وأحياناً السياسية. ورغم أن الغالبية العظمى من الشيعة في المنطقة الشرقية لا يعتبرون الزعيم الديني الأعلى في إيران، آية الله خامنئي، مرجعهم، فإن معظم السعوديين يفترضون العكس. لا يكف زعماء الشيعة عن ترداد أن ولاءهم للعربية السعودية لم يكن مطلقاً موضع شك. ويقول توفيق سيف: «لا يوجد أدنى دليل على ولاء الشيعة السعوديين لأي كان عدا الدولة السعودية، وهذا هو الوضع منذ تأسيس المملكة». ويُعتبر هذا الموضوع موضوعاً حساساً ومادة لنقاشات عديدة مستفيضة.

لكن افتراضات السنّة ليست تماماً دون أساس. ففي عام ١٩٧٩، كانت الثورة الإسلامية الإيرانية، في البداية، مصدر إلهام كبير للشيعة السعوديين. وفي نفس العام، أسس الزعيم الروحي حسن الصفار مع آخرين «منظمة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية». نظم عشرات ألوف الأشخاص تظاهرات منتظمة في شوارع القطيف في نهاية عام ١٩٧٩ ومطلع عام ١٩٨٠ ـ وكانت تلك الاحتجاجات تنتهي عادة بمناوشات مع الحرس الوطني تكون نتيجتها عشرات الوفيات.

أُرسِل زعماء منظمة الثورة الإسلامية إلى المنافي، لكنهم عادوا عام ١٩٩٣ بعد التوصل إلى اتفاق مع الحكومة. فقد وافقوا على وقف بث الدعاية المضادة للسعوديين مقابل العفو العام عنهم. بعد إيقاف الأنشطة لفترة وجيزة، عاود الشيعة ممارسة أنشطتهم، بقيادة الصفار، من خلال حركة معروفة باسم «الإصلاحيين». أبعدوا أنفسهم بحزم أكثر من ذي قبل عن العنف وعن إيران والنموذج الإيراني الذي تتشابك فيه السياسة والدين بحيث يحظى الزعيم الروحي الأعلى بأرفع منصب سياسي.

اختار معظم مؤيدي حركة «الإصلاحيين» آية الله العظمى علي السيستاني ليكون «المقتدى» الخاص بهم. ورغم أن السيستاني من مواليد إيران، فإنه يُعتبر، منذ سنوات، أهم زعيم شيعي في العراق. والأهم من ذلك أن السيستاني هو مرجعهم المفضل لأنه يجاهر دائماً بدعوته للفصل بين الدين والسياسة. بل إن بعض مؤيديه وصفوه بأنه «مرجع علماني». كانت كلمات الزعيم الروحي الصفار، أثناء لقاء أجري في مكتبه، منتقاة بعناية: «نحن لا نتحدث عن دولة دينية أو عن منظومة علمانية من حيث التعريف، ما نريده هو «دولة مدنية»، تمنح حقوقاً متساوية للجميع».

بعد فترة الهدوء النسبي، عاد التوتر بين الشيعة والسنّة ليطفو على السطح ثانية في عام ٢٠٠٣. كانت حرب العراق، التي تمخضت عن حكومة يهيمن عليها الشيعة، في بغداد، هي أهم محرض للتوتر. فقد اعتبرت الحكومة السعودية ذلك بمنزلة «استيلاء إيراني» على العراق وشكّل ذلك ذريعة لعودة انتشار المشاعر الطائفية ثانية في المملكة. بذل ولي العهد جهده لتهدئة الخواطر، بأن طرح، مثلاً، فكرة حوار وطني يدعى إليه الشيعة، وتنظيم انتخابات الحكومات المحلية، لكن جهوده لم تتعد حد عروض حسن النية. لم يخْف الرئيس السابق للمجلس البلدي في القطيف، الناشط جعفر

الشايب، خيبة أمله: «لا يتعدى الأمر حد اللغو الفارغ. لا توجد أدوات لتحويل التوصيات إلى مشاريع عملية». تبيَّن أن «الإصلاحات» التي أُشبعت نقاشاً كانت مجرد إصلاحات شكلية، حتى بعد اعتلاء عبد الله العرش، عام ٢٠٠٥. كانت بارقة الأمل الوحيدة هي مشروع عبد الله الرامي إلى تخصيص بعثات دراسية إلى خارج البلاد يمكن للشيعة الاستفادة منها، دون تمييز.

حصل المزيد من الاضطرابات في السنوات التي تلت. في شهر شباط/فبراير من عام ٢٠٠٩، اندلعت في المدينة المنورة حركة شغب كبيرة عندما حاول الشيعة زيارة قبور أئمتهم. دافع الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود، وزير الداخلية المعروف بنزعته المحافظة المتشددة، الذي يشغل هذا المنصب منذ عام ١٩٧٥، عن السلوك الهمجي للمطاوعة في بيان قال فيه إن العربية السعودية «تتبع العقيدة الإسلامية السنية [ورغم أن بعض المواطنين] يتبعون مدارس أخرى في الإسلام، فإنه يجدر بهم احترام هذه العقيدة»(٢). جاءت ردة الفعل بشكل تظاهرات اندلعت في المنطقة الشرقية، وهي أكبر تظاهرات شهدتها المنطقة منذ أحداث الفترة بين عامي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠، التي قُمعت بعنف غير مبرَّر.

زادت سلسلةُ المواجهات العنيفة من حدة الانقسامات داخل الجماعة الشيعية بشأن سرعة الإصلاحات وطبيعتها. اتسعت الهوة بين الإصلاحيين (أو «الوجهاء»)، الذين كانوا لا يزالون يأملون في الحصول على تنازلات عن طريق الحوار مع الحكومة، ومجموعة راديكالية أخرى كانت تستقي الإلهام من حمزة الحسن الذي يعيش في منفاه في لندن، لكن الشيخ نمر النمر، الذي لا يتوقف عن المجاهرة برأيه، كان أكثر تأثيراً. ومع أن تأثير هذا الأخير كان في البداية محصوراً في مدينته العوامية، انتشر هذا التأثير فيما بعد إلى مناطق أبعد. في شهر آذار/مارس من عام ٢٠٠٩، عاود استنكار سياسات وزير الداخلية التمييزية، وخلص إلى نتيجة، كانت مفاجِئة بقدر ما كانت راديكالية، مفادها أنه في حال استمرار التمييز، فإن الخيار الوحيد المتبقي هو الانفصال. أثار تصريحُه قلقاً بالغاً لا في أوساط وجهاء الشيعة فحسب، بل أيضاً في الأوساط الحكومية. اعتُقل الشيخ وبعض أتباعه الشباب فوراً، وهو ما زاد شعبية النمر زيادة كبيرة. اتسعت رقعة الخلاف بين جيل الشباب والجيل الأكبر سناً بعد عام ٢٠٠٩، كما تبيَّن من الأحداث التي ألهمتها الثورات الحاصلة في تونس ومصر.

ثالثاً: سبب المشاكل

صدر أول رد فعل، بصورة أساسية، عن أفراد المجموعة الأكبر سناً من النشطاء الشيعة. فبعد أن بث سقوط بن علي ومبارك روح الشجاعة فيهم، أعدّوا «بيان الإصلاح الوطني» الذي حمل تواقيع طيف واسع من المواطنين السعوديين يمثلون معتقدات أيديولوجية وطائفية متنوعة. لكن هذه العريضة وغيرها من العرائض التي قُدِّمت في الوقت نفسه لم تفلح في الحصول على أية تنازلات من السلطات البلدية ولا من السلطات الوطنية. بالتالي، توصل النشطاء الشباب إلى نتيجة مفادها

(٢) Carlyle Murphy, «Shiite Bias Claims Laid Bare After Showdown,» *The National*, 26/4/2009.

أن زمن أشكال النشاط «الناعمة» للحرس القديم قد ولّى، وطالبوا بتنظيم التظاهرات. ورغم الاعتدال الذي اتسمت به الشعارات ـ «لا نريد تغيير النظام» و«لا سنّة ولا شيعة، بل وحدة إسلامية» ـ كانت كل تظاهرة تنتهي بعشرات الاعتقالات والإصابات. كان غضب المتظاهرين ينصب قبل الجميع، على حاكم المنطقة الشرقية، الأمير محمد بن فهد، الذي كان يتمتع بسمعة سيئة بسبب إجراءاته الوحشية ضد مناوئيه الشيعة.

في الوقت نفسه، عقد مؤتمر هام لمدة ثلاثة أيام في الرياض تحت شعار «حقيقة المعتقد الرافضي وخطره على المجتمعات السنية». وإذا لم يكن الشعار واضحاً بما فيه الكفاية، فإن الأسماء التي أطلقت على المناظرات لا تترك مجالاً لأي التباس: «جرائم الرافضة عبر التاريخ» و«المشروع الشيعي العالمي». تكونت لدى زعماء الشيعة القناعة بأن هذا المؤتمر الذي ضم أكاديميين ورجال دين وهابيين بارزين كان يحظى بمباركة الحكومة وبالتالي انطلقت استجابتهم من هذا الواقع. فقد قال صادق رمضان، مدير مركز عدالة لحقوق الإنسان، ومقره القطيف، «تعبئ الحكومة الرأي العام ضد الشيعة. وهذا يوجِد الأساس للتميز ضدنا. وهو أمر بالغ الخطورة». ازدادت دواعي النقمة فعلياً بعد إرسال قوات سعودية إلى البحرين في ١٤ آذار/مارس من عام ٢٠١١ لدعم العائلة المالكة البحرينية في جهودها الرامية إلى سحق الثورة الشيعية هناك. فقد كان لدى الرياض قناعة بأنه يجب ألا يُسمح بأن تتحول البحرين إلى «كوبا شيعية» مهما كلف الأمر. خلال الأيام التالية، تظاهر آلاف الشيعة في معظم المدن والقرى في المنطقة الشرقية تضامناً مع إخوانهم في العقيدة. وسارع النظام السعودي إلى الاستجابة بالدعاية الطائفية وبالمزيد من القمع، على السواء.

ومثلما حصل قبيل يوم الغضب، أصدر رجال الدين البارزون فتاوى تحرم التظاهر وتعتبره «غير شرعي» ويؤدي إلى «الفتنة». تساءل المتظاهرون الشباب عن سبب منعهم من التظاهر. قال أحمد، الذي يبلغ العشرين من العمر: «حكومتنا تدعم الثوار في سورية، كيف لهم أن يمنعونا من التظاهر في الشوارع؟» وكما حصل سابقاً، جرت استثارة المشاعر الطائفية من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، وعلى موقع يوتيوب تحديداً. إلى ذلك، لجأ النظام إلى كل الإجراءات القمعية الوقائية لسحق الاحتجاجات. لم يقتصر الأمر على إصدار قانون صارم يتعلق بالصحف المنشورة على شبكة الإنترنت؛ بل فُرِضت رقابة على موقعي يوتيوب وفيسبوك وحُجبت عدة مواقع أخرى.

في خريف عام ٢٠١١، خرجت الأمور عن السيطرة تماماً. ففي الوقت الذي كان فيه زعماء الشيعة يجرون مباحثات مع الحكومة، جرى اعتقال أكثر من مئتي متظاهر، بمن فيهم توفيق الأمير، رجل الدين الذي يتمتع بالشعبية، وفُرِض حصار فعلي دائم على القطيف وأرسلت السلطات إلى هناك الحوامات والسيارات المصفحة وعدداً كبيراً من رجال الشرطة. حصلت أولى حالات الوفاة في بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، فقد قتل رجال الشرطة خمسة أشخاص. وصبت وزارة الداخلية الزيت على النار بأن عادت إلى تكرار نغمة «العناصر الخارجية»، وكأنها كانت تقول ضمناً إن المتظاهرين كانوا عملاء إيران. كان على المتظاهرين أن يُعلِنوا بوضوح «إن كان ولاءهم لله

ولبلدهم أو لتلك الدولة [إيران] وسلطتها»[٣]. أضاف الأمير نايف أنه سيسحق الاحتجاجات بـ «يد من حديد». أصدرت الوزارة في مطلع العام ٢٠١٢ قائمة بأسماء ثلاثة وعشرين من مثيري المتاعب المعتبرين «في طليعة المطلوبين»، أي نفس الأساليب التي اتُّبِعَتْ مع إرهابيي القاعدة. صرّح منصور التركي، الناطق باسم الوزارة بكلمات لا لبس فيها أن الأشخاص المذكورة أسماؤهم في القائمة هم مجموعة تابعة لمنظمة إجرامية ذات «أجندة أجنبية».

استمرت التظاهرات دون توقُّف، وبدأ الوضع يسوء أكثر، كما يبدو في الشعارات التي كان يرفعها المتظاهرون، مثل «الموت لآل سعود». وألقى الشيخ نمر النمر، المثير للاستفزاز كعادته، موعظة في شهر شباط/فبراير من عام ٢٠١٢، طالب فيها بإلغاء الملكية. وعندما ألقى المتظاهرون بدُمْية تمثل الأمير نايف تحت عجلات سيارة مصفحة، أُطلِقَت الذخيرة الحية على المتظاهرين مرة أخرى. مع نهاية عام ٢٠١٢، كان قد قُتِل أكثر من ستة عشر شخصاً من المحتجين، معظمهم من العوامية.

رابعاً: شباب ومسنّون

بدأ صبر النشطاء الشباب في المنطقة الشرقية ينفد في السنوات الأخيرة، والنتيجة أن الجيل الأكبر سناً فقد الكثير من سلطانه. يعتقد العديد من الشباب أن الإصلاحيين قد سمحوا للعائلة المالكة بخداعهم دون أن يحصلوا على شيء في المقابل. ويرى هؤلاء أن الأمور يجب أن تجري على نحو مختلف وبأسرع مما كانت سابقاً. يقول أحد الطلاب من مدينة القطيف، ويبلغ التاسعة عشرة من العمر، «لا يوجد في جيل الشباب من يثق بالحكومة... حان الوقت لتغييرها». يعترف توفيق سيف، وهو من جيل النشطاء الأوائل، بوجود هذه الظاهرة: «الجيل الجديد يطالب قادته بالتوقف عن نشاطهم. أنتم لم تحققوا شيئاً. حان دورنا». ويعبِّر أحد زملائه، وهو جعفر الشايب، عن أفكاره بكلمات مماثلة لكنه يعتقد أن تنامي الراديكالية أمر وشيك الحدوث: «الشباب يريدون رؤية نتائج سريعة وسوف نبذل ما بوسعنا لتوعية الحكومة بذلك. نحن نحاول السيطرة على الوضع، ولكن في لحظة معينة، قد لا يعود ذلك ممكناً».

يعي النشطاء الأكبر سناً أنهم يحققون نتائج هزيلة باستمرارهم في الحوار مع الحكومة، لكنهم يتساءلون أيضاً عن البدائل. وهناك قضايا تُثار في تلك الدوائر. «هل لدى المتظاهرين برنامج؟ وهل يؤمن الشيخ نمر النمر نفسه بالديمقراطية؟» ينتقد هؤلاء النشطاء، أحياناً، سذاجة الشباب الذين يعتقدون أن بإمكانهم إطلاق حراك في العربية السعودية على غرار ما حصل في ساحة التحرير في القاهرة. يقول أحدهم بحذر: «نحن أقلّية؛ نحن مجرد منطقة؛ لا نستطيع القيام بأية ثورة».

وتظل شعبية الشيخ النمر، الذي لا يثق به بعض النشطاء الأكبر سناً، في أوجها بين الشباب. وهو يلقى الإعجاب لأنه يقول أشياء يفكر فيها بعضهم دون أن يجرؤوا على قولها. عندما توفي

(٣) Fredric Wehrey, «The Forgotten Uprising in the Eastern Saudi Arabia,» Carnegie Endowment for International Peace (June 2013), p. 15, <http://carnegieendowment.org/files/eastern_saudi_uprising.pdf> (Last accessed 15 August 2013).

وزير الداخلية، الذي كان يخشاه الجميع، في حزيران/يونيو من عام ٢٠١٢، كانت تلك مناسبة ليعبر الشيخ النمر عن «فرحه بموته» وعن أمله في أن «تأكله الديدان وأن يلقى أهوال جهنم بانتظاره». ومضى ليدعو الله أن «يأخذ عائلات سعود وخليفة في [البحرين] والأسد»(٤). كان ذلك بالطبع شططاً، وجرى اعتقاله ثانية بعد حصول بعض المناوشات التي أصيب فيها بطلقة في ساقه. أثار اعتقاله موجة جديدة من الاحتجاجات كما تجدَّدت أعمال العنف، وحصل بعض تلك الأعمال من جانب بعض المتظاهرين الذين ألقوا قنابل المولوتوف على دوريات الشرطة والمباني الحكومية. أطلق النشطاء دعوات على شبكة الإنترنت تدعو إلى «الهجوم على مراكز الشرطة وإلى تفجير آبار النفط» إذا لم يُطلق سراح النمر. لجأ رجال الشرطة ثانية إلى استخدام الذخيرة الحية ما أدى إلى مقتل عدد من الأشخاص وتابعت الحكومة بحثها عن المطلوبين في «قائمة الثلاثة وعشرين» دون كلل.

وجد النشطاء الأكبر سناً أنفسهم، ثانية، عالقين في معضلة الاختيار بين الانحياز إلى جانب الشباب الثوريين أو الاستمرار في الحوار مع الحكومة. وفي ومحاولة لتهدئة الأوضاع، أصدر رجال الدين الشيعة بيانَيْن يدينون فيهما كل أشكال العنف. تحدث أحد البيانَيْن على نحو إيجابي عن نية الملك عبد الله لإنشاء «مركز للحوار» في الرياض. أما الشباب الثوريون فقد رأوا أن العرض يفتقر إلى الصدق وأنه يحابي الحكومة. علَّق أحد هؤلاء الشباب بسخرية قائلاً: «يردد هذا البيان ما تقوله الحكومة 'أوقفوا الاحتجاجات، أنتم تخلقون فتنة'»(٥).

خامساً: هوة لا تُردم

خلال الفترة بين صيف عام ٢٠١٢ ومطلع عام ٢٠١٣، حصلت احتجاجات في أماكن أخرى من البلاد، في منطقة القصيم - المنطقة الوسطى المحافِظة في العربية السعودية - وفي الرياض، وإن لم تكن بقوة الاحتجاجات التي حصلت في المنطقة الشرقية. نظم أقارب الموقوفين السياسيين تظاهرات واعتصامات أمام مباني السجون حيث كان أقاربهم محتجزين، أحياناً لسنوات دون أن يمثلوا أمام محكمة. ويدّعي النشطاء الشيعة الشباب أن تلك التظاهرات السنية إنما جرت بإيحاء من ثقافة الاحتجاج في المنطقة الشرقية.

جرى أهم احتجاج من تلك الاحتجاجات السنية في البريدة، عاصمة القصيم. إذ كانت تُنظَّم كل أسبوعين تجمعات لمئات من النساء والأطفال للمطالبة بإطلاق سراح أقاربهم السجناء، أو على الأقل توفير محاكمة عادلة لهم. فخلال الفترة بين العامين ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨، سُجن آلاف الأشخاص في سياق الحملة التي قامت بها الحكومة ضد المتطرفين الإسلاميين. يقول المحامي في حقوق الإنسان، عبد العزيز الحصان: «سجنوا أيضاً المشاغبين والإصلاحيين بتهمة الإرهاب، لأن ذلك أسهل».

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧، و <http://www.memritv.org/clip/en/3483.htm> (Last accessed 15 August 2014).

(٥) Wehrey, Ibid., p. 18.

ربما لا يبدو بضع مئات من المتظاهرين عدداً كبيراً، لكن عبد العزيز الحصان يقول إن الجميع تابع الاحتجاجات على صفحات فيسبوك وتويتر. «لم يكن ذلك حادثاً معزولاً. كان الناس يطالبون بالشفافية والمساءلة. يجب أن يكون الجميع سواسية أمام القانون». انتهت معظم تظاهرات البريدة بعد شهر آذار/مارس من عام ٢٠١٣. ويعتقد عبد العزيز الحصان أن الحكومة ربما كانت قد بذلت الوعود بإيجاد حل لهذه المسألة. عندما كانت الاحتجاجات مستمرة، تطورت من حين لآخر إلى محاولات قام بها بعض الشيعة لبدء حوار مع مواطنيهم السنّة. يقول حسن الصفار: «علينا أن نكون جزءاً من حركة إصلاح وطنية. مشكلة الشيعة هي جزء من مشكلة أكبر في العربية السعودية. البلاد بحاجة إلى إصلاح عام وهذا يجب أنْ يعني أيضاً حل مشاكل الشيعة».

يلجأ الجيل الجديد إلى الإفراط في استخدام التواصل الاجتماعي، وخصوصاً تويتر، في محاولة لإجراء حوار مع «الآخر». وبعد الإجراءات الصارمة التي اتُّخذت بحق المحتجين الشيعة عام ٢٠١٢، مثلاً، أُطلق هاشتاغ لاقى شعبية حمل اسم «كلنا قطيف» تضمن تعبيرات التضامن من قِبَل السنّة. وتجلى مدى ضآلة معلومات معظم السنّة حول الشيعة خلال حملة على تويتر، ما دفع أحدهم للقول مازحاً: «يعتقد السنّة أننا جميعاً نتكلم الفارسية».

إذا وضعنا المزاح جانباً، تبدو الهوة بينهما غير قابلة للردم. فحتى الآن، لم تحقق كل المحاولات، سواء من جانب جيل الشباب أو الجيل الأكبر سناً، أية نتيجة لأن المشاعر المذهبية متجذرة بعمق. وحتى لو تحدث الليبراليون السنّة، من حين لآخر، علناً عن القمع في المنطقة الشرقية، فإنهم عادة لا يستمرون في ذلك طويلاً خشية فقدان دعم أتباعهم السنّة[٦]. ويتجلى ذلك على نحو أوضح في صفوف رجال الدين ذوي الذهنية الإصلاحية. فالشيخ سلمان العودة، الذي يتمتع بالشعبية، رفض علناً الجدل المذهبي واستقبل وفوداً شيعية على نحو منتظم، لكن الشيعة يشيرون إلى أنه لم يتطرق قط إلى اقتراح أي تعاون جدي[٧].

---

(٦) هناك استثناء بارز وهو الناشط السني في مجال حقوق الإنسان، مخلف الشمري. فهو يدعو إلى حقوق متساوية للسنّة والشيعة. لكنه دفع ثمناً غالياً. فمنذ عام ٢٠٠٧، ألقي القبض عليه عدة مرات واتهم بالكفر وجرى تدميره مادياً وتعرض لإطلاق النار أكثر من مرة. في حزيران/يونيو من عام ٢٠١٣، حكمت عليه محكمة جنايات خاصة بالسجن خمس سنوات تلتها عشر سنوات منع خلالها من السفر. كانت التهم الموجهة إليه هي «إزعاج الآخرين» و«معاشرة المنشقين» و«بذر الشقاق». انظر: Human Rights Watch, «Challenging the Red Lines: Stories of Rights Activists in Saudi Arabia,» pp. 24–27, <http://www.hrw.org/reports/2013/12/17/challenging-red-lines> (Last accessed 1 August 2014), and Robert F. Worth, «Saudi's Lonely, Costly Bid for Sunni–Shiite Equality,» *The New York Times*, 14/3/2014, <http://www.nytimes.com/2014/03/15/world/middleeast/saudis-lonely-costly-bid-for-sunni-shiite-equality.html?_r=0> (Last accessed 1 August 2014).

في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤ حكم عليه مرة أخرى بالسجن لسنتين أو (أكثر) و٢٠٠ جلدة.

(٧) بالنسبة إلى العودة، «طائفية» الحرب الأهلية في سورية هي عامل معقّد. ويبدو أن ذلك قد حدَّ من إمكانات محاولات الشيخ المتسارعة للتشجيع على التقارب بين الطرفين. يقول أحد الناشطين في المنطقة الشرقية: «يخشى الشيخ من أن تواصله مع الشيعة في أجواء كهذه سيؤدي إلى إبعاده عن قاعدته السنية». انظر: Frederic Wehrey, «Syria's Sectarian Ripples across the Gulf,» United States Institute of Peace, Peace Brief, no. 161 (15 November 2013), p. 2, <http://www.usip.org/sites/default/files/PB161.pdf> (Last accessed 1 August 2014).

يشكو الشيعة من أنهم يقومون بانتظام بمبادرات توفيقية تجاه السنّة، ولكن لم تحصل مبادرات مماثلة من الطرف الآخر إلا نادراً. ولا يجد جعفر الشايب حرجاً في التعبير عن شعوره بالإحباط: «لاحظ عدد الأسماء الشيعية الموجودة في العرائض [الجماعية] التي تُقدَّم إلى الملك، حتى في حال كون القضايا «سنّية»»! «يقول ناشط آخر: «لقد بذلنا كل ما في وسعنا؛ جاء الآن دور الإصلاحيين السنّة!» والمثال النموذجي هنا هو أن جمعية الحقوق المدنية والسياسية في السعودية لم تأتِ على ذكْر التصرفات الوحشية لرجال الأمن أثناء احتجاجات الشيعة عام ٢٠١٢. يعبّر توفيق سيف عن الوضع بأسلوب واضح صريح: «جرت كل اللقاءات التي جمعت سنة وشيعة، في العربية السعودية، بمبادرات شيعية».

في مقابلات أُجريت مع طلاب سنّة يدرسون العلوم السياسية في جامعة الملك سعود في الرياض، يلمس المرء مدى عمق مشاعر الشك في الشيعة. يقول محمد بكل جدية: «بالطبع إنهم يحاولون محاصرتنا والإطاحة بالملكية». يوافق نايف على ما قاله صديقه: «هناك عدد كبير من الشيعة في المنطقة الشرقية يذهبون إلى إيران لتلقّي العلاج الطبي. تعرف طبعاً ما أقصد...!» والأمر الأكثر فظاعة هو ما حصل في مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في أحد معاهد الأبحاث المرموقة في الرياض. فقد اشتكى أساتذة جامعة وسفير وعضو سابق في مجلس الشورى بمرارة من التوسع الإقليمي الإيراني. قال السفير: «لقد خسرنا لبنان والعراق وسورية لمصلحة الإيرانيين. يجب وضع حد لهذا الأمر». وعندما أُثير موضوع التدخل العسكري السعودي في البحرين، أجمع السادة الحاضرون على معارضة كلمة «تدخل». ألم يطلب الملك حمد بن عيسى آل خليفة بنفسه المساعدة؟ كانت الأفكار من هذا النوع متماشية تماماً مع وجهة نظر الأمير تركي بن فيصل آل سعود، التي كان لا يمل من تكرارها. ويتحدث الأمير، وهو مدير سابق لوكالة الاستخبارات السعودية (خلال الفترة ١٩٧٧ ـ ٢٠٠١)، بحماس وفي الوقت نفسه ليس فقط عن «غزو إيران لسورية»، بل أيضاً عن «تأثير إيران المدمِّر في البحرين»[(٨)].

أحياناً، يصل هاجس الرياض بـ «الذراع الطويلة» لإيران حداً يثير الضحك، كما يتضح من برقيات الدبلوماسيين السعوديين التي نشرها موقع ويكيليكس، في حزيران/يونيو من عام ٢٠١٥. ففي برقية لم يُذكر تاريخها، أعلم قسمُ الشؤون الاقتصادية والثقافية في وزارة الخارجية سعودَ الفيصل، الذي كان آنذاك وزير الخارجية، أن صانع سجاد إيراني شهيراً عبّر عن رغبته في نسج سجادات يدوية للحرمين المقدسين في مكة والمدينة. درست السفارة السعودية في إيران الأمر، لكنها لم تفسّر العرض بأنه مسعى تجاري، بل مناورة سياسية ودينية واضحة تتماشى مع رغبة إيران القديمة بإيجاد موطئ قدم لها في الأماكن المقدسة. وهنا يمكننا أن نفترض بكل ثقة أن السجادات الإيرانية لم تجد طريقها إلى مكة[(٩)].

---

(٨) Project Syndicate, «Has Iran Changed?,» 8 January 2014, <https://www.project-syndicate.org/commentary/turki-bin-faisal-al-saud-assesses-the-continuing-threat-of-iranian-influence-in-the-middle-east?barrier=true> (Last accessed 2 August 2014).

(٩) Kim Ghattas, «The Saudi Cold War with Iran Heats Up,» *Foreign Policy* (15 July 2015), <http://foreignpolicy.com/2015/07/15/the-saudi-cold-war-with-iran-heats-up> (Last accessed 15 September 2015).

سادساً: لا توجد مواقع محظورة

في نهاية عام ٢٠١٢ ومطلع عام ٢٠١٣، حصلت بعض التطورات المشجعة والعابرة في الوقت نفسه. فقد أغلقت الحكومة بعض القنوات التلفزيونية المتطرفة إلى حد السعار في عدائها للشيعة، وعُيّن بعض الأشخاص من الشيعة أعضاء في مجلس الشورى (ما رفع عدد الشيعة في المجلس إلى ستة أعضاء من أصل مئة وخمسين عضواً)، كما أنشئ مركز لحوار الأديان، وإن كان مقره في فيينا لا في العربية السعودية. لكن البهجة الكبرى كان مردُّها العزل «الطوعي» للأمير محمد بن فهد، الذي شغل منصب أمير المنطقة الشرقية منذ عام ١٩٨٥، والمسؤول عن إصدار الأوامر الوحشية بسحق العديد من الاحتجاجات.

لكن كل تلك الإجراءات توقفت في نيسان/أبريل من عام ٢٠١٣ عند اكتشاف «مؤامرة إيرانية». جرى اعتقال ستة عشر مشبوهاً سعودياً، يعيش بعضهم غرب البلاد، ومواطن لبناني وآخر إيراني، بتهمة التجسس لمصلحة إيران. امتلأت وسائل الإعلام فوراً بتقارير حول «الطابور الخامس». وصرح زهير الحارثي، عضو لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشورى، بكلمات لا لبس فيها - شأن العديدين - «إيران لديها مشروع توسعي. يُظهر الدليل الأخير أن لدى إيران خلايا في البحرين والكويت واليمن... طهران تتدخل علناً وتجند العملاء وتموِّل المخربين». كما أتى عرَضاً على ذكر حزب الله اللبناني، رغم أن هذه المنظمة لا تتدخل في شؤون العربية السعودية، وأنكر بشدة أن بلده ترتكب أنشطة غير مشروعة من هذا النوع: «رغم إمكاناتنا اللوجستية والمالية، نحن لا ننخرط في هذا النوع من الأنشطة، وذلك لسبب بسيط هو أننا نؤمن بعمق بمبدأ عدم التدخل في شؤون دولة أخرى»[١٠].

أدلى رجل الدين المتطرف محمد العريفي بدلوه في تغريدة على تويتر، فقال: «لقد أكّد اعتقالُ أفراد شبكة التجسس الإيرانية اعتقادَنا أن الحكومة الصفوية المذهبية لا تتوقف عن إهانتها للإسلام والمسلمين». كان العريفي يشير هنا إلى سلالة الصفويين الفارسية (١٥٠١ - ١٧٢٢) التي جعلت المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة. ألقي القبض على مزيد من المشبوهين في شهر أيار/مايو. أنكرت الأوساط الشيعية، شيباً وشباناً، تلك التهم بشدة. والواقع أن الشيعة السعوديين لا يشعرون بود كبير تجاه إيران، رغم احتمال أن يدفع التمييزُ المتواصل ببعضِهم إلى أحضان إيران. يقول جعفر الشايب إن الشيعة حاولوا إعادة الأمور إلى نصابها. «الحكومة ترى مشاكلنا بمنظور الأمن القومي، ولا تعتبرها شأناً سياسياً. نحن لا نبالغ في مطالبنا ولن يكلف الحكومة الكثير إذا استجابت لها».

في هذه الأثناء، كان الشيخ نمر النمر، الذي يرى فيه العديد من الشباب الشيعة بطلهم، ما زال قابعاً في السجن دون أن توجَّه إليه أية تهمة. وبعد ثمانية أشهر، مثل أخيراً أمام المحكمة

(١٠) Zuhair al-Harthi, «Espionage Cells in Kingdom: The Iranian «Fifth Column»,» *Arab News*, 26/3/2013, <http://www.arabnews.com/news/446072?quicktabs_stat2=1> (Last accessed 2 August 2014).

حيث وُجِّهَت إليه تهم تتضمن «الإرهاب واللجوء إلى العنف ضد رجال الشرطة واستثارة المشاعر المذهبية». في الجلسة الافتتاحية لمحاكمته، التي عقدت في أواخر آذار/مارس من عام ٢٠١٣، طالب المدعي العام بعقوبة الإعدام بطريقة الصلب، وهي عقوبة تلجأ إليها الحكومة في حالات الجرائم الخطيرة. تجمّع المؤيدون له وأفراد أسرته للاحتجاج ضد تلك التهم، وأعلنوا أن الشيخ النمر كان يمارس المقاومة السلمية. في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠١٤، حُكِمَ عليه بالإعدام.

أجّجت الحرب في سورية التوترات في المنطقة الشرقية. فقد أدت الطبيعة المذهبية المتزايدة للحرب الأهلية في سورية، ودعم إيران للدولة السورية ولبشار الأسد، إلى ظهور نزعة مذهبية أكثر صفاقة في السياسات السعودية الداخلية. فقد بذل الشيوخ السنّة، تحديداً، أقصى جهدهم لشيطنة الحكم العلوي في سورية وحلفائه، وكان لذلك تداعيات على الشيعة في العربية السعودية نفسها. عاد الشيخ محمد العريفي ليكشف للجميع عن مكنونات صدره. فهو لم يكتف بالدعوة إلى الجهاد ضد الحكم في دمشق؛ بل إنه نعت الشيعة بأنهم «كفار يجب قتلهم»[(١١)]. والنتيجة أن احتمال قيام السنّة بمحاولة التواصل مع الشيعة لم يعد وارداً في الوقت الحالي.

تتواصل حركة الاضطرابات، ولا سيّما في القطيف والعوامية، دون توقف. في عام ٢٠١٣، وفي أشهر الصيف الحارة، خرج آلاف المتظاهرين إلى الشوارع ثانية. وفي حزيران/يونيو من ذلك العام، جاءت المسيرات رد فعل على الحكم بسجن سبعة أشخاص من الشيعة لمدد تتراوح بين خمس إلى عشر سنوات، لأنهم كانوا قد طالبوا على صفحات فيسبوك بإطلاق سراح رجل دين مرموق آخر، وهو الشيخ توفيق الأمير. ونادراً ما انتهت تلك الأحداث دون أعمال عنف. أدت التظاهرات التي حصلت في بداية عام ٢٠١٤، ثانية، إلى مواجهات بعد أن أصدرت محكمة سعودية أحكاماً بالسجن وصلت إلى عشرين عاماً بحق سبعة متظاهرين. فقد اتُّهم هؤلاء بالمشاركة في التظاهرات وبإطلاق شعارات مناوئة للحكومة. قُتل خلال تلك الاضطرابات رجلا شرطة ومواطنان من الشيعة. ومنذ بداية الاحتجاجات الكبرى في آذار/مارس من عام ٢٠١١، قُتل أكثر من عشرين شخصاً، معظمهم من الشباب. هناك ما يقارب ٩٥٠ شخصاً جرى اعتقالهم، ما زال أكثر من مئتين منهم قيد الاعتقال[(١٢)].

في بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٤، اختبر شيعة المنطقة الشرقية بصورة همجية تداعيات الحرب الطائفية التي يشنها تنظيم الدولة الإسلامية في سورية والعراق. فقد هاجم بعض الإرهابيين السنّة، وكان العديد منهم قد سجنوا سابقاً في المملكة لأسباب أمنية، إحدى الحسينيات

---

(١١) Frederic Wehrey, «Ominous Divide: Shiite Iran v Sunni Gulf,» United States Institute of Peace, The Iran Primer, 18 February 2014, <http://iranprimer.usip.org/blog/2014/feb/18/ominous-divide-shiite-iran-v-sunni-gulf> (Last accessed 2 August 2014).

ومن الملاحظ، أيضاً أن الشيخ النمر دعا بشار الأسد أن يرحل.

(١٢) «Shiite Saudi Clerics Warn against Anti-Govt. Violence,» Naharnet (9 March 2014), <http://www.naharnet.com/stories/en/121838> (Last accessed 18 July 2014).

في الدلوة حيث كان الشيعة يحيون ذكرى عاشوراء، إحدى أقدس مناسباتهم. قُتل سبعة من المصلين، وجُرح اثنا عشر آخرون. أدان المسؤولون السعوديون الهجوم بشدة. وزار وزير الداخلية، الأمير محمد بن نايف، عوائل الضباط الذين لقوا مصرعهم لتقديم التعازي لكنه ـ وهو الأهم ـ زار أيضاً الحسينية في الدلوة، وهي زيارة نادرة من أحد أفراد الأسرة الملكية البارزين.

والأهم من ذلك كله، أن متتي ألف سعودي ساروا في جنازة الضحايا وهم يهتفون «سنّة وشيعة، نحن أخوة» ـ وهو حدث وصفه بعض من حضر الجنازة بأنه «تعبير رائع عن الوحدة الوطنية»[١٣]. كان هذا التعبير عن التضامن حدثاً مهماً ـ ومفاجئاً ـ إذا أخذنا بالاعتبار خلفية المشاعر المعادية للشيعة والمتجذرة عميقاً في نفوس قطاعات واسعة من السكان. لكن بشائر طيور السنونو لا تعني أن الصيف قد حل. ما من شك في أن الدعوات الصريحة للتكفير قد تناقص عددها حالياً، ولكن، إلى متى يمكن أن يدوم ذلك؟ فطالما استمرت الدولة في التسامح مع خطاب الكراهية الطائفية الذي لا يكف عنه رجال الدين السنّة، وطالما أنها (وهذا مثال آخر يوضح الفكرة) لا تبدي نية لتغيير الكتب المدرسية السعودية التي تدرِّس أن الشيعة ليسوا مسلمين، فسوف يستمر التوتر. وكما قال أحد النشطاء في مجال حقوق الإنسان بعد هجوم الدلوة: «لقد شاهدنا [يوم الثلاثاء] البلاغيات الدينية الوهابية تُترجم إلى فعل»[١٤]. ومع عودة أعداد متزايدة من الجهاديين إلى وطنهم من الوضع المذهبي في سورية والعراق، الذي لا يفتأ يزداد شراسة، فإن السعودية ستصبح معرضة أكثر فأكثر إلى هجمات من هذا النوع (كما برهنت الهجمات الضارية التي جرت مؤخراً). والأمر المقلق أيضاً هو ارتفاع عدد مستخدمي تويتر في المملكة ممن يتعاطفون مع تنظيم الدولة الإسلامية[١٥].

ما زالت الاضطرابات في المنطقة الشرقية تتسم بطابع محلي ومذهبي، بحيث لا يُحتَمل أن يشكل المحتجون عنصراً حافزاً لحراك يشمل كل أرجاء البلاد. أما الأعداد القليلة من الليبراليين السنّة الذين عبّروا صراحة عن تأييدهم للمتظاهرين الشيعة، فقد جرى إسكاتهم بصورة ممنهجة. ومن الواضح حالياً أن الشيعة يقفون في الميدان وحدهم.

---

(١٣) Rory Donagy, «Sunnis, Shiites Unite in Saudi Arabia at Huge Funeral for Victims of «Sectarian» Attacks,» Middle East Eye (7 November 2014), <http://www.middleeast-eye.net/news/sunnis-shiites-stand-together-saudi-arabia-huge-funeral-victims- sectarian-attack-1956146358> (Last accessed 10 November 2014).

(١٤) «Saudi Officials Blame al-Qaeda for Deadly Anti-Shiite Attack,» <http://www.middleeasteye.net/news/saudi-blames-al-qaeda-deadly-anti-shiite-attack-559410559> (Last accessed 10 November 2014).

(١٥) «The Propaganda War,» *The Economist* (15 April 2015), <http://www.economist.com/news/middle-east-and-africa/21660989-terrorists-vicious-message-surprisingly-hard-rebut-propaganda-war> (Last accessed 15 September 2015).

الفصل العاشر

مواجهة الثورة: صدُّ زحف الربيع العربي

مثّلت الثوراتُ التي اندلعت في تونس ومصر مطلع عام ٢٠١١، التي نجم عنها انهيار كلا النظامين، صدمة عميقة لدى السلطات السعودية. ولو أتيحت لها الفرصة، لكانت قد عرضت استضافة الرئيس المصري المخلوع، حسني مبارك، مثلما استضافت نظيره الرئيس التونسي المخلوع بن علي. ومنذ ذلك الحين، لم تألُ السلطات السعودية جهداً في السعي للحد من الضرر في بلدها وفي أماكن أخرى من الوطن العربي. السياسة السعودية متناقضة بقدر ما هي قابلة للتنبؤ، وتنطوي هذه السياسة على توفير الدعم للطغاة من أقارب العائلة السعودية في مواجهة المعارضة الداخلية ـ ولا سيّما في البحرين ـ وفي الوقت نفسه، دعم الأطراف المعارضة والمتمردين، في سورية، على سبيل المثال، أو في اليمن، عندما يقتضي ذلك التنافسُ مع إيران، الذي يهيمن على أفكار السلطات السعودية.

عندما أقدم محمد البوعزيزي على إحراق نفسه في تونس، في السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر من عام ٢٠١٠، جاء رد فعل علماء السعودية الرسميين كما كان متوقعاً. فقد أصدر المفتي العام فتوى شجب فيها قتل النفس بوصفه «إثماً بغيضاً وكارثة كبرى»، وفي الوقت نفسه، وصف التظاهرات بأنها «أفعال خطرة ومحرمة». وهي «خارجة عن الإسلام» لأنها تهدد وحدة العالم الإسلامي[1]. حذت وزارة العدل حذو العلماء بعد أسبوع، عندما أعلنت محكمة الاستئناف في مكة، أن على المشاركين في التظاهرات أن يتوقعوا أحكاماً صارمة، تصل حد العقوبات الجسدية. أجّج سعودُ بن فيصل آل سعود، وزير الخارجية آنذاك، الأوضاع لدى تصريحه بأن على الجميع أن يتيقنوا بأن السلطات سوف «تقطع أي إصبع يُرفَع احتجاجاً بوجه النظام»[2].

---

(١) <http://www.anbacom.com/news.php?action=show&id=19045> (Last accessed 12 December 2013).

(٢) Toby C. Jones, «Counterrevolution in the Gulf,» *Peace Brief* (United States Institute of Peace), no. 89 (15 April 2011), p. 2, <http://www.usip.org/sites/default/files/PB%2089%20Counterrevolution%20in%20the%20Gulf.pdf> (Last accessed 29 June 2014).

مع استمرار الاحتجاجات في دول متعددة وتنامي شدتها، بدأ رجال الدين البارزون بتبني مواقف أخرى أكثر ليناً. بل إن بعضهم، مثل ناصر العمر وصالح اللحيدان، غيّروا وجهات نظرهم ودعوا الناس إلى دعم المعارضة في اليمن وسورية. بل إن رجل الدين سلمان العودة، ذا النزعة الإصلاحية، شكّك علناً بشرعية الأنظمة في كل من مصر وليبيا واليمن.

في تلك الأثناء، كانت الحكومة تمد يد العون إلى أخلص أصدقائها من الطغاة من خلال منحهم البترودولارات اللازمة لتمكينهم من التعامل مع حركات التمرد، وفي حال عدم كفاية ذلك، كما في البحرين، كانت تمدّهم بالدعم العسكري. كما اقترح مجلسُ التعاون الخليجي، الذي تسيطر عليه العربية السعودية، تقديمَ عشرين مليار دولار للدول الملكية الأقل ثراء مثل عُمان والبحرين. ودُعِيَ ملكا الأردن والمغرب للانضمام إلى مجلس التعاون الخليجي ـ لكن جواب الملكَيْن كان رفضاً مهذباً.

أولاً: تونس

تبنّت العربية السعودية مقاربات مختلفة باختلاف الدول المعنية. ففي حالة تونس، كانت العربية السعودية من الدول العربية القليلة التي أحجمت عن تهنئة النظام الجديد بعد تسلّمه السلطة. وانطلق موقفها، جزئياً، من استضافتها للرئيس المُبعد، بن علي؛ وفي الوقت نفسه، شعرت الرياض بالتوجّس من التأثير المحتمل لحزب راشد الغنوشي، حزب النهضة الأصولي والمعتدل في نفس الوقت. وكان هذا الفيلسوف والناشط الإسلامي قد حاول سابقاً، دون جدوى، طلب اللجوء إلى العربية السعودية، أما الآن، فقد صار بعض الأصوليين السعوديين يحتفون بنجاح حزب النهضة. بذلت وسائل الإعلام التي تديرها العربية السعودية، مثل العربية والشرق الأوسط والحياة، أقصى جهدها لرسم صورة سيئة للنظام الجديد في تونس (خلافاً لما كانت توررده قناة الجزيرة التي تبث من قطر). لكن الغنوشي لم يكن شخصية تصالحية، فقد تنبأ في نهاية عام ٢٠١١ بأن الربيع العربي «سوف يطيح كل أمراء الخليج»[٣].

تتسم العلاقات الرسمية بين الرياض وتونس بالبرود. وفي الوقت نفسه، تفرض العربية السعودية نفوذها، كعادتها، من خلال الأقنية الفضائية العديدة التي كانت تموّلها. ومنذ سقوط بن علي، بدأت الجمعيات الإسلامية التي تشكّلت حديثاً تقوم بدور تتنامى أهميته باستمرار. يستخدم بعض المراقبين تعبير «نشر الوهابية»، وهم بذلك لا يجانبون الصواب[٤]. وتتعاون العديد من تلك الجمعيات تعاوناً وثيقاً مع شخصيات ومؤسسات سعودية بارزة.

---

(٣) Alain Gresh, «Gulf Cools towards Muslim Brothers,» *Le Monde diplomatique* (novembre 2012).

(٤) انظر على سبيل المثال: Kristina Kausch, ««Foreign Funding» in Post-Revolution Tunisia,» FRIDE, 2013, <http://fride.org/download/WP_Tunisia.pdf> (Last accessed 12 December 2013), and International Crisis Group, «Tunisia: Violence and the Salafi Challenge,» *Middle East/North Africa Report*, no. 137 (13 February 2013), <http://www.crisisgroup.org/~/media/Files/Middle%20East%20North%20Africa/North%20Africa/Tunisia/137-tunisia-violence-and-the-salafi-challenge.pdf> (Last accessed 29 June 2014).

إلى ذلك، ينشط الوعّاظ السعوديون في تونس، وخصوصاً في الأرياف، سواء أكان ذلك، أو لم يكن، بدعوة من الفروع المحلية لحزب النهضة. قد يبدو ذلك غريباً، ولكن هناك تفسير بسيط. إذ إن «حزب النهضة نفسه منقسم: بين الوعّاظ الدينيين والسياسيين الذرائعيين، وبين مواقف قيادته المرنة إلى حد ما والمعتقدات الأساسية لقاعدته العسكرية»[٥]. فكلما اتسم عمل الحزب بالذرائعية أكثر، بَعُدتْ المسافة التي تفصله عن قاعدته، ومن شأن ذلك توفير الفرصة للقوى الأصولية لملء الفراغ الحاصل. ولا شك في أن ذلك سيكون من دواعي سرور العربية السعودية. ولكن بعد أن خسر حزب النهضة الانتخابات النيابية في تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠١٤ لمصلحة حزب نداء تونس العلماني، الذي يضم العديد من فلول نظام بن علي، يُتوقع تحسُّن العلاقات بين الحكومتين. وبالفعل، نأت الحكومة، التي شكّلها حزب نداء تونس الذرائعي، بنفسها عن تركيا وقطر، عام ٢٠١٥، وحسّنت علاقاتها مع العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة.

ثانياً: البحرين

في آذار/مارس من عام ٢٠١١، كانت البحرين هي البلد الأول الذي تدخلت فيه السعودية عسكرياً لإنقاذ نظام صديق. (اليمن تُعتبر مثالاً مشابهاً سنقوم ببحثه لاحقاً في هذا الفصل). ترتبط عائلة آل سعود وعائلة خليفة بروابط وثيقة منذ سنوات عديدة، وذلك من خلال صلات قبلية ودينية، إذ إن كلا النظامين سنّي. وقد أضيف إلى ما سبق البعد الاقتصادي إذ ازداد اعتماد البحرين على «الإعانات السعودية». ويجب ألّا نغفل أيضاً الصلة المادية التي تربط بين الدولتين ـ فجسر الملك فهد البالغ طوله ٢٥ كم يسمح لعدد كبير من السعوديين بزيارة عاصمة البحرين، وهي مدينة المنامة التي تتسم بقدر أكبر من الحرية، حيث يستمتعون بأنشطة ترفيهية متعددة، كالتردد إلى دور السينما. وقد ذكرت وسائل الإعلام البحرينية الرسمية، في أيلول/سبتمبر من عام ٢٠١٤، أنه يجري التخطيط لبناء جسر جديد سيمتّن الروابط بين البلدين[٦]. وأي تهديد للوضع الحالي في البحرين، وخصوصاً إذا صدر عن الأغلبية الشيعية التي تشعر بأن هناك تمييزاً ضدها، لا بد من أن يقرع جرس الإنذار في الرياض. فالسعوديون لا يخشون فقط انتقال الاضطرابات الموجودة في البحرين إلى الأقلية الشيعية في المنطقة الشرقية؛ بل إنهم يشعرون دائماً بالخشية من قيام إيران بإثارة القلاقل.

تحققت مخاوف السعوديين في مستهل عام ٢٠١١. فقد وصل تأثير الاحتجاجات التي ثارت في أماكن أخرى من الوطن العربي إلى الشيعة، الذين يشكلون نسبة ٦٠ بالمئة من المواطنين البحرينيين والذين يعانون التهميش على يد النخبة السنية، فخرجوا إلى الشوارع بأعداد كبيرة. وكان الشيعة قد فعلوا ذلك في مناسبات أخرى في السنوات الماضية، لكن التظاهرات المطالِبة بالإصلاح

(٥) International Crisis Group, Ibid., pp. i–ii.

(٦) «Second Bridge to Link Kingdom and Bahrain,» *Arab News*, 7/9/2014, <http://www.arabnews.com/news/626536> (Last accessed 25 September 2014).

الديمقراطي كانت هذه المرة أكثر تنظيماً. في منتصف شهر آذار/مارس، بدا الوضع يائساً ما دفع بالملك حمد بن عيسى آل خليفة لطلب الدعم من قوات درع الجزيرة، وهي الجناح العسكري لمجلس التعاون الخليجي. لم تتردد العربية السعودية وأرسلت ألف جندي. تمركزت الدبابات والسيارات المصفحة السعودية في مواقع استراتيجية في المنامة. بعد ذلك، أضافت الإمارات العربية وقطر إلى القوات السعودية بضع مئات من قوات الشرطة الخاصة. تم سحق التمرد بعد إراقة الكثير من الدماء، ولكن دون مشاركة مباشرة من القوات الأجنبية.

أشارت كل من الرياض والمنامة بإصبع الاتهام إلى طهران (رغم أن المعارضة الشيعية تنكر أي وجود لدور إيراني). وحصلت الحكومة السعودية بالطبع على دعم من رجال الدين. أصدر ثلاثة عشر عالماً بارزاً فتوى تضم قائمة طويلة من المزاعم، شجبوا فيها الاحتجاجات وحذّروا من «المخططات المحظورة» للمحتجين. وضمن هذا التّوجه، قال العلماء المذكورون: «هذا يمثل طليعة التوسّع الصفوي الذي يحلم بالاستيلاء على الخليج العربي لإقامة الهلال الفارسي»(٧).

لخّص الصحفيُ السعودي جمال الخاشقجي، المستعد دوماً لشجب ما يقوم به الشيعة، موقفَ الحكومة بأسلوبه الفريد:

«ينبغي أن يقوم أحد بإقناع المعارضة البحرينية أنها ليست جزءاً من الربيع العربي ... فهم يعتقدون أنه إذا كان المصريون يستطيعون تحقيق انتصار كامل، فلماذا لا نستطيع نحن أيضاً تحقيق انتصار؟ وإذا كان الليبيون يستطيعون تحقيق انتصار كامل، فلماذا لا نستطيع نحن أيضاً تحقيق انتصار؟ لكن البحرين مختلفة: ... فالمجتمع منقسم بين السنة والشيعة»(٨).

بعبارة أخرى، يبدو أنه لا يمكن للمتظاهرين البحرينيين أن يمثلوا ثورة ديمقراطية شعبية لأن ذلك سيُعتبر مجرد حركة مذهبية ذات برنامج مذهبي. ولا يبدو أن عدم عثور لجنة تقصّي الحقائق المستقلة، وهي لجنة بسيوني التي شكّلها الملك حمد، على أي دليل يشير إلى تورّط إيراني، قد كان له أي تأثير في المنامة أو الرياض.

كانت العربية السعودية تقوم أحياناً بإعاقة المحاولات الرامية إلى إجراء حوار بين المعارضة والحكومة، خلال الأشهر التي تلت التدخل السعودي. فقد صرّح أحد رجال الأعمال السنّة البارزين في المنامة: «ربما كان مجتمعنا جاهزاً، وربما كانت حكومتنا جاهزة... لكن جيراننا ليسوا جاهزين بعد. وإذا كان جيرانك غير جاهزين ولم يعجبهم الاتفاق الذي أبرمته، فإن بإمكانهم إفشاله»(٩). في عام ٢٠١٥، تستمر الاحتجاجات وإن خفّت حدتها، ويستمر القمع ويستمر وجود القوات السعودية في البحرين.

---

(٧) <http://www.nationalkuwait.com/vb/showthread.php?t%D1%81178129> (only accessible via password).

(٨) Justin Gengler, «Bahrain: A Special Case?,» in: «What Does the Gulf Think about the Arab Awakening?,» Introduction by Fatima Ayub, European Council on Foreign Relations (April 2013), p. 16, <http://www.ecfr.eu/page/-/ECFR75_GULF_ANALYSIS_AW.pdf> (Last accessed 2 July 2014).

(٩) Gregg Carlstrom, «In the Kingdom of Tear Gas,» *Middle East Report Online* (13 April 2012), <http://www.merip.org/mero/mero041312> (Last accessed 2 July 2014).

ثالثاً: ليبيا

رغم الدور الواضح للعربية السعودية في البحرين، كقوة مضادة للثورة، فإن مقاربتها للوضع في ليبيا كان مختلفاً. ففي ليبيا، دعمت العربية السعودية إسقاط نظام كانت تربطها به علاقات عداء شديد. فخلال العقود السابقة، لم يفوّت معمر القذافي فرصة للسخرية من العائلة السعودية والتشكيك بشرعيتها. وفي عام ٢٠٠٣، سرت شائعات تقول إن ولي العهد، والحاكم الفعلي، عبد الله نجا من محاولة اغتيال دبّرها الزعيم الليبي. بالتالي، وقفت الرياض إلى جانب المتمردين، رغم أن دعمها كان دعماً شفهياً بالكامل. قامت العربية السعودية بدور مهم في الجامعة العربية لدى تبني قرار يطلب من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة إقامة منطقة حظر طيران فوق ليبيا. وطبقاً لما أوردته التقارير، كانت إحدى عشرة دولة فقط، من أصل اثنتين وعشرين دولة من الدول الأعضاء في الجامعة، حاضرة عندما جرى تبني القرار في ١٢ آذار/مارس من عام ٢٠١١، صوتت دول التعاون الخليجي الست لمصلحة القرار[١٠]. وكانت العربية السعودية قد هيأت الأجواء بالكامل في الجامعة العربية.

بتاريخ السابع عشر من آذار/مارس، تبنى مجلس الأمن القرار الرقم ١٩٧٣، وفي هذا القرار، وبالإضافة إلى إنشاء منطقة حظر طيران، أعطى المجلس الضوء الأخضر للقيام بـ «كل الإجراءات الضرورية» لحماية المدنيين في ليبيا. وقد مضت هذه الفقرة الأخيرة الإضافية أبعد من الصيغة الأصلية للجامعة العربية. لم تحذُ العربية السعودية حذو قطر والإمارات العربية المتحدة في إرسال طائرات حربية إلى ليبيا، لكنها على الأرجح زودت الثوار الليبيين بالأسلحة. ولكن ثمة شكوك تحيط بالقرار المذكور. إذ إن مناقشة القرار صادفت ـ في الأسبوع نفسه ـ مع الاضطرابات التي جرت في البحرين. ثمة احتمال بأن يكون نظام أوباما قد عقد اتفاقاً مع العائلة السعودية يقضي بأنها في حال دعمها القرار ١٩٧٣، فسوف يطلق يدها للتدخل في البحرين، كما يقضي بأن الولايات المتحدة سوف تضمن إزاحة القذافي عن سدّة الحكم[١١].

خلال هذا الوقت انحدرت ليبيا إلى هوة الفوضى العارمة، فقد غدت مرتعاً للميليشيات المتحاربة إضافة إلى وجود مجلسين نيابيين متنازعين وحكومتين متنافستين. ففي حين يخضع المجلس النيابي في طرابلس لمجموعات إسلامية مدعومة من قطر، تدعم الرياض مجلس الوزراء الموجود في طبرق، الذي لا يحمل طابعاً إسلامياً، والمنبثق عن المجلس النيابي المنتخَب في حزيران/يونيو من عام ٢٠١٤. والواقع أن هذه الحكومة هي حكومة مُعترف بها من قبل المجتمع الدولي. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، وبعد أن زار رئيس الوزراء (في طبرق) عبد الله الثاني الرياض، صرّح وزير الخارجية الليبي، محمد الديري، أن العربية السعودية جاهزة

(١٠) Pepe Escobar, «Exposed: The US–Saudi Libya Deal,» *Asia Times*, 2/4/2011, <http://www.atimes.com/atimes/Middle_East/MD02Ak01.html> (Last accessed 2 July 2014).

(١١) المصدر نفسه.

لتدريب جنود ليبيين[١٢]. ولا يُعرف إن كان هذا التدريب قد تحقّق. يحارب الجيشُ النظامي في ليبيا الميليشيات الإسلامية، بما فيها تنظيم الدولة الإسلامية الذي استولى على بنغازي وطرابلس ومدن أخرى. ولكن، وبما أنه ليس ثمة شكوك بشأن وجود دور إيراني في الفوضى الليبية، تبدو مصلحة السعودية ضئيلة هنا.

رابعاً: اليمن

كان اليمن، مقارنة بليبيا البعيدة، يشكل على الدوام مصدر تهديد مباشر للعربية السعودية أكثر مما تشكل ليبيا. ومذ بدأ الربيع العربي، تبلور هذا التهديد أكثر. فاليمن يضم عدد سكان أكبر (٢٤ مليوناً مقارنة بستة ملايين في ليبيا) وهو بلد يعيش فقراً مدقعاً، واستناداً إلى ما تورده الأمم المتحدة، يضم اليمن أكبر نسبة حيازة سلاح في العالم بالنسبة إلى عدد السكان. وتعيش اليمن هاجس التقسيم إلى جزأين، هذا بالإضافة إلى أن جنوب البلاد يُعتبر مأوى لمنظمة القاعدة في جزيرة العرب. وفي حال انفجار الوضع في اليمن، فسوف تواجه العربية السعودية تداعيات غير محسوبة، كما أن ملايين اليمنيين سيحاولون عبور الحدود. ولن يكون «جدار الأمان» الذي يجري إنشاؤه حالياً، بطول ١٨٠٠ كم، ذا فائدة تذكر في الحيلولة دون حدوث ذلك.

كانت العربية السعودية تتدخل في شؤون اليمن منذ زمن طويل. واليمن، على غرار البحرين، يُعتبر عملياً شأناً داخلياً بالنسبة إلى الرياض ـ والواقع أن هذين الملفَّيْن المتعبين قد عُهد بهما إلى وزارة الداخلية. ولا يقتصر التدخل السعودي على تقديم إعانات سخية إلى عدد كبير من زعماء القبائل، وعلى رعاية المؤسسات السَّلَفية في المناطق التي يشكّل فيها الشيعة اليمنيون أغلبية، وعلى التدخل العسكري أحياناً؛ الأمر هنا يتضمن إلى جانب ذلك شراكة وثيقة مع حكومة صنعاء. والواقع أن النظام السعودي تدخل مباشرة مرة أخرى ونجح لبعض الوقت ـ وكان ذلك خلال الفترة ٢٠١١ ـ ٢٠١٢ لوضع حد لثورة شعبية اندلعت على غرار ثورات الربيع العربي.

إثر خلع الرئيس التونسي بن علي بفترة وجيزة، اندلعت موجة كبيرة من الاحتجاجات في صنعاء أيضاً. طالبت أحزاب المعارضة الرئيسة بإصلاحات سياسية، لكن المتظاهرين الشباب، والأعضاء الناشطين في تلك الأحزاب، مثل توكُّل كرمان العضو في حزب الإصلاح، وهي سيدة حصلت لاحقاً على جائزة نوبل للسلام، طالبوا برحيل الرئيس اليمني، علي عبد الله صالح، الذي كان يرأس البلاد منذ عام ١٩٧٨. وفّر سقوط مبارك في الحادي عشر من شباط/فبراير من عام ٢٠١١ زخماً إضافياً للمتظاهرين. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح الشعار الذي تبناه المتظاهرون هو «الشعب يريد إسقاط النظام». في منتصف شهر آذار/مارس، تحولت تظاهرة سلمية في صنعاء إلى حمام دم، فقد

(١٢) Ahmad Ghallab, «Saudi Arabia Reiterates Full Support for Libya,» Al-Monitor (16 November 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/politics/2014/11/libya-chaos-saudi-arabia-support-ansar-al-sharia-terrorist.html#> (Last accessed 19 November 2014).

قتل القناصة أكثر من خمسين متظاهراً. وفي الوقت نفسه حصل انشقاق في النظام وبدا الوضع على وشك الانفلات الكامل. قررت السعودية التدخل بالوسائل الدبلوماسية.

في ربيع عام ٢٠١٢، تم تبنّي اقتراح في مجلس التعاون الخليجي، قُدم بمبادرة من الرياض، يقضي باستقالة الرئيس صالح مقابل ضمان عدم تعرضه هو وأفراد عائلته لأي دعاوى قضائية جنائية مستقبلاً. بعد تردد طويل، وافق علي عبد الله صالح على هذه الخطة ـ مُنح عشرة أشهر كاملة ليغادر البلاد. وبالمقارنة مع مصائر كل من بن علي ومبارك والقذافي، يبدو الحكم الذي واجهه عبد الله صالح متساهلاً على نحو استثنائي. خرج المتظاهرون الشباب إلى الشوارع للاحتجاج على الترتيب الذي أعدته العربية السعودية في الكواليس بالتشاور مع النخبة السياسية اليمنية. فلم يقتصر الأمر على السماح لصالح، وبكل بساطة، بالبقاء في اليمن؛ بل كانت هناك مخاوف من أنه سيستمر في توجيه الأمور من خلف الأبواب المغلقة، وهذا ما حصل.

لكن التقدم السريع والمفاجئ الذي أحرزه الثوار الحوثيون الشيعة (الزيديون)، بالمشاركة مع القوات العسكرية التي ظلت على ولائها لصالح، في سعيهم للاستيلاء على صنعاء في أيلول/سبتمبر من عام ٢٠١٤، وضَع العربية السعودية بمواجهة معضلة في بداية الأمر. ورغم أن الحوثيين لا يُعتبرون وكلاء لإيران، منافِسة العربية السعودية، فإن طهران تدعم الثوار. من جهة أخرى، وضع تقدُّمُ الثوار الحوثيين حداً لاندفاع حزب الإصلاح، وهو فرع من حزب الإخوان المسلمين الذي تعتبره السلطات في الرياض منظمة إرهابية. كما ويُعتبر الحوثيون أعداء لدودين لفرع القاعدة في الجزيرة العربية. في البداية، رحبت كل من إيران والعربية السعودية بحكومة الوحدة التي اتُّفق عليها في أيلول/سبتمبر، وذلك طوال الأشهر القليلة التي دامت فيها. لكن الوضع ساء في صنعاء، فأغلقت السفارات الأجنبية أبوابها. ألغى الرئيس هادي، الذي كان قد استقال، استقالته وفرَّ إلى عدن ومن ثم إلى الرياض. وفي آذار/مارس من عام ٢٠١٥، شنَّت العربية السعودية، التي كانت تترأس تحالفاً يضم العرب السنّة، غارات جوية ضد تحالف الحوثيين ـ صالح لدفع الحوثيين للعودة إلى مناطقهم شمال اليمن ولإعادة تنصيب هادي. وعندما وصل الوضع في اليمن إلى طريق مسدود من الناحية العسكرية (وإلى كارثة إنسانية)، أرسلت العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والبحرين وقطر، في أيلول/سبتمبر من عام ٢٠١٥، قوات عسكرية برية. حتى الآن، يبدو الشعب السعودي مؤيداً لهذه الحرب التي ترافقت بحملة دعائية شرسة ضد إيران. ومهما كانت نتيجة الحرب في اليمن، يظل هذا البلد واحداً من أهم الملفات بالنسبة إلى السعودية وأكثرها إزعاجاً.

خامساً: سورية

انخرطت العربية السعودية في الشأن اليمني منذ البداية، لكن الملك عبد الله اتصل ببشار الأسد هاتفياً في بداية الاحتجاجات في درعا (في آذار/مارس من عام ٢٠١١) للتعبير عن «دعم المملكة

لسورية في مواجهة المكائد التي تستهدف أمن واستقرار سورية»[13] وبعد فترة قصيرة من اندلاع المواجهات الدموية، تحدث الملك بالهاتف مع الرئيس السوري لمدة ثلاث ساعات. ولم يحصل الانقلاب المفاجئ في موقف الرياض قبل بداية شهر آب/أغسطس من ذلك العام. استدعي السفير السعودي «لإجراء مشاورات» وألقى الملك خطاباً دعا فيه إلى إيقاف «آلة القتل» وإلى البدء بإجراء إصلاحات. ما تفسير هذا التحول المفاجئ في الاتجاه؟

يبدو أن سبب التغيير كان الوضع الداخلي في العربية السعودية، والتحالف بين الأسد وإيران، بالطبع. انطلقت حملة عنيفة داعمة لحركة التمرد السورية عبر شبكة الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي والقنوات التلفزيونية الفضائية. التقط رجال الدين البارزون المبادرة. فقد شبّه الواعظ الراديكالي محمد العريفي، مثلاً، الرئيس السوري بـ «الفرعون» وحض «زعماء الأمة [الإسلامية] على الثورة ومقاومة الأعمال البربرية»[14]. كان للشعراء أيضاً حصتهم إذ دبّجوا القصائد التي تحث الملك على دعم نضال الثوار السوريين ونُظِّمت التظاهرات في الرياض وفي جدة وُصِفَ فيها الرئيس السوري بـ «كلب الأمة» وهتف المتظاهرون «نفدي الملك بدمائنا»[15].

تضمّن البيان الرسمي التالي للملك، في بداية شهر آب/أغسطس، أول انتقاد رسمي لسورية من قِبَل رئيس دولة عربية وشكّل جزءاً من السياسة الخارجية للعربية السعودية التي شرعت تنزع نحو تأكيد ذاتها. بعد ستة أشهر، أي في بداية شهر شباط/فبراير من عام ٢٠١٢، قال الملك عبد الله، أثناء لقائه بالرئيس الروسي ديمتري مدفيديف، إن بلاده «لن تتخلى أبداً عن التزاماتها الدينية والأخلاقية إزاء ما يحدث»[16].

كان قد انقضى بعض الوقت، واعتباراً من تلك اللحظة بدأت العربية السعودية، ومعها قطر وتركيا بتوريد الأسلحة إلى الثوار في سورية على نحو حثيث. لكن ذلك وضع النظام في موقع حرج ـ فالجماعات الدينية المحافِظة كانت تبذل أقصى جهدها لاستدعاء المتطوعين للالتحاق بـ «الجهاد» في سورية. بل إن سلمان العودة، الذي كان يُعتبر «معتدلاً» على وجه العموم، قدّم نفسه بصورة الداعي إلى الجهاد، رغم لجوئه إلى استخدام لغة حذرة. كتب على موقعه في تويتر: «إذا استمر القتل، فلن يصغي الشباب [إلى الحكومة التي لم تكن تدعو رسمياً إلى المشاركة السعودية في الجهاد في سورية]». ورداً على سياسة الحكومة التي تفرض قيوداً على التبرع للثوار، حذّر

(١٣) Ahmed al Omran, «Saudi Arabia: A New Mobilisation,» in: «What Does the Gulf Think about the Arab Awakening?».

(١٤) وقال العريفي ذلك خلال خطبة الجمعة بتاريخ ٥ أيار/مايو ٢٠١١. انظر: <http://www.youtube.com/watch?v=Irwy9DZTR48> (Last accessed 1 July 2014).

(١٥) Satoru Nakamura, «New Omnibalancing Theory and Tasks for Preventive Diplomacy: The Case of Saudi Arabian Foreign Policy during the Syrian Humanitarian Crisis,» (Unpublished paper for the Gulf Research Meeting, Cambridge, UK, July 2013), p. 13, <http://gulfresearchmeeting.net/index.php?pgid=MTg2&pid=NzY4>.

(١٦) Jonathan Schanzer, «Saudi Arabia is Arming the Syrian Opposition,» *Foreign Policy* (27 February 2012), <http://www.foreignpolicy.com/articles/2012/02/27/saudi_arabia_is_arming_the_syrian_opposition> (Last accessed 1 July 2014).

العودة من أن «التبرعات إلى سورية لا يمكن أن تظل محصورة ضمن قناة واحدة؛ فمن يرغب بمد يد العون لن يعدم الوسيلة للقيام بذلك».

كانت السياسة المعتمدة منذ البداية، والمدعومة بفتاوى العلماء الرسميين، تقضي بعدم إرسال أي جهاديين إلى مناطق الحرب في سورية. فلم تكن السعودية قد نسيت بعد الجهاديين الذين عادوا من أفغانستان والذين توجّه اهتمامهم إلى العائلة المالكة بعد عام ٢٠٠٣. لكن الأمور كانت مختلفة على الصعيد العملي. فقد وصف محمد القحطاني، أحد أشهر الناشطين في مجال حقوق الإنسان في البلاد، سياسةَ الحكومة بأنها سياسة من نوع «لا تسأل، لا تُخْبِر «don't ask, don't tell». خلال عام ٢٠١٤، وبعد قيام الجماعة المتطرفة «الدولة الإسلامية» بـ «تحرير» أجزاء واسعة من سورية والعراق المجاورة، وفق تعبيرها، قالت بعض التقارير إن ما لا يقل عن ٣٠٠٠ سعودي قد التحق بصفوفها(١٧). ولا يبدو الأمر مستغرباً إذا تذكرنا أنه لا يوجد اختلاف كبير بين المبادئ الأيديولوجية للوهابية السعودية وتلك الخاصة بتنظيم الدولة الإسلامية(١٨). واستناداً إلى معظم المصادر، يشكّل السعوديون والتوانسة والليبيون المجموعة الأكبر من المقاتلين الأجانب الذين يحاربون في صفوف الثوار المتطرفين(١٩).

بدأت الحكومة السعودية، في شهر شباط/فبراير من عام ٢٠١٤، تدرك أن هذا التطور ليس بالأمر المستحب من حيث إنه يحمل في طياته احتمال إحداث «تأثير الضربة الارتدادية»، شبيه بما حدث بعد عودة الجهاديين السعوديين من أفغانستان (وهذا ما حصل عندما هاجم تنظيم الدولة الإسلامية في شهرَيْ أيار/مايو وآب/أغسطس من عام ٢٠١٥، مسجدين شيعيين في المنطقة الشرقية ومجمعاً للشرطة في الجنوب، على التوالي). جرى إصدار قانون جديد صارم ضد الإرهاب تضمن أحكاماً بالسجن على الجهاديين العائدين من أية منطقة حربية أجنبية. صادف هذا الإجراء، إلى حد ما، مع إقالة الأمير بندر بن سلطان، رئيس جهاز الاستخبارات السعودية، الذي كان مسؤولاً عن الملف السوري. تولى وزير الداخلية، الأمير محمد بن نايف، وما يزال، مهام الأمير بندر. عندما

---

(١٧) تعطي المصادر المختلفة أرقاماً مختلفة، لكن تقديرات عدة أجهزة مخابرات تقول إن هناك، على الأقل، ٣٠٠٠ مقاتل سعودي في صفوف تنظيم الدولة الإسلامية. انظر: جمال خاشقجي، «هل لدينا «حالة داعشية» في السعودية؟،» الحياة، ٢٠١٤/٧/١٢. انظر أيضاً: Patrick Cockburn, *The Jihadis Return: ISIS and the New Sunni Uprising* (New York; London: OR Books, 2014).

(١٨) Alastair Crooke, «You Can't Understand ISIS If You Don't Know the History of Wahhabism in Saudi Arabia,» *Huffington Post*, 27/8/2014, <http://www.huffingtonpost.com/alastair-crooke/isis-wahhabism-saudi-arabia_b_5717157.html> (Last accessed 16 September 2014).

(١٩) Aaron Y. Zelin, Evan F. Kohlmann, and Laith al-Khouri, «Convoy of Martyrs in the Levant: A Joint Study Charting the Evolving Role of Sunni Foreign Fighters in the Armed Uprising against the Assad Regime in Syria,» Washington Institute (June 2013), <http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/convoy-of-martyrs-in-the-levant>; Frud Bezhan, «The Rise of Al-Qaeda 2.0,» *The Atlantic*, 24/7/2013, <http://www.theatlantic.com/international/archive/2013/07/the-rise-of-al-qaeda-20/278059> (Last accessed 14 September 2014); Aaron Y. Zelin, «The Saudi Foreign Fighter Presence in Syria,» Combating Terrorism Center, West Point, 28 April 2014, <https://www.ctc.usma.edu/posts/the-saudi-foreign-fighter-presence-in-syria> (Last accessed 14 September 2014), and Cockburn, Ibid.

كان الأمير محمد بن نايف وكيلاً لوزارة الداخلية، شن حملة شعواء على الجهاديين السعوديين داخل العربية السعودية وفي اليمن، وقد تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة، بواسطة هجوم انتحاري نفذه جهادي (آب/أغسطس ٢٠٠٩).

في شهر أيلول/سبتمبر من عام ٢٠١٤، وإثر إعلان الرئيس أوباما عن نيته «تفكيك هيكلية تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والمشرق ISIL [وهو الاسم الذي تطلقه حكومة الولايات المتحدة على تنظيم الدولة الإسلامية]، ومن ثم تدميرها»[٢٠]، كانت العربية السعودية واحدة من الدول العربية العشر التي وعدت بتقديم الدعم للولايات المتحدة في حربها ضد الخليفة الذي كان قد جرت مبايعته قبل فترة وجيزة. شاركت الطائرات المقاتلة السعودية في الهجمات التي شُنَّت ضد الدولة الإسلامية. تتجلى الأهميةَ التي كانت توليها الرياض لمحاربة الدولة الإسلامية في تولّي أحد أبناء ولي العهد آنذاك، سلمان، قيادة إحدى الطائرات المقاتلة، وهو الحدث الذي لقي تغطية صحفية واسعة، فقد بدا واضحاً أن الشعبية المتنامية للدولة الإسلامية، التي تدَّعي بأنها تمثِّل حقيقة الإسلام، في صفوف الشباب المتطرفين، بدأت تشكِّل خطراً مباشراً على العائلة المالكة السعودية. ولربما تساءل المرء إن كانت السلطات السعودية قد تأخرت في اتخاذ إجراءات صارمة. وبالنظر لدعم العربية السعودية للمجموعات الجهادية وغير الجهادية، على السواء، فقد تجاوزت قطر في الدعم العسكري والسياسي الذي تقدمه للصراع في سورية. يُعتبر السعوديون، في الوطن العربي، من أكثر الدعاة حماسة للمواجهة العسكرية ضد حكومة بشار الأسد.

هناك العديد من الدوافع التي تحرض على مساعدة الثوار في سورية، لكن دافع التنافس مع إيران كان أكثرها أهمية. فدول الخليج، والعربية السعودية على وجه الخصوص، تشعر بقلق متزايد تجاه تنامي نفوذ طهران في المنطقة، ولا سيَّما بعد الاتفاق النووي الذي أُبرم في تموز/يوليو من عام ٢٠١٥ ـ رغم أن هذه الدول تغالي دائماً في تقدير خطورة هذا الاتفاق. بالتالي، فإن الدول المذكورة ترحب بوجود أي عذر لكبح جماح إيران، وتمثل الحرب في سورية الفرصة المنتظرة. وعادة ما يُقدم الدعم للمتمردين السوريين ضمن إطار مذهبي ـ على أساس أن هذه الحرب هي معركة بين الشكل «الصحيح» (السنّي) من الإسلام والشيعة «الهراطقة». بالإضافة إلى نظام الأسد، يبدو الهدف الرئيس هو حليفه اللبناني حزب الله، الذي يُعتبر أيضاً حليفاً قوياً لإيران. ولذلك نرى العربية السعودية تتدخل في لبنان نفسه باستمرار. وعلى نحو متزايد. في أواخر عام ٢٠١٣، تعهدت العربية السعودية بتقديم ثلاثة مليارات دولار للجيش اللبناني في محاولة لموازنة تأثير حزب الله.

---

(٢٠) David Hudson, «President Obama: «We Will Degrade and Ultimately Destroy ISIL».» White House, 10 September 2014, <http://www.whitehouse.gov/blog/2014/09/10/president-obama-we-will-degrade-and-ultimately-destroy-isil> (Last accessed 15 October 2014).

سادساً: إيران

تتجذر مشاعر الارتياب بالشيعة عميقاً في نفوس السعوديين. ففي دول الخليج غالباً ما يُشار إليهم باسم «العجم»، ما يعني ضمناً أن ولاءهم لإيران. لكن الواقع غير ذلك تماماً ـ فأغلبية الشيعة هم من العرب. مع ذلك، يظل الفزع «التمدد الشيعي» سمة دائمة للذهنية السعودية. وحتى المفكرون الليبراليون، مثل خالد الدخيل، يبدون عاجزين عن التحرر من هذه النزعة: «المشروع الإيراني ... هو مشروع مذهبي سيعيد الأمة إلى مفهوم الإمام المعصوم وولاية الفقيه، الذي يقوم عليه هذا المشروع» (وهو النموذج السياسي للجمهورية الإسلامية الإيرانية(٢١). أضحت السياسة الخارجية السعودية في السنوات الأخيرة تتسم بالمذهبية أكثر فأكثر. فالصراع الذي كان في الأصل صراعاً جيوبوليتيكياً، جرى اختزاله إلى صراع ديني بين السنّة والشيعة. وقد لعبت العربية السعودية بالورقة المذهبية بإصرار أكبر منذ بداية الربيع العربي. وتدعمها في التوجّه السلطاتُ الدينية العليا. فالمفتي العام، مثلاً، قال إن الإيرانيين كانوا «يتعاونون على الإثم والعدوان» لدى دعمهم المتمردين الشيعة في اليمن(٢٢).

على المدى القصير، تلقى السياسة من هذا النوع تأييد من يدينون بنفس المذهب، داخل البلد وفي أماكن أخرى من الوطن العربي، ولكن ليس دون ثمن. فاستثارة المشاعر الطائفية لن تؤدي سوى إلى تفاقم المشاكل في دول مثل العراق والبحرين وإلى رمي الشيعة العرب في أحضان إيران رغم أنوفهم، وهو ما لم يكن مقصوداً في الأصل. كما أن من الواضح أن رفع وتيرة التوترات الطائفية يفسح في المجال للمجموعات الجهادية التي تتبع نهج القاعدة، ومؤخراً نهج الدولة الإسلامية. فإحدى العلامات الفارقة لهذه الأخيرة هو كونها مناهضة للشيعة.

يتفادى اللاعبون السياسيون الشيعة في السعودية وفي أماكن أخرى في المنطقة، أكثر فأكثر، اللجوء إلى خطاب مذهبي صريح، ويبدو أنهم بذلك يسيرون على نهج إيران. ففي طهران، لا يسمع المرء تصريحات حول الإسلام الشيعي قدر ما يسمع حول الدين الإسلامي عموماً. هناك يسود الإدراك بأن الشيعة يمثلون أقلية (١٠ ـ ١٥ بالمئة) من مجموع عدد المسلمين في العالم، بالتالي، فإن لفت الانتباه إلى الهوية الشيعية سيكون له على الأغلب تأثير معاكس للهدف المرجو.

ظلت السعودية، ولمدة طويلة، تعتقد بأن وقوف الولايات المتحدة في صفّها هو من المسلّمات، ومن هنا كانت بدايات التقارب الحذر بين واشنطن وطهران، في خريف عام ٢٠١٣، بمثابة ضربة قاسية أيقظتها من أوهامها. كما أدى انتخاب رئيس جمهورية إيراني أكثر اعتدالاً، وهو الشيخ حسن روحاني، إلى توفير فرصة ملائمة لباراك أوباما لإيجاد حل سياسي محتمل للخصومة الناجمة

---

(٢١) Khaled al-Dakhil, «Saudi Arabia Struggles to Find Role Amid Regional Changes,» Al-Monitor (4 July 2013), <http://www.al-monitor.com/pulse/politics/2013/07/saudi-arabia-iran-arab-spring-regional-role.html> (Last accessed 3 July 2014).

(٢٢) Glen Carey, «Saudi Mufti Warns against Sectarian Strife in the Middle East,» Bloomberg Business (15 May 2011), <http://www.bloomberg.com/news/articles/2011-05-15/saudi-grand-mufti-warns-against-sectarian-strife-in-middle-east> (Last accessed 3 July 2014).

عن البرنامج النووي الإيراني. ولم يكن أوباما، على أية حال، يؤيد توجيه ضربة عسكرية استباقية للمنشآت النووية الإيرانية، كما كانت إسرائيل تطالب دائماً. كان الملك عبد الله أيضاً يؤيد تنفيذ هجوم ضد إيران. فاستناداً إلى ما ورد في رسالة مسرّبة بعث بها إلى واشنطن السفير الأمريكي في الرياض، في عام ٢٠١٠، طالب الملك وِلأكثر من مرة في أحد الاجتماعات التي عقدت عام ٢٠٠٨ «بقطع رأس الأفعى»[٢٣].

أحسّت الرياض بالاشمئزاز لدى توصّل مجموعة الدول الخمس +١ (الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن+ ألمانيا) إلى اتفاق أولي مع إيران لمدة ستة أشهر، في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ٢٠١٣. وجدت العربية السعودية نفسها بحكم الأمر الواقع في نفس المعسكر مع إسرائيل؛ أدانت الدولتان الاتفاق بوصفه شديد التساهل مع إيران. بل إن إسرائيل راودتها فكرة إقامة علاقات رسمية مع العربية السعودية. فقد صرّح أفيغادور ليبرمان (Avigador Lieberman) أن المباحثات بدأت بين إسرائيل والعربية السعودية والكويت بشأن إقامة علاقات دبلوماسية تستند إلى مشاعر الارتياب بإيران المشتركة بين الدول الثلاث. وقال دانيال ليفي (Daniel Levy)، مدير الشرق الأوسط في المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية، مازحاً: «أغمض عينيك، ولن تدرك على وجه التأكيد إن كان المتكلم إسرائيلياً أم سعودياً»[٢٤]. لكن حلفاً كهذا يبدو مجرد خيال، إذ إن من شأنه إثارة موجة احتجاجات خطيرة في أوساط رجال الدين وبين قطاعات واسعة من الشعب.

في صيف عام ٢٠١٤، بدا وكأن التهديد المتنامي الذي تمثله الدولة الإسلامية أدى إلى مزيد من التقارب بين الولايات المتحدة وإيران، اللتين كانتا تناصبان العداء لأولئك المتطرفين السنّة. بل إنه بدا وكأن هناك بعض الإشارات إلى انفتاح بين إيران والعربية السعودية التي كانت أيضاً، في نهاية المطاف، ترى في الدولة الإسلامية تهديداً لها. لكن تلك الإشارات تلاشت على خلفية إطار الاتفاق الذي تم التوصل إليه في نيسان/أبريل من عام ٢٠١٥، بين إيران ومجموعة الخمسة+١، ما أدى إلى ازدياد التوترات في المنطقة أكثر من ذي قبل. أعقب ذلك، في تموز/يوليو من عام ٢٠١٥، خطة العمل الشاملة المشتركة، وهو اتفاق تقوم إيران بموجبه بوضع قيود على برنامجها النووي لمدة خمسة عشر عاماً وبقبول إجراء تفتيش دقيق من قِبَل الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وذلك مقابل الرفع التدريجي للعقوبات الدولية. بعد تقديم وعود بتسليم أسلحة أميركية، رحّب مجلس التعاون الخليجي، بما في ذلك العربية السعودية، رسمياً بالاتفاق النووي. لكن المسؤولين

(٢٣) Ross Colvin, ««Cut Off Head of Snake» Saudis Told US on Iran,» Reuters, 29 November 2010, <http://www.reuters.com/article/2010/11/29/us-wikileaks-iran-saudis-idUSTRE6AS02B20101129> (Last accessed 2 February 2013).

(٢٤) Helene Cooper, «Converging Interests May Lead to Cooperation between Israel and Gulf States,» *New York Times*, 31/3/2014, <http://www.nytimes.com/2014/04/01/world/middleeast/converging-interests-may-lead-to-cooperation-between-israel-and-gulf-states.html?_r=0> (Last accessed 3 July 2014); Bernard Haykal and Daniel Kurtzer, «Middle East Frenemies,» Project Syndicate (13 December 2013), <http://www.project-syndicate.org/commentary/bernard-haykel-emphasizes-the-limits-to-saudi-israeli-cooperation-in-confronting-iran>, and Yuval Karni, «Lieberman: Israel Holds Clandestine Talks with Arab Countries,» *Ynet News*, 14/4/2014, <http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4510125,00.html> (Last accessed 3 July 2014).

السعوديين لم يكفوا عن التحذير من أن إيران تهدد استقرار الشرق الأوسط بممارساتها في سورية والبحرين والعراق واليمن. وتوقع بعض المحللين أن يكون المقصود من استمرار دعم الولايات المتحدة للحرب السعودية ضد الحوثيين وحلفائهم في اليمن، هو طمأنة الرياض بأن واشنطن لن تتخلى عن حلفائها في الخليج العربي بسبب تحالفها الجديد مع إيران.

سادساً: مصر

هناك مثل شائع عند العرب، ولدينا أيضاً، يقول «عدو عدوي، صديقي». تبدو التطورات الحاصلة في مصر منذ تسلّم الإخوان المسلمين السلطة في حزيران/يونيو من عام ٢٠١٢، أفضل مثال على ذلك. أولاً، كان على العربية السعودية أن تستفيق من صدمة إطاحة حسني مبارك، أحد أهم الحلفاء الذين يُعَوَّل عليهم في المنطقة. ولدى تسلّم محمد مرسي السلطة، وجدت العربية السعودية نفسها بمواجهة كارثة وشيكة محتملة. ورغم أن العلاقات بين الدولتين لم تصل إلى الحضيض مباشرة ـ إذ كانت العلاقات العسكرية بين البلدين، من بين أمور أخرى، وثيقة بحيث لا تسمح بذلك ـ فإن الوضع كان يستدعي من الرياض إبداء حذر استثنائي.

لم تكن العلاقات مع الإخوان المسلمين دائماً على هذه الدرجة من السوء ـ وتسود حتى اليوم مشاعر التعاطف مع هذه الحركة في بعض قطاعات الشعب، بمن فيها قطاع رجال الدين. خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وفرت العربية السعودية ملجأ لعدد كبير من الإخوان المسلمين الذين فروا من الاضطهاد في عهد الرئيس عبد الناصر (وفي عهود أنظمة عربية أخرى، مثل أنظمة سورية والجزائر والعراق). وجد هؤلاء لأنفسهم مكاناً في المجال التعليمي وفي منظمات عديدة عابرة للحدود القومية أنشأها الملك فيصل لمواجهة النفوذ المتنامي لحركة القومية العربية والحركة اليسارية. عقب الغزو السوفياتي لأفغانستان في كانون الأول/يناير من عام ١٩٧٩، تطوع العديد من الإخوان المسلمين للجهاد ضد الشيوعيين. وبمرور السنين، ذهب مئات آلاف المصريين إلى العربية السعودية للعمل فيها ـ يقارب مجموع عددهم حالياً المليون ونصف المليون شخص[٢٥].

بعد غزو العراق للكويت، في آب/أغسطس من عام ١٩٩٠، فترت العلاقة بين العربية السعودية والإخوان المسلمين. فلم يكتف الإخوان المسلمون فقط بإبداء التعاطف مع صدام حسين في «جهاده ضد الغرب»؛ بل إنهم، وقبل كل شيء، عارضوا مجيء قوات أمريكية إلى الأرض السعودية. كما وظهرت احتجاجات بين صفوف الشعب السعودي. فقد قال الواعظ سلمان العودة بغضب: «هل أصبحت أمريكا إلهكم الآن؟» وفي الرياض، صاح أحد الأئمة من على المنبر: «إذا دخل

(٢٥) Yasmine Farouk, «More than Money: Post-Mubarak Egypt, Saudi Arabia, and the Gulf,» GRC Gulf Paper (Gulf Research Center) (April 2014), <file:///C:/Users/User/Downloads/Egypt_Money_new_29-4-14_2576.pdf> (Last accessed 16 September 2014).

كلب أرضك، فهل تدعو أسداً ليخلصك منه؟»[٢٦] عقب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ساءت العلاقات أكثر. في عام ٢٠٠٢، قال ولي العهد نايف، وزير الداخلية: «الإخوان المسلمون هم سبب معظم مشاكل الوطن العربي وقد تسببوا بالكثير من الضرر للعربية السعودية. لقد قدمنا لهذه المجموعة أكثر مما يجب من الدعم... الإخوان المسلمون دمّروا العالم العربي»[٢٧] وما زاد الأمور سوءاً، هو أن الإخوان المسلمين، بوساطة من حركة حماس، تحالفوا مع «محور المقاومة»، الذي يضم إيران وسورية وحزب الله. وصلت العلاقات إلى الحضيض عندما اتهم الأميرُ نايف الإخوانَ المسلمين ليس فقط بأنهم السبب في غرس التطرف في أذهان الشباب السعوديين، بل اتهمهم أيضاً ـ ودون أي أساس ـ بأنهم مسؤولون عن موجة الأحداث الإرهابية التي حصلت في العربية السعودية خلال الفترة بين ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٨.

ما سر هذه المشاعر العنيفة من جانب الأسرة المالكة السعودية تجاه الإخوان المسلمين؟ بإمكاننا أن نتفهم أن زيارة مرسي إلى المنافس الأكبر، إيران، في آب/أغسطس من عام ٢٠١٢، ربما تكون قد استثارت حنق الرياض، ولكن عدا ذلك، ما هي المشكلة؟ الجواب ببساطة هو أن وجود الإخوان المسلمين في السلطة في مصر كان يمثّل تهديداً مباشراً للاحتكار السعودي للسيطرة السياسية الإسلامية وللنفوذ. فالسلطة السعودية، خلافاً للإخوان المسلمين، لا تقوم على أساس التمثيل الديمقراطي (بما في ذلك الانتخابات الحرة)، بل تستند إلى مبدأ الولاء المطلق للملك. أما الإخوان المسلمون فهم يمثلون إسلاماً سلساً لا يحمل صبغة سياسية. كانت الرسالة واضحة ـ من الأفضل الإسراع بإطاحة حكومة مرسي.

ما إن استولى الجيش على السلطة في مصر، في بداية شهر تموز/يوليو من عام ٢٠١٣، حتى سارعت العائلة المالكة السعودية إلى تهنئة النظام الجديد. وفي محادثة هاتفية، عبّر الملك عبد الله عن سعادته لأن الجنرال عبد الفتاح السيسي أنقذ البلاد من «نفق مظلم»[٢٨]. لم تحرّك الرياض ساكناً ولم يصدر عنها أي احتجاج لدى قيام الجيش المصري، بعد أيام، بإطلاق النار على متظاهرين مؤيدين لمرسي. تلقى النظام الجديد وعوداً بالحصول على رزمة معونات تبلغ خمسة مليارات دولار (إضافة إلى ثلاثة مليارات من الإمارات العربية المتحدة وأربعة مليارات من الكويت). كانت تلك المساعدات زيادة على التمويل الذي استمر لسنوات للقوى المناوئة للإخوان المسلمين في مصر، عبر القنوات السياسية ووسائل الإعلام. بعد بضعة أسابيع، صرّح الملك ثانية أنه يدعم السيسي مئة بالمئة. قال: «فليدرك كل العالم أن شعب وحكومة المملكة العربية السعودية دعما

(٢٦) James Piscatori, «Religion and Realpolitik: Islamic Responses to the Gulf War,» in: James Piscatori, ed., *Islamic Fundamentalism and the Gulf Crisis* (Chicago, IL: The American Academy of Arts and Sciences, 1991), p. 10.

(٢٧) Gresh, «Gulf Cools towards Muslim Brothers».

(٢٨) Sultan Saooud Al Qassemi, «Gulf States Embrace Post-Brotherhood Egypt,» Al-Monitor (10 July 2013), <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2013/07/gulf-states-egypt-muslim-brotherhood.html> (Last accessed 1 July 2014).

وما زالا يدعمان إخواننا في مصر بمواجهة الإرهاب والتطرف والفتنة، وبمواجهة كل من يحاول التدخل في الشؤون الداخلية لمصر»(٢٩). في منتصف عام ٢٠١٤، دعا الملك عبد الله إلى مؤتمر للمانحين لمساعدة مصر في مكافحة الإسلام السياسي. وقال الملك إن أية دولة لا تسهم في بناء مستقبل مصر «لن يكون لها مكان بيننا في المستقبل»(٣٠). في هذه الأثناء، كانت العربية السعودية قد أصبحت ثاني أكبر مستثمر أجنبي في مصر، كما ظلت الشريك التجاري الرئيس لمصر.

أشار مستخدم تويتر mujtahidd@ من طرف خفي إلى أن العربية السعودية ربما كانت لها اليد الطولى في الانقلاب:

«أدرك الملك عبد الله جيداً أن فشل الانقلاب سيكون بمثابة الكارثة على العائلة السعودية... بالتالي، كان الملك ضمن الذين يدعون للجوء إلى العنف المفرط لإخماد الاحتجاجات. وهو لم يكتف بدعم الانقلاب، بل أقنع الآخرين بقبول التغييرات».

باختصار، يشير mujtahidd@ من طرف خفي إلى أن الملك عبد الله قد وعد السيسي، فعلياً، بمليار دولار قبل أيام من حصول الانقلاب.

لم تكتف الحكومة السعودية بدعم الانقلاب العسكري في مصر. ففي القانون الجديد لمكافحة الإرهاب، الصادر في شباط/فبراير من عام ٢٠١٤، وُصِفَ الإخوان المسلمون بأنهم «منظمة إرهابية»، وسعت الحكومة السعودية ـ دون أن تفلح في البداية ـ إلى إقناع الجامعة العربية باتخاذ مبادرات جماعية بهذا الشأن. في شهر آذار/مارس استدعت كلٌ من العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والبحرين سفيرها من قطر لإجبار هذه الدولة الخليجية على التخلي عن علاقاتها التي تتسم بالود الشديد مع الإخوان المسلمين، أو على الأقل جعْل هذه العلاقة ضمن الحد الأدنى. كانت قطر قد دعمت مرسي عندما كان رئيساً لمصر بمليارات الدولارات ـ جرت إعادة تلك الأموال بعد الانقلاب ـ واستمرت في دعم الإخوان المسلمين في ليبيا والسودان، ومجموعة الإخوان المسلمين الموجودين في المعارضة السورية. في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٤، تحدثت تقارير عن أن قطر خضعت لضغوط العربية السعودية وبقية دول مجلس التعاون الخليجي ووعدت بإيقاف دعمها لجماعات الإخوان المسلمين المتعددة. ولكن بعد اعتلاء الملك سلمان العرش، بدأ موقف العربية السعودية من الإخوان المسلمين يتسم بالليونة إلى حد ما. أصبحت إيران هي الخطر الرئيس؛ لكن الاعتبارات البراغماتية أملتْ، مثلاً، توفير الدعم لحزب الإصلاح في اليمن. فحزب الإصلاح هو فرع من عائلة الإخوان المسلمين، لكنه من جانب آخر عدو لدود للحوثيين الشيعة.

---

(٢٩) David Hearst, «Why Saudi Arabia is Taking a Risk by Backing the Egyptian Coup,» *The Guardian*, 20/8/2013, <http://www.theguardian.com/commentisfree/2013/aug/20/saudi-arabia-coup-egypt> (Last accessed 1 July 2014).

(٣٠) Simeon Kerr, «Saudi Arabia Calls on Region to Assist Egypt,» *Financial Times*, 3/6/2014, <http://www.ft.com/intl/cms/s/0/68bd01f0-eb53-11e3-bab6-00144feabdc0.html#axzz3DTVgC700> (Last accessed 30 June 2014).

يُعتبر الدعم الذي قدّمته العربية السعودية للانقلاب العسكري في مصر، والضغط الشديد الذي مارسَتْه على قطر، أحدث الأمثلة على الاستراتيجية السعودية التي تحاول التعامل مع تأثير حركات التمرد العربية والحد من هذا التأثير، وذلك بالتشاور مع غالبية دول الخليج، إضافة إلى محاولتها التقليل من جاذبية الربيع العربي داخل بلدها. لجأت العربية السعودية إلى كل الأساليب المتاحة ـ بدءاً بالحملات الإعلامية («هل تريدون الديمقراطية؟ انظروا فقط إلى الفوضى العارمة في سورية أو مصر أو في ليبيا!»)، ومن ثم الضغط الدبلوماسي (والمدعوم أحياناً بمعونات سخية، كما في اليمن)، أو بتقديم الرشى (في عُمان والمغرب والأردن)، بل وحتى التدخل العسكري المباشر، كما في حالة البحرين. ولكن لا يبدو واضحاً إن كانت كل تلك الجهود ستُحدِث أي فرق على المدى الطويل.

الفصل الحادي عشر

ملك جديد: مخاطر نقل السلطة

كان العديد من السعوديين يتمنون لو ظل الملك عبد الله في سدة الحكم لفترة طويلة. لكن الأمور لم تجرِ على هذا النحو. ففي الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير من عام ٢٠١٥، توفي الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، خادم الحرمين الشريفين، في أحد مستشفيات الرياض؛ كان قد بلغ التسعين من العمر تقريباً.

ظاهرياً، جرت عملية التوريث بسلاسة. فقد خَلَفَه، في منصب الملك ورئيس الوزراء، الوريثُ المعين سلفاً، وزير الدفاع السابق ونائب رئيس الوزراء، ولي العهد الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود (المولود عام ١٩٣٥). لكن الاعتقاد الشائع هو أن الملك الجديد لن يظل، على الأرجح، على العرش لفترة طويلة ـ فالأمر لا يتعلق فقط بكونه بلغ الثمانين من العمر، بل إن هناك شائعات متواصلة تشير إلى أنه يعاني مشاكل صحية خطيرة.

في الوقت الحالي، لا يبدو واضحاً إن كان الملك الجديد سيقوم بإبطاء، أو حتى بإلغاء، تنفيذ الإصلاحات الاجتماعية الليبرالية التي أجراها الملك عبد الله. لكن الواضح هو تاريخ هذا الملك: فقد كان مكلَّفاً من قِبَل النظام بجمع التبرعات للجهاديين في أفغانستان، في ثمانينيات القرن العشرين، وفي البوسنة أثناء الصراع في البلقان في تسعينيات القرن العشرين. كما يُعرَف عنه تعليقاته الشهيرة سيئة الصيت عقب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وذلك عندما قال للسفير الأمريكي في الرياض إن الهجمات كانت «مؤامرة صهيونية»[1]. كما صدرت عنه ادعاءات مماثلة بعد أن ارتد الدعم الذي قدمته العربية السعودية للمقاتلين الإسلاميين في أفغانستان والبلقان عليها عندما عاد الجهاديون إلى موطنهم وأطلقوا موجة من الهجمات الإرهابية في المملكة؛ إذ قال الأمير إن أولئك الجهاديين كانوا «مدعومين من قِبَل الصهيونية المتطرفة الهادفة إلى وضع حد للدعوة الإسلامية»[2].

(١) Simon Henderson, «The Man Who Would be King,» *Foreign Policy* (10 April 2012), <http://foreignpolicy.com/2012/04/10/the-man-who-would-be-king>.

(٢) David Andrew Weinberg, «King Salman's Shady History,» *Foreign Policy* (27 January 2015), <http://foreignpolicy.com/2015/01/27/king-salmans-shady-history-saudi-arabia-jihadi-ties> (Last accessed 6 February 2015).

وضع الملك عبد الله قبيل وفاته ترتيبات تضمن اعتلاء مرشحه المفضل العرش خلفاً لسلمان. ففي آذار/مـارس من عام ٢٠١٤، أصدر الملك عبد الله، بصورة مفاجئة، قراراً عيَّن فيه الأمير مقرن بن عبد العزيز آل سعود (المولود عام ١٩٤٥)، أصغر أبناء ابن سعود الذين ما زالوا على قيد الحياة، ليكون «ولياً لولي العهد». والواقع أن الأمير مقرن كان يشغل منصب النائب الثاني لرئيس الوزراء (أي ما يشبه منصب «ولي العهد في حالة انتظار») منذ شهر شباط/فبراير من عام ٢٠١٣. لكن عبد الله لدى قيامه بتعيين مقرن رسمياً «نائبَ ولي العهد»، كان يحاول تقليص سلطة سلمان بما أن هذا الأخير كان يبدو عاجزاً عن تعيين وريث له بعد اعتلائه العرش. وهذا ما حدث. فبعد إعلان وفاة عبد الله، عُيِّن الأمير مقرن فوراً ولياً للعهد.

لكن الأمر اللافت أكثر، كان تعيين الأمير محمد بن نايف بن عبد العزيز آل سعود (المولود عام ١٩٥٩) نائباً لولي العهد الجديد. احتفظ الأمير نايف بمنصبه وزيراً للداخلية، وهو منصب شغله لسنوات عديدة والده نايف بن عبد العزيز آل سعود، ولي العهد آنذاك، الذي توفي عام ٢٠١٢. وبوصول الأمير محمد إلى هذا المنصب، وصل جيل جديد من الأمراء، أخيراً، إلى قمة السلطة.

للوهلة الأولى، إذاً، بدا وكأن كل شيء قد رُتِّب لضمان انتقال سلمي للسلطة واستمرار الاستقرار في المملكة. ولكن ما كادت تمر ثلاثة أشهر حتى تنحى مقرن عن منصبِ ولي العهد، وحل محله محمد بن نايف. والمثير للدهشة أن ابن الملك الشاب، محمد بن سلمان، عُيِّن نائباً لولي العهد. هناك إشارات تنبئ عن وجود صراع على السلطة تحت السطح، ورغم أن الأمراء الساخطين لم يحركوا ساكناً حتى اللحظة، لا يسعنا التأكد إن كان هذا الهدوء سيستمر طويلاً. فضمن آلاف الأمراء، هناك بالتأكيد عدد كبير ممن يعتبرون أنفسهم جديرين بالعرش، عددٌ كاف لجعلنا نتوقع المتاعب في السنين القادمة.

أولاً: ستة وثلاثون ابناً

تزوج مؤسس المملكة العربية السعودية، ابن سعود، اثنتين وعشرين مرة، وظل مع ذلك ملتزماً التقليد الإسلامي الذي لا يسمح بجمع أكثر من أربع زوجات في وقت واحد. أثمرت كل تلك الزيجات ورُزق ابن سعود بالعديد من الأبناء. لا أحد يعرف العدد الدقيق لأولاده، لكن المصادر الأكثر وثوقية تحكي عن ستة وثلاثين ابناً وواحدة وعشرين ابنة[٣]. وتزوج أولئك الأولاد بدورهم أكثر من مرة، ما زاد عدد أفراد العائلة ليصل إلى ٧٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ أمير وأميرة، على وجه التقريب. لكن العدد الدقيق يظل سراً من أسرار الدولة لا يُسمح بكشفها.

يتوزع الأحفاد الذكور ـ وهم بالطبع الوحيدون المعنيون في هذا السياق ـ على خمسة وثلاثين فرعاً عائلياً، لكنهم ليسوا جميعاً مؤهلين لاستلام أعلى منصب في الدولة. أحد المعايير المهمة هنا

(٣) انظر على سبيل المثال: Stig Stenslie, *Regime Stability in Saudi Arabia: The Challenge of Succession* (New York: Routledge, 2012).

هو أصل الأم التي يجب أن تكون، مثلاً، عربية. تزوج ابن سعود من نساء غير عربيات، وأدى هذا إلى خفض عدد المتنافسين. يُعتبر الأبناء المولودين لأمهات يمنيات أو لبنانيات، عموماً، في مراتب أدنى في التراتبية الهرمية ـ رغم أن هذا الأمر لم يؤثر كثيراً في حالة الأمير مقرن المولود لأم يمنية. يمكن القول عموماً إن ذلك يعني أنه من بين أولاد ابن سعود الذين ما زالوا على قيد الحياة، كان ثلاثة عشر ابناً فقط مرشحين لاعتلاء العرش؛ نظرياً على الأقل. بعد أن أصبح سلمان ملكاً ترك مقرن المنصب وصار محمد بن نايف ولياً للعهد، أما الأحد عشر ابناً الباقين، فقد جرى تحييدهم فعلياً. إذ إن الجيل الثالث هو الذي سيستلم زمام الأمور بعد سلمان.

ثانياً: نزاع عائلي

من الوجهة النظرية، يمكن لأحد أبناء ابن سعود المحيّدين العودة إلى واجهة الأحداث فجأة. لكنهم طعنوا في السن. الفكرة الأهم التي تعنينا هنا، هي إن كان أبناؤهم، أي الجيل الثالث، سيذعنون للمخططات الحالية. وهذا أمر لا يمكن الجزم به. ويخمّن بعضهم أن المسرح قد أُعِد لعراك سياسي حقيقي ضمن العائلة للمرة الأولى منذ عقود(٤).

مرت السنوات الخمسون الماضية دون مشاكل تُذكَر، لكن الأمر لم يكن دائماً على هذا النحو، ولا يوجد أي ضمان بأن الأمور ستبقى على حالها في المستقبل؛ إذ لم يخلُ الأمر من بعض المصائب في الماضي. فقد تفككت الدولة السعودية الثانية (١٨٢٤ ـ ١٨٩١) لأن الأخوين عبد الله بن فيصل وسعود بن فيصل لم يستطيعا الاتفاق على مسألة الوراثة. وهكذا تمكّن طرف ثالث، وهي قبيلة الرشيد، من استغلال الفراغ الحاصل فاحتلت الرياض، وطردت آل سعود. تركت هذه الكارثة أثراً عميقاً في نفوس أبناء الأجيال التالية، وخصوصاً مؤسس المملكة الحالية، ابن سعود. بعد خمسين عاماً على الحرب داخل العائلة الواحدة، استدعى ولديه سعود وفيصل، أكبر أبنائه، إلى فراش موته، وقال لهما: «اشبكا يَدَيْ بعضكما فوق جسدي، وأقسِما أن تعملا سوياً بعد وفاتي. واقسِما أيضاً بأنكما إذا ما تنازعتما، فسوف تناقشان الأمر سراً. يجب ألّا تسمحا للعالم أن يلمَح اختلافاتكما»(٥).

لكن تحذير الوالد لم يلقَ آذاناً صاغية. لم يكد ابن سعود يوارى الثرى حتى شرع الأميران في النزاع. وكان لذلك النزاع سبب وجيه، إذ إن سعود، الذي كان الوريث، كان متلافاً لا يصلح للحكم على الإطلاق. بحلول نهاية خمسينيات القرن العشرين، كانت المملكة مفلسة عملياً، بالرغم من عائدات النفط الهائلة. تمكّن الأمير فيصل، ببطء ولكن بثقة، من الاستيلاء على السلطة الفعلية برغم

---

(٤) F. Gregory Gause III, «Saudi Arabia's Game of Thrones: King Salman Amasses Power,» *Foreign Affairs* (2 February 2015), <http://www.foreignaffairs.com/articles/142842/f-gregory-gause-iii/saudi-arabias-game-of-thrones> (Last accessed 6 February 2015).

(٥) Karen Elliott House, *On Saudi Arabia: Its People, Past, Religion, Fault Lines-and Future* (London: Vintage, 2013), p. 210.

المعارضة الشرسة من أخيه غير الشقيق. في عام ١٩٦٣، كاد نزاعهما يودي بالبلاد إلى حرب أهلية، لكن سعود أقر بهزيمته بعد عام؛ بعد أن تمكّن فيصل من إقناع العلماء بإصدار فتوى تدعم مطالبته بالعرش.

حصلت حالات التوريث التي تلت ذلك ـ من فيصل (١٩٦٤ ـ ١٩٧٥) إلى خالد، ومن خالد (١٩٧٥ ـ ١٩٨٢) إلى فهد، ومن فهد (١٩٨٢ ـ ٢٠٠٥) إلى عبد الله ـ دون مشاحنات علنية. لكن الانتقال الفعلي للحكم محفوف بالمخاطر، إذا شئنا لطف التعبير.

ثالثاً: التنافس في الخفاء

في عام ٢٠٠٧، شكّل الملك عبد الله هيئة البيعة، وهي تضم أربعاً وثلاثين من المتحدرين من صلب ابن سعود، بمن فيهم عددٌ من أحفاده. كانت المهمة النظرية لهذه الهيئة هي تحديد من سيكون ولي العهد الجديد بعد وفاته. وكانت القاعدة التي تحكم ذلك قد جرى تجاهلها لدى تعيين الأمير مقرن «ولياً لولي العهد»، عام ٢٠١٤، ورغم أن الهيئة المذكورة صادقت على عملية التوريث الحالية، لا يبدو أنها قد لعبت أي دور آخر. والواقع أن بعض المراقبين رأوا في تلك الهيئة، منذ البداية، خدعة ذكية من عبد الله لتحييد إخوته السديريين من ذوي الشأن(٦). والسديريون هم الأبناء السبعة الذين جاؤوا ثمرة زواج ابن سعود بِحَصّة بنت أحمد آل سديري، التي تنتسب إلى قبيلة نافذة في نجد، المنطقة الوسطى من السعودية. ويشكّل هؤلاء الأشقاء مع أولادهم وأحفادهم «عائلة ضمن العائلة» وقد شغلوا مناصب مهمة في جهاز الدولة لعدة سنوات.

كان هدف عبد الله من مأسسة عملية التوريث هو التخفيف من هيمنة جماعة السديريين. كما قام عبد الله بعزل عدة أشخاص من السديريين من مناصبهم وعين مكانهم أشخاصاً مؤتمنين من قِبَله. عيّن عبد الله أبناءه متعب بن عبد الله وعبد العزيز بن عبد الله وتركي بن عبد الله ومشعل بن عبد الله في مناصب أساسية (نائب وزير الخارجية ونائب حاكم الرياض وحاكم مكة، على التوالي)(٧). تآكلت مكانة السديريين ببطء ولكن بثبات، باستثناء فرعَيْ نايف وسلمان من هذه العائلة.

---

(٦) Fouad al-Ibrahim, «Undermining the Sudairi Clan: The King Manages the Power Struggle,» *Al Akhbar English*, 16/5/2014, <http://english.al-akhbar.com/node/19798> (Last accessed 6 February 2015), and Nabil Mouline, «Power and Generational Transition in Saudi Arabia,» *Critique internationale*, vol. 46 (April–June 2010), pp. 125-146.

(٧) Joseph Kéchichian, «Saudis Smooth Rough Succession Issues,» *Gulf News*, 2/4/2014, <http://gulfnews.com/opinions/columnists/saudis-smooth-rough-suc-cession-issues-1.1312917> (Last accessed 28 August 2014).

للاطلاع أكثر حول مسألة الخلافة، انظر: Bruce Riedel, «Saudi King's Sons Well-Placed for Transition,» Al-Monitor (30 May 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/tr/originals/2014/05/saudi-tran-sition-kings-sons-well-place.html#>; Michael Herb, «The Saudi Succession and Challenges Facing Saudi Arabia,» Norwegian Peace building Resource Centre (NOREF) (August 2014), <http://www.peacebuilding.no/var/ezflow_site/storage/original/application/606cfa31b5e4c02fe414bfaa82d79152.pdf>; Jean Aziz, «Changes in Saudi Defense Ministry a Matter of Family Politics,» Al-Monitor (27 May 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/ru =

تصاعد التنافس في الخفاء، وأحياناً في العَلَن، بين أبناء عبد الله وسلمان ونايف (توفي عام ٢٠١٢). ومن بين هؤلاء الأبناء، كان محمد بن سلمان آل سعود يبدو، ولفترة، المرشح الأقل حظاً في الفوز بحق الوراثة، وذلك لأسباب لا أقلها روائح الفساد المحيطة به. لذلك اعتُبر النزاع بين محمد بن نايف ومتعب بن عبد الله هو النزاع الحقيقي.

شغل محمد بن نايف منصب نائب وزير الداخلية في عهد والده، منذ عام ١٩٩٩، واعتباراً من تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٢، شغل منصب والده. كان تعيينه أول إشارة جدية إلى بدء إعداد أبناء آل سعود من الجيل الثالث لأعلى منصب في الدولة. ويُعتبر محمد بن نايف مهندس برنامج مكافحة الإرهاب الناجح خلال السنوات التي أعقبت عام ٢٠٠٣. إذ إنه لم يُبْقِ لمنظمة القاعدة شأناً يُذكر في العربية السعودية، فاضطرت إلى الفرار إلى اليمن. يقول خالد الدخيل: «كوَّن الأمير لنفسه سمعة تثير الإعجاب في هذا المجال، وهذا ما يهم النظام». وأضاف: «وللصدفة، هذا شيء يقدره الأميركيون أيضاً حق قدره»(٨).

وبحكم منصبه وزيراً للداخلية، يرأس محمد بن نايف جهاز الشرطة، وجهاز المباحث سيئ الصيت، والعديد من الوحدات الخاصة الأخرى وفِرَق مغاوير لمكافحة الإرهاب وحرس الحدود والمطاوعة. وهو أحد «القلائل الذين يستطيعون القول إنهم بذلوا دمهم في سبيل وطنهم» كما يقول المحلل السياسي سلطان القاسمي، «وهذا ادّعاء يصعب الإتيان بمثله»(٩). ويشير القاسمي هنا إلى الهجوم الانتحاري الذي دبّرته القاعدة لاغتياله، عام ٢٠٠٩، وأصيب فيه الأمير بجروح طفيفة(١٠).

إلى ذلك، الأمير محمد هو واضع القانون الصارم الجديد لمكافحة الإرهاب، الصادر في شباط/فبراير من عام ٢٠١٤، الذي لا يكتفِ بتجريم التطرف العنيف بوصفه إرهاباً، بل ضم إليه أيضاً المعارَضة المسالِمة. وخلال عهده في الوزارة، حُكِم على النشطاء الليبراليين بالسجن لسنوات طويلة. والمثال سيئ الذكر هو المدوّن الليبرالي رائف البدوي الذي حُكِم عليه بالسجن لعشر سنوات وبألف جلدة لأنه أهان الإسلام. يتبنى الأمير آراء دينية متشددة، وقد قال أحد أصدقائه إن

= /originals/2014/05/reshufflings-saudi-defense-ministry-abdullah.html>; Simon Henderson, «After King Abdullah: Succession in Saudi Arabia,» *Policy Focus* (Washington Institute for Near East Policy), no. 96 (August 2009), <http://www.washingtoninstitute.org/uploads/Documents/pubs/PolicyFocus96_Henderson.pdf>, and Simon Henderson, «Saudi Arabia's Family Feud,» *Foreign Policy* (7 July 2014), <http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/saudi-arabias-family-feud> (Last accessed 22 September 2014).

(٨) نقلاً عن: Glen Carey, «Saudi Next Generation Has U.S. Imprint as King Picks Leaders,» Bloomberg (6 March 2013), <http://www.bloomberg.com/news/articles/2013-03-05/saudi-next-generation-has-u-s-imprint-as-king-grooms-succes-sors> (Last accessed 28 August 2014).

(٩) نقلاً عن: Sultan Sooud Al-Qassemi, «Assassination Attempt Improves Mohammed BinNayef's Fortunes,» *Gulf States Newsletter*, vol. 33, no. 863 (23 October 2009), <http://www.scribd.com/doc/43649166/Assassination-attempt-improves-Mohammed-Bin-Nayef-s-fortunes-GSN-Issue-863-23-October-2009> (Last accessed 28 August 2014).

(١٠) لم تكن تلك المحاولة الأولى. فقد جرت عدة محاولات إحداها أثناء زيارته اليمن. انظر: «Mohammed bin Nayef: A King in Waiting,» Al Bawaba News (27 January 2015), <http://www.albawaba.com/news/mohammed-bin-nayef-king-waiting-649420> (Last accessed 6 February 2015).

مكتبه ما زال يوظف شخصيات دينية شديدة التزمّت[11]. وفي هذه الأثناء، كُلِّف الأمير أيضاً بالملف السوري الحساس.

كان الأمير متعب بن عبد الله (المولود عام ١٩٥٢)، ولفترة طويلة، يُعتبر أيضاً بين الشخصيات التي يتصاعد شأنها، وكان عمل الأمير الأساسي في الحرس الوطني، وهي قوات شبه عسكرية لا تخضع لوزارة الدفاع. في البداية، كانت المهمة الأهم لتلك القوات هي حماية آل سعود من تهديد حصول انقلاب؛ ثم كُلِّفت لاحقاً بالدفاع عن المواقع الاستراتيجية، مثل مكة والمدينة. كان الملك الراحل عبد الله قائد الحرس الوطني لمدة سبعة وأربعين عاماً. وبالإضافة إلى أنشطته العسكرية، أنشأ أيضاً جهازاً مدنياً شاملاً يضم مدارس ومشاريع إسكان ومستشفيات تخصصية. في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٠، تسلّم متعب مسؤولية الحرس الوطني من والده، وشرع بإعادة تنظيمه تنظيماً صارماً، بل إنه عرض فوراً للمناقشة فكرة إنشاء مجموعة نسائية ضمن الحرس. في أيار/مايو من عام ٢٠١٣، رفع الملك مكانة الحرس الوطني إلى مستوى وزارة مستقلة، في إشارة إلى ارتفاع شأن متعب ارتفاعاً كبيراً. ورأى المراقبون في تلك الحركة محاولة من جانب عبد الله للمناورة لوضع ابنه في موقع مؤاتٍ يمهد له لوراثة العرش في ما بعد[12].

لكن الأمور لم تجر على هذا النحو. فعندما توفي الملك، جرى تهميش أبنائه إلى حد ما، في حين حصل أولاد نايف وسلمان على مواقع أفضل. فقد أُقيل الأمير تركي بن عبد الله (المولود عام ١٩٧١) والأمير مشعل بن عبد الله (المولود عام ١٩٧٠ تقريباً) من منصبيهما كحاكمين للرياض ومكة، على التوالي (مثلما أُقيل معظم الأشخاص المحسوبين على عبد الله في مجلس الوزراء). احتفظ الأمير متعب بوزارته، في الوقت الحالي، لكنه عُيِّن في موقع ثانوي في أحد المجلسين الأعليين الجديدين اللذين أُنشئا في مجلس الوزراء في ظل سلطة الملك سلمان. يشرف المجلس الأول على الشؤون السياسية والأمنية، ويديره ولي العهد الجديد ووزير الداخلية محمد بن نايف. ويتعامل المجلس الثاني مع قضايا الاقتصاد والتطوير ويرأسه النائب الجديد لولي العهد الأمير محمد بن سلمان (المولود عام ١٩٨٠)، ابن الملك، الذي عُيِّن أيضاً وزيراً للدفاع (وبذلك يكون قد خَلَف والده في الوزارة). وفي كانون الثاني/يناير، عُيِّن الأمير محمد، الذي يُعتبر صغير السن بالمعايير السعودية، رئيساً للديوان الملكي، وهو منصب يتيح له نفوذاً كبيراً حيث يتحكم بإمكان الوصول إلى قصر والده، لكنه ترك هذا المنصب في نيسان/أبريل من عام ٢٠١٥.

يُعتبر محمد بن نايف من قِبَل كثيرين، على الأقل حالياً، بأنه برز ليكون الشخصية الأقوى خلال المرحلة الأولى من الانتقال من أمراء الجيل الثاني إلى أمراء الجيل الثالث في العائلة السعودية.

---

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) Bruce Riedel, «Saudi King's Well-placed for Transition,» Al-Monitor (30 May 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/tr/originals/2014/05/saudi-transition- kings-sons-well-place.html> (Last accessed 28 August 2014), and Jean Aziz, «Changes in Saudi Defense Ministry a Matter of Family Politics,» Al-Monitor (27 May 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/ru/originals/2014/05/reshufflings-saudi-defense-ministry-abdullah.html> (Last accessed 28 August 2014).

لكن بعض المحللين يشيرون، في الوقت نفسه، إلى دور محمد، ابن الملك الجديد، الذي أصبح مستشاراً خاصاً لوالده عام ٢٠٠٩، عندما كان حاكم الرياض واستمر في القيام بهذا الدور بعد تعيين سلمان وزيراً للدفاع عام ٢٠١١[١٣]. ويقال إن الأمير محمد، الذي يحمل إجازة في القانون ويُشاع أنه الابن المفضل لسلمان، هو العقل المدبِّر وراء بعض حالات إعادة تنظيم هيكلية السلطة[١٤]. كما ويُعتبر القوة الدافعة لحرب اليمن.

لكن محمد بن نايف، قد يكون الأشهر بين هذين المحمَّدَيْن القويين، لدوره الفعال في مكافحة الإرهاب الإسلامي وكونه حليفاً للولايات المتحدة. لكن وزارة محمد بن سلمان الباهظة الكلفة هي وزارة مهمة أيضاً، وكانت سابقاً بيد ولي العهد. هل يتعاون الرجلان، أم أن النزاع على السلطة سينفجر بينهما؟ وهناك المزيد من الأسئلة التي لا تجد جواباً في الوقت الحالي. هل يقبل إخوة محمد بن سلمان الأكبر منه سناً أن يتم تجاوزهم وأن يُرفَّع أخوهم الأصغر إلى هذا الموقع القوي؟ أو هل يثور أبناء الملك الراحل عبد الله ضد خفض مكانتهم على هذا النحو غير المتوقع[١٥]؟

ثمة سؤال آخر لا يقل أهمية، وهو يتناول احتمال وجود أي أفراد يتمتعون بذهنية إصلاحية، ضمن أولئك الأمراء الأقوياء، الذين قد يرغبون في توفير صوت أعلى للأعداد المتزايدة من المواطنين المتحررين. نحن لا نعرف سوى القليل عن هذا الأمر، هذا إذا عرفنا، مع ذلك، لن يُقدَّر للعائلة المالكة البقاء، على المدى الطويل، إلا في حال قيامها بإجراء إصلاحات واسعة النطاق. فقد كانت المنهجية الإصلاحية للملك عبد الله ـ رغم حذرها ـ هي التي أبقت على بلاده موحدة. أما الملك الحالي، وبوصفه كان أمير الرياض عام ٢٠٠٧، فهو يعارض فرض الديمقراطية، كما ورد في برقية مُرسلة من السفير الأميركي، آنذاك، إلى وزارة الخارجية الأمريكية، نشرتها منظمة ويكيليكس (WikiLeaks)[١٦]. فقد قال: «ينبغي إحداث التغييرات بأسلوب حساس وفي الوقت المناسب». والواقع أن الديمقراطية هي مفهوم غير مقبول إجمالاً في المملكة. فوزير العدل ووزير

---

(١٣) «Profile of Prince Mohammed bin Salman bin Abdulaziz Al Saud,» Al Arabiya News (27 January 2015), <http://english.alarabiya.net/en/perspective/profiles/2015/01/27/Profile-Prince-Mohammed-bin-Salman-bin-Abdulaziz-Al-Saud.html> (last accessed 6 February 2015).

(١٤) David Ignatius, «Reshuffling the House of Saud,» *Washington Post*, 3/2/2015, <http://www.washingtonpost.com/opinions/david-ignatius-reshuffling-the-house-of-saud/2015/02/03/6b35c8b8-abec-11e4-abe8-e1ef60ca26de_story.html> (Last accessed 6 February 2015).

(١٥) حول هذا انظر: David B. Roberts, «Breaking the Saudi Rules of Succession,» *The Washington Post*, 27/5/2015, <http://www.washingtonpost.com/blogs/monkey-cage/wp/2015/05/27/breaking-the-saudi-rules-of-succession> (Last accessed 15 September 2015); Ibrahim al-Hatlani, «Next Saudi Royal Generation Takes Lead,» Al-Monitor (24 June 2015), <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2015/06/saudi-arabia-future-challenges-king-salman.html> (Last accessed 15 September 2015); Nathan Hodson, «Not a Saudi Succession Crisis,» Carnegie Endowment for International Peace, 18 June 2015, <http://carnegieendowment.org/sada/2015/06/18/not-saudi-succession-crisis/iarx> (Last accessed 15 September 2015), and James Dorsey, «Yemen Conflict and Arab Uprising: Regional Fissures and Repercussions,» *The World Post*, 4/8/2015, <http://www.huffingtonpost.com/james-dorsey/yemen-conflict-and-arab-u_b_7930138.html> (Last accessed 15 September 2015).

(١٦) «Ambassador's Farewell Call on Riyadh Provincial Governor Prince Salman,» <https://wikileaks.org/plusd/cables/07RIYADH651_a.html>.

الشؤون الإسلامية اللذان عيّنهما بعد تسلمه المنصب، معروفان بأنهما محافظَيْن أكثر من سلفَيْهما، إن كان ذلك يعني شيئاً. ولكن في نهاية المطاف، لن يتمكن أي ملك من إدارة عقارب الساعة إلى الوراء للعودة للإبقاء على وضع الركود ولزيادة القمع ـ دون أن يدفع ثمن ذلك.

رابعاً: الأمير الملياردير

الأمير الوليد بن طلال بن عبد العزيز آل سعود (المولود عام ١٩٥٥) هو رجل متعدد الأوجه. فهو ليس فقط من أغنى رجال العالم، بل إنه أيضاً، وهذا جدير بالملاحظة، من دعاة الإصلاحات السياسية والاجتماعية في بلاده. فضمن جدران شركته، مثلاً، يعمل الرجال والنساء على قدم المساواة.

أحياناً، كان الأمير الوليد بن طلال في تصريحاته يلامس حساسيات السعوديين المحافظين. عندما سئل عن رأيه في الثورات العربية التي اندلعت في شمال أفريقيا، أجاب دون مواربة: «كل الدول العربية التي ما زالت مستقرة ولم تحدث فيها ثورات يجب أن تستفيق. عليها تنفيذ إصلاحات دون إبطاء قبل أن تصبح بدورها هدفاً لموجة الاحتجاجات». وعندما سئل إن كان هذا ينطبق على العربية السعودية أيضاً، أجاب: «نعم، لا توجد دولة مستثناة من ذلك. وأي شخص يعتقد أنه غير قابل للسقوط، فهو يطلق كلاماً لا معنى له»[١٧].

يتبنى الأمير الوليد دائماً موقف حكومته، كما حصل في بداية شهر آب/أغسطس من عام ٢٠١٣، بعد الانقلاب العسكري في مصر، الذي أطاح حكومة الإخوان المسلمين. فقد أُجبِر واعظٌ كويتي معروف في العربية السعودية، وهو طارق السويدان، على الاستقالة من القناة التلفزيونية «الرسالة» (وهي جزء من إمبراطورية الوليد الإعلامية، روتانا). وكان السويدان، وهو أبرز وجوه القناة، قد أعلن عن تعاطفه مع الإخوان المسلمين، ويبدو أن ذلك كان سبباً كافياً لصرفه من العمل. أصدر الأمير بياناً أعلن فيه أنه لا يقدِّر «الأفكار الشاذة» من هذا النوع، وكان بذلك يعكس بإخلاص سياسة عمه الراحل الملك عبد الله، الذي كان يدعم، دون تحفُّظ، الجيش المصري في صراعه ضد «الإرهابيين».

غالباً ما يتصدر اسم الأمير الصفحات الأولى من الصحف عندما يتعلق الموضوع بمجال الأعمال في العربية السعودية. في مطلع عام ٢٠١٣، أثار الأمير ضجة. ففي قائمة مجلة فوربس (*Forbes*)، لعام ٢٠١٣، التي تضم أسماء أصحاب المليارات، قُدِّرت أصول أغنى أمراء العربية السعودية بثمانية عشر مليار دولار. لكن الأمير رد بغضب: «أصولي تتجاوز هذا الرقم بـ ٩,٦ مليار دولار، على الأقل»، وطالب بتصحيح المعلومة الموجودة على القائمة فوراً. رفضت مجلة فوربس القيام بذلك، لكنها عدّلت الرقم في ما بعد وأضافت إليه ملياري دولار. قطع الوليد كل علاقاته مع المجلة. بل إنه رفع دعوى ضد المجلة في بريطانيا العظمى بشأن هذا الموضوع. ومهما يكن مقدار

(١٧) «Saudi Prince Complains that Forbes Rich List Underestimates his Wealth,» ITV (5 March 2013), <http://www.itv.com/news/topic/prince-al-waleed-bin-talal/> (Last accessed 27 August 2014).

أصوله، فما من شك بأن الوليد أغنى رجل عربي والرجل الوحيد الذي يظل ضمن أغنى خمسين رجلاً على قوائم أصحاب المليارات المعروفين.

لا يُعرف بالضبط كيف تدبّر الوليد أمر رأسماله الأساسي. لكن الأكيد هو أنه رجل أعمال محنّك أنشأ إمبراطورية تثير الإعجاب في وقت قصير نسبياً تحمل اسماً ملائماً، وهو «شركة المملكة القابضة». تضم ممتلكاته قائمة استثنائية من الأصول داخل بلده وفي الخارج. ويُعتبر فندق جورج الخامس في باريس ـ الذي تصل قيمته إلى مليار ونصف المليار دولار لحظة كتابة هذه السطور ـ واحداً من أغلى مشتريات الوليد وأحبها إلى قلبه. ولم يؤذه كثيراً امتلاكه استثمارات واسعة في مجال متنوع من الشركات الغربية، مثل Apple, Citigroup, Time Warner, Motorola, AOL, eBay ومدينة ديزني لاند في باريس.

كما ويُعرف عن الأمير إسهامه في الأعمال الخيرية، لكن المبالغ التي ينفقها في أعمال الخير لا تساوي شيئاً مقارنة بالأموال التي ينفقها في حياته الخاصة الباذخة. وها هنا مثال بسيط: قصر ضخم في الرياض، يضم خمسمئة جهاز تلفزيون موزعة في ثلاثمئة وواحدة وسبعين غرفة تُزَيَّن كل أسبوع بورود ناضرة من مدينة Aalsmeer في هولندا؛ أكثر من ثلاثمئة سيارة منوعة ما بين الرولز رويس والبورش واللامبورغيني؛ يخت فاخر بطول ستة وثمانين متراً؛ طائرة بوينغ ٧٤٧ خاصة تضم عرشاً ذهبياً. ولغاية عامين فقط، كان يملك «قصراً طائراً» بشكل طائرة إيرباص A380، تبلغ قيمتها نصف مليار دولار، تضم موقفاً لإحدى سياراته الرولز رويس، وقاعة حفلات موسيقية، وعشرات الغرف، وغرفة للصلاة تضم سجادات صلاة يشغّلها حاسوب ومبرمجة بحيث تدور لتواجه مكة.

وقد تجلى التزام الأمير بدينه جدياً حين أنشأ لجنة شريعة في شركة المملكة القابضة التابعة له. وللتقرب أكثر من الله، يخطط الأمير لبناء أعلى مبنى في العالم في جدة، يبلغ ارتفاعه أكثر من ١ كم. وهناك إشاعات تفيد بأن الأمير ينظّم من حين لآخر مباريات رمي الأقزام (Dwarf-Throwing)، حيث ينال الفائز جائزة سخية. بل إنه يؤمّن من حين لآخر وسادات لتتلقى الأقزام لدى وقوعهم على الأرض.

هل لدى الأمير أية طموحات سياسية؟ في لحظة خانه فيها الحَذَر، صدر عنه ما يوحي بأنه يود أن يكون ملكاً، ولكن لا يبدو أن هناك ثمة احتمالاً بأن يحدث ذلك. والأمر هنا لا يقتصر على كونه ابناً لامرأة لبنانية، وهذه نقطة في غير صالحه، لكن باقي أفراد العائلة السعودية لا يبدو أنهم يكنّون الإعجاب بهذا الرجل الذي يعتبرونه غريب الأطوار. والأهم من ذلك كله هو أن تولّي العرش سيصرفه عن أهم هواياته ـ وهي أن ينمّي ثروته الحالية ليرفع ترتيبه في قائمة مجلة فوربس إلى موقع أعلى. ولا بد أن تراجع اسمه أربعة مواقع، عام ٢٠١٤، قد أزعجه كثيراً. في تموز/يوليو من عام ٢٠١٥، أعلن بصورة مفاجئة أنه سيهب كامل ثروته لأعمال الخير كجزء من تعهد على غرار منظمة «Bill and Melinda Gates «Foundation». سوف يستمر الأمير في الاحتفاظ بشركة الاستثمارات العامة التابعة له «شركة المملكة القابضة». وقد أكّد بأنه لا يوجد موعد محدد أخير لوهْب كل أمواله.

الفصل الثاني عشر

السقوط المحتمل لآل سعود:
عدد من السيناريوهات

تشعر العائلة السعودية بأنها تعيش حصاراً. أحد الأدلة على ذلك هو موقفها من الإخوان المسلمين، وهم أداةٌ لأيديولوجيةٍ إسلامية ثورية منافِسة، إضافة إلى شعبيتها - إذا أخذنا بالاعتبار النجاحات الانتخابية التي حققتها في الوطن العربي بعد عام ٢٠١١. وهو ما استثار حماس النظام السعودي لدعم الانقلاب العسكري في مصر، الذي أسقط الحكومة المنتخَبة للرئيس محمد مرسي، زعيم الإخوان المسلمين، في تموز/يوليو من عام ٢٠١٣. ويفسر هذا الشعورُ قرارَ النظام السعودي، في شباط/فبراير من عام ٢٠١٤، القاضي بِوصْف جماعة الإخوان المسلمين بأنها منظمة إرهابية، وبإصدار أحكام قاسية بحق كل من يدعم هذه الجماعة بالأقوال أو بالأفعال.

لم تكن جماعة الإخوان المسلمين، فقط، هي التي اعتبرتها السلطات السعودية تهديداً خطيراً لها؛ فالشباب السعوديون الذين ذهبوا للقتال في سورية ضد النظام هناك يجري اعتقالهم أيضاً. في البداية، حذّرت الحكومة المقاتلين من المشاركة في النزاع، ولكن في الوقت نفسه، لم تكن هناك أية محاولات عملية لمنع هؤلاء من الذهاب إلى سورية. فقد كانت الأولوية هي إسقاط الأسد.

والواقع أن ألوف السعوديين ذهبوا إلى سورية، وكان التحريض قد أتى، جزئياً، من رجال الدين الذين رفعوا الصراع مع النظام السوري إلى مصاف «الحرب المقدسة». انضم معظم هؤلاء الشباب إلى منظمات لا تكترث للملكية الوراثية. وعلى غرار ما حصل في أوروبا، اتضح أخيراً للسلطات السعودية أن أولئك المقاتلين الشباب يمثلون خطراً محتملاً بعد عودتهم. والواقع أن السلطات السعودية عانت، بالطبع، تجربة مماثلة مع الجهاديين القدماء الذين شاركوا في الحربين الأفغانية والعراقية، والذين بدأوا صراعاً مسلحاً ضد المملكة عام ٢٠٠٣. وبموجب القانون الجديد الصارم الخاص بمكافحة الإرهاب، يواجه المقاتلون العائدون من سورية أحكاماً بالسجن لسنوات عديدة.

وبالرغم من كل تلك الإجراءات، حصلت أول «ضربة غير متوقعة» ذات طابع جهادي في المنطقة الشرقية في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠١٤؛ وتبع ذلك هجمات إرهابية في أيار/مايو وآب/أغسطس من عام ٢٠١٥. في شهر تموز/يوليو، اعتقلت قوى الأمن أربعمئة وواحداً وثلاثين متطرفاً مشتبهاً به. كما شاركت قوات من العربية السعودية في التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة ضد الدولة الإسلامية، رغم أن السلاح الجوي السعودي كان، اعتباراً من آذار/مارس من عام ٢٠١٥، أكثر نشاطاً في اليمن منه في العراق أو في سورية. والواقع أن تنظيم الدولة الإسلامية، الذي تبنّى هجمات أيار/مايو وآب/أغسطس، يعادي العائلة المالكة السعودية علناً ويعتبرها خارجة عن الإسلام. واستناداً إلى ما يقوله بعض المحللين داخل المملكة، فإن شعوراً بالتعاطف مع أيديولوجية الدولة الإسلامية ينتشر بين الشباب السعودي، وهي على أية حال أيديولوجية قريبة من المعتقدات الوهابية.

إلى جانب الإخوان المسلمين والمحاربين القادمين من سورية، هناك فئة ثالثة تمثل خطراً محتملاً، وقد أضحت هذه الفئة هدفاً للاضطهاد، وهي تضم نشطاء حقوق الإنسان. فمنذ انطلاق الثورات العربية، اعتُقل العديد من النشطاء المسالمين وتلقوا أحكاماً بالسجن لفترات طويلة. تضم هذه الفئة أساتذة الجامعات والمحامين الذين نظّموا حملات ضد انتهاكات حقوق الإنسان ودَعوا إلى إجراء إصلاحات سياسية، مثل وضع مسودة دستور وتنظيم انتخابات حرة وتحقيق شفافية فعلية في عمل الحكومة. ثمة احتمال، وإن كان ضعيفاً، بأن يتمكن هؤلاء من السعي لقيادة جماعات الشباب غير المنظمة حالياً، الذين يعبّرون عن سخطهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

أولاً: التخبّط

ما هي السيناريوهات المُحتملة في المستقبل القريب أو في المدى المتوسط؟ رغم أن العائلة المالكة تشعر منذ الآن بأنها عرضة للهجوم، فإن الإخوان المسلمين والمقاتلين العائدين من سورية ونشطاء حقوق الإنسان لا يشكّلون تهديداً وجودياً للسعودية ـ أقلّه في المستقبل المنظور. لا يمكن أن ننكر أن البلاد تُدار من قِبَل نخبة سياسية من كبار السن، وأن الاقتصاد جامد بحيث يتعذر تغييره، ولكن ما زال بوسع البترودولار شراء الولاء، مع أن ذلك قد يغدو أكثر صعوبة إذا لم تتعافَ أسعار النفط سريعاً.

إلى ذلك، وهو الأهم، ربما تبدو الحياة في ظل حكم آل سعود أفضل، مقارنة بالوضع التعيس في الدول العربية الأخرى. فخلال المقابلات التي أُجريت مع بعض السعوديين، عبَّر العديد منهم عن رغبته في رؤية بعض التغيير، مع ذلك كانوا يضيفون «ولكن، ليس بالطريقة التي حصلت بها التغييرات في تونس حيث يسير التحوّل ببطء مؤلم، أو كما حصل في مصر وليبيا حيث يسود

الاضطراب». وعبّر هؤلاء صراحة أنهم لا يرفضون الوضع القائم إذا كان الرفض سيؤدي إلى ما يحصل في سورية من حرب أهلية رهيبة.

ثانياً: الانفجار الاجتماعي

لا يمكن لأحد أن يجزم، لكن الكساد طويل الأمد في سوق النفط، ومهما كان سببه، يمكن أن يؤدي إلى نهاية العائلة المالكة السعودية. وإذا لم تتعافَ أسعار النفط سريعاً، فلن تعود العائدات كافية لتمويل إجراءات التهدئة المحلية الشاملة. استناداً إلى بعض التقديرات، تحتاج المملكة ـ في المدى المتوسط ـ إلى سعر موازنة تعادلي [يغطي النفقات] يبلغ ١٧٥ دولاراً للبرميل في عام ٢٠٢٠. إن المضي بتسيير الأمور كالمعتاد دون أية إصلاحات جدية، واستمرار تزايد الإنفاق الحكومي لن ينتج منهما سوى تفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية القائمة حالياً، وقد يؤدي ذلك بسهولة إلى حدوث انفجار اجتماعي. تصف الصحافية كارين إيليوت هاوس ذهنية النخبة السياسية الحالية من المسنين بأنها أشبه «بأرنب عالق في نور ضوء السيارة الأمامي»[١]. فالجمود ومحاولة كسب الوقت بانتظار الفرصة المؤاتية لا يبشران بالخير.

ثالثاً: الإصلاحات ـ معضلة الملك

إذا بدأت الحكومة بالإصغاء لمواطنيها بصدق، فقد يكون ذلك أيضاً سبباً في بروز مشاكل جديدة. يعلّمنا التاريخ أن الملوك والأمراء الذين يبدأون مسار الإصلاح قد ينتهي بهم الأمر بمفاجأة غير سارة. فالإصلاحات عادة ما تكتسب مساراً خاصاً بها ـ وقد تحدث ألكسيس دو توكفيل عن هذا الموضوع في كتابه النظام القديم والثورة (*L'Ancien régime et la révolution*) الصادر عام ١٨٥٦[٢]. ألم تكن المقصلة هي الهدية التي قُدِّمت إلى لويس السادس عشر مقابل إصلاحاته المتواضعة؟ وقد ابتكر خبير العلوم السياسية الأميركي صموئيل هنتنغتون (Samuel Huntington) عبارة «معضلة الملك» لوصف هذه الظاهرة[٣].

حصل نفس مسار الأحداث في ظل حكم شاه إيران بعد إصداره للإصلاحات المتعلقة بالأراضي عام ١٩٦٣ (الثورة البيضاء). كما أن ملك البحرين قوّى، دون أن يقصد، حركة المعارضة الشيعية عندما وعد بتقديم تنازلات. فالسماح بدرجة دنيا من التعددية السياسية عرّض الملكية للخطر ولم يحلّ الأزمة السياسية في البحرين، رغم الدعم السعودي لنظام آل خليفة، الذي وصل حد التدخل العسكري.

---

(١) استخدمنا هنا عبارة لـ «هاوس»، ونحن ممتنون لذلك. انظر: Karen Elliott House, *On Saudi Arabia: Its People, Past, Religion, Fault Lines-and Future* (London: Vintage, 2013), p. 219

(٢) Alexis de Tocqueville, *L'Ancien régime et la revolution* (Paris: Michel Levy Frères, 1856).

(٣) Samuel Huntington, *Political Order in Changing Societies* (New Haven, CT: Yale University Press, 1968).

في العربية السعودية، قدّم ولي العهد فهد مثالاً لافتاً على معضلة الملك، وذلك في نهاية سبعينيات القرن العشرين، عندما قال «ما إن نبدأ المسير في هذا الدرب، فلن يكون هناك عودة عنه. علينا في النهاية مواجهة انتخابات مباشرة... لا أحد يقول إننا مضطرون للقيام بذلك الآن»(٤).

هناك شكل آخر لهذا السيناريو وهو أن يرضخ الملك أو الأمراء المتنفذون للدعوة التي تتكرر باستمرار مطالِبةً بالمزيد من الشفافية في عمل الحكومة. لكن المعارضة داخل العائلة المالكة سوف تعيق أي توجّه من هذا النوع، إذ إن من شأن ذلك إضعاف نفوذ آل سعود في تسيير شؤون الدولة. وقد يستثير ذلك، وبكل سهولة، مقاومةً من جانب الأجنحة الأخرى المحافِظة ضمن العائلة المالكة، ما يؤدي إلى أزمة خطيرة لا يمكن التنبؤ بتداعياتها.

رابعاً: القمع الصارم

بمرور السنوات، كثرت الاحتجاجات الصادرة عن مختلف المكوّنات الاجتماعية لدرجة كانت فيها أحياناً تثير سخط المؤسسة السياسية والدينية. ثمة إمكانية أن يتحول هذا السخط، عند مرحلة معينة، ليتَّخذ شكل ضربة ارتجاعية عنيفة تؤدي إلى منع أو سحق كل أشكال الاحتجاجات الاجتماعية والسياسية. ولن تكون هذه المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك. ففي مطلع تسعينيات القرن العشرين، مثلاً، قام الملك فهد بهجوم شرس على حركة الإصلاح الإسلامية. وبالإمكان تصوُّر حصول تطور مماثل في الوقت الحاضر. لنأخذ مثلاً الانتقادات الصريحة التي يوجهها الوعّاظ من ذوي التأثير، مثل سلمان العودة، الذين يطالبون الحكومة بالإصغاء إلى صوت الشعب. وليس من الوارد أن يصبر العودة على محاولة إسكاته. فهل يُسجن من جديد، كما حصل في تسعينيات القرن العشرين؟ ألن يؤدي ذلك إلى خروج مؤيديه إلى الشوارع؟

ما من شك في أن قمع المعارضة قد ازداد، لكن رد فعل السلطات السعودية، عموماً، لم يكن عنيفاً على نحو خاص، باستثناء معاملتها المحتجين الشيعة في المنطقة الشرقية. والأكيد أن الوضع يُعتبَر كذلك مقارنةً بما يحدث في دول عربية أخرى. لكن الحوادث قد تقع دون أن يتوقعها أحد وقد تستثير تفاعلاً تسلسلياً لا يمكن وقفه. فمجرد حدوث فيضان آخر في جدة يؤدي إلى هلاك العديد من الضحايا، مثلاً، قد يمثّل مناسبة كهذه. ولربما يتسبب ارتفاع سعر ليتر البنزين فجأة إلى ٢٥ سنتاً أميركياً، أو أكثر، بدل سعره الحالي وهو ١٦ سنتاً، بهجوم الناس على محطات البنزين ونهبها.

(٤) Robert Lacey, *Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists and the Struggle for Saudi Arabia* (London: Arrow Books, 2010), pp. 48–49.

خامساً: انفجار داخلي كامل

يقول السيناريو الأخير إن البلاد ستنفجر من الداخل. فالعربية السعودية هي نموذج فريد من الدول حيث إنها تكاد لا توفر أية أقنية لمشاركة المواطنين العاديين، كما أنها تفتقر إلى أي شكل من أشكال الاحتجاجات السلمية. وفي حال حدوث أزمة، كما في السيناريوهات المذكورة سابقاً، فإن الخطر المتمثل بأن تتفاقم الاختلافات في الرأي بحيث تؤدي إلى نزاع مسلح، أمر وارد على الدوام. المعارضة العنيفة ليست بالشيء الجديد. فقد حصل ذلك في عام ١٩٢٩ (تمرد الإخوان) وفي عام ١٩٧٩ (احتلال المسجد الكبير في مكة) وفي الفترة التي أعقبت عام ٢٠٠٣، عندما أعلن الجهاديون الحرب على الدولة.

إذا أصبحت السلطة المركزية عاجزة عن أداء مهامها، فسوف يبرز العديد من التباينات التي كانت حتى الآن تَمور برفق تحت السطح، والتي كانت تبقى ضمن الحدود نظراً إلى الشعبية التي تحظى بها الملكية. سوف يخرج الأمراء المتنافسون إلى العلن و«لن تبقى العائلة قبضة، بل ستصبح خمسة أصابع مختلفة»(٥).

لنفترض أن العائلة المالكة قد سقطت وأن عدداً كبير من الأمراء هرب إلى خارج البلاد. سوف تتفكك الدولة وتعلن المنطقة الغربية، الحجاز، استقلالها. أما المنطقة الشرقية الغنية بالآبار النفطية، فسوف تصبح تحت النفوذ الإيراني، وسوف تتحول المنطقة الوسطى إلى معقل للجهاديين، وسوف تسود الفوضى العارمة.

وحتى لو استلم المتطرفون الإسلاميون السلطة، فسوف يتوجب عليهم أيضاً بيع النفط ـ إذ لا يمكن شربه. لكن الدول التي تشتريه في العادة سوف تساورها، على الأقل، شكوك عميقة حول نظام لا يعتبر أولويته كسب مليارات الدولارات من تصدير النفط إلى الغرب الكافر. أما سعر النفط، فسوف يحلق عالياً، وسيكون ذلك بمنزلة ضربة قاصمة للاقتصادات الغربية التي تكون في طور التعافي، كما أنه سيؤثر في النمو الاقتصادي في الشرق. كما سيرتفع سعر ليتر البنزين ارتفاعاً مذهلاً.

أما تأثير الصدمة في المنطقة وفي باقي أنحاء العالم، فسيكون هائلاً. إذ لن يشعر أي أمير أو أي ملك في كامل منطقة الخليج بالأمان بعد تلك اللحظة. سوف تكون البحرين أول من يسقط، ومن ثم تتبعها بقية دول الخليج. وسوف تذهب عوائد النفط إلى حركات ثورية أخرى في الوطن العربي وستتداعى الأنظمة واحداً تلو الآخر، بدءاً باليمن، جارة السعودية. وقد يكون الأردن هو الدولة التالية، أما وضع إسرائيل فسوف يكون محفوفاً بالمخاطر.

(٥) مقابلة مع موظف ذي منصب رفيع في أرامكو بتاريخ ٢٨ آذار/مارس ٢٠١٣.

يبدو السيناريو من هذا النوع بعيد الاحتمال لحظة كتابة هذه السطور، ولكن في المدى الطويل، يمكن أن تبرز عوامل شبيهة بالتي ذكرناها سابقاً، بكل سهولة. ولم يعد هذا السيناريو بعيداً من الاحتمال أكثر من سيناريو بقاء العائلة السعودية إلى الأبد. قلة فقط من الخبراء تنبأت بسقوط جدار برلين، أو بسقوط شاه إيران أو حسني مبارك في مصر. لا يبدو سقوط آل سعود، بالطبع، نتيجة محتومة، لكن مكوّنات حصول تغيّرات عنيفة من هذا النوع متوافرة دون أي شك.

المراجع

١ ـ العربية

دوريات

«أكثر ٥٠ شخصية سعودية تأثيراً على موقع تويتر.» صحيفة أنحاء الإلكترونية: ٢٠١٣/٧/١٣.

خاشقجي، جمال. «هل لدينا «حالة داعشية» في السعودية؟.» الحياة: ٢٠١٤/٧/١٢.

٢ ـ الأجنبية

Books

Aarts, Paul and Gerd Nonneman (eds.). *Saudi Arabia in the Balance: Political Economy, Society, Foreign Affairs.* London: Hurst, 2005.

Abu Khalil, As'ad. *The Battle for Saudi Arabia: Royalty, Fundamentalism, and Global Power.* New York: Seven Stories Press, 2004.

Algar, Hamid. *Wahhabism: A Critical Essay.* Oneonta, NY: Islamic Publications International, 2002.

Alsanea, Rajaa. *Girls of Riyadh.* London: Fig Tree/Penguin Books, 2007.

Ayoob, Mohammed and Hassan Kosebalaban (eds.). *Religion and Politics in Saudi Arabia: Wahhabism and the State.* Boulder, CO; London: Lynne Rienner, 2009.

Bradley, John R. *Saudi Arabia Exposed: Inside a Kingdom in Crisis.* New York: Palgrave Macmillan, 2005.

Bronson, Rachel. *Thicker than Oil America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia.* New York: Oxford University Press, 2006.

Champion, Daryl. *The Paradoxical Kingdom. Saudi Arabia and the Momentum of Reform.* London: Hurst, 2003.

Echagüe, Ana (ed.). *The Gulf States and the Arab Uprisings.* Madrid: FRIDE, 2013.

Cockburn, Patrick. *The Jihadis Return: ISIS and the New Sunni Uprising.* New York; London: OR Books, 2014.

Commins, David. *The Wahhabi Mission and Saudi Arabia.* London: I. B. Tauris, 2005.

Cordesman, Anthony H. and Nawaf Obaid. *National Security in Saudi Arabia.* Santa Barbara, CA: Praeger Security International, 2005.

Davidson, Christopher. *After the Sheikhs: The Coming Collapse of the Gulf Monarchies.* London: Hurst, 2012.

Delong-Bas, Natana J. *Wahhabi Islam: From Revival and Reform to Global Jihad.* New York: Oxford University Press, 2004.

De Tocqueville, Alexis. *L'Ancien régime et la revolution.* Paris: Michel Levy Frères, 1856.

Eggers, Dave. *A Hologram for the King.* San Francisco, CA: McSweeney's Books, 2012.

Hammond, Andrew. *The Islamic Utopia: The Illusion of Reform in Saudi Arabia.* New York: Pluto Press, 2012.

Haykel, Bernard, Thomas Hegghammer and Stephane Lacroix (eds.). *Saudi Arabia in Transition: Insights on Social Political Economic and Religious Change.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2015.

Hegghammer, Thomas. *Jihad in Saudi Arabia: Violence and Pan-islamism since 1979.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2010.

Hertog, Steffen. *Princes, Brokers, and Bureaucrats: Oil and the State in Saudi Arabia.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 2010.

House, Karen Elliot, *On Saudi Arabia: Its People, Past, Religion, Fault Lines-and Future.* New York: Alfred Knopf, 2013.

Huntington, Samuel. *Political Order in Changing Societies.* New Haven, CT: Yale University Press, 1968.

Ibrahim, Fouad. *The Shi'is of Saudi Arabia.* London: Saqi, 2006.

Jones, Toby. *Desert Kingdom: How Oil and* Water *Forged Modern Saudi Arabia.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2010.

Kéchichian, Joseph A. *Legal and Political Reforms in Saudi Arabia.* London: Routledge, 2013.

Lacey, Robert. *Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists and the Struggle for Saudi Arabia.* London: Arrow Books, 2010.

________. *The Kingdom: Arabia and the House of Saud.* London: Hutchinson, 1981.

Lacroix, Stéphane. *Awakening Islam: The Politics of Religious Dissent in Contemporary Saudi Arabia.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011.

Lahn, Glada and Paul Stevens. *Burning Oil to Keep Cool: The Hidden Energy Crisis in Saudi Arabia.* London: Chatham House, 2011.

________, ________ and Felix Preston. *Saving Oil and Gas in the Gulf.* London: Chatham House, 2013.

Lippman, Thomas W. *Inside the Mirage: America's Fragile Partnership with Saudi Arabia.* Boulder, CO: Westview Press, 2004.

Mathiessen, Toby. *The Other Saudis: Shiism, Dissent and Sectarianism.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2014.

________. *Sectarian Gulf: Bahrain, Saudi Arabia, and the Arab Spring that Wasn't.* Stanford, CA: Stanford University Press, 2013.

Meijer, Roel and Paul Aarts (eds.). *Saudi Arabia between Conservatism, Accommodation and Reform.* The Hague: Clingendael, 2012.

Ménoret, Pascal. *The Saudi Engima: A History.* London; New York: Zed Books, 2005.

________. *Joyriding in Riyadh: Oil Urbanism and Road Revolt.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2014.

Morozov, Evgeny. *The Net Delusion: How Not to Liberate the World.* London: Allen Lane, 2011.

———. *To Save Everything, Click Here: The Folly of Technological Solutionism.* New York: Public Affairs, 2013.

Murphy, Carlyle, *A Kingdom's Future: Saudi Arabia through the Eyes of its Twentysomethings.* Washington, DC: Wilson Center, 2013.

Niblock, Tim. *Saudi Arabia: Power, Legitimacy and Survival.* London: Routledge, 2006.

——— and Monica Malik. *The Political Economy of Saudi Arabia.* London: Routledge, 2007.

Ottaway, David. *The King's Messenger: Prince Bandar Bin Sultan and America's Tangled Relationship with Saudi Arabia.* New York: Walker and Company, 2008.

Piscatori, James (ed.). *Islamic Fundamentalism and the Gulf Crisis.* Chicago, IL: The American Academy of Arts and Sciences, 1991.

Powers, Bill. *Cold, Hungry and in the Dark: Exploding the Natural Gas Supply Myth.* Foreword by Art Berman. Canada: New Society Publishers, 2013.

Al-Rasheed, Madawi. *Contesting the Saudi State: Islamic Voices from a New Generation.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2007.

———. *A History of Saudi Arabia.* Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

———. *A Most Masculine State: Gender, Politics, and Religion in Saudi Arabia.* Cambridge University Press, 2013.

——— (ed.). *Kingdom without Borders: Saudi Arabia's Political Religious and Media Frontiers.* London: Hurst, 2008.

Rentz, George S. *The Birth of the Islamic Reform Movement in Saudi Arabia.* London: Arabian Publishing, 2004.

Al-Shihabi, Ali, *The Saudi Kingdom: Between the Jihadi Hammer and the Iranian Anvil.* Gloucester: The Choir Press, 2015.

Stenslie, Stig. *Regime Stability in Saudi Arabia: The Challenge of Succession.* London: Routledge, 2012.

Teitelbaum, Joshua. *Holier Than Thou: Saudi Arabia's Islamic Opposition.* Washington, DC: Washington Institute for Near East Policy, 2000.

Thompson, Mark. *Saudi Arabia and the Path to Political Change: National Dialogue and Civil Society.* London: I. B. Tauris, 2014.

Trofimov, Yaroslav. *The Siege of Mecca: The Forgotten Uprising.* London: Allen Lane, 2007.

Unger, Craig. *House of Bush, House of Saud: The Secret Relationship between the World's Two Most Powerful Dynasties.* New York: Scribner, 2004.

Vasiliev, Alexei. *The History of Saudi Arabia.* London: Saqi, 2000.

Vitalis, Robert. *America's Kingdom: Mythmaking on the Saudi Oil Frontier.* Stanford, CA: Stanford University Press, 2007.

Weston, Mark. *Prophets and Princes: Saudi Arabia from Muhammad to the Present.* Hoboken, NJ: John Wiley and Sons, 2008.

Wilson, Rodney [et al.]. *Economic Development in Saudi Arabia.* London: Routledge Curzon, 2004.

Yamani, May. *Changed Identities: Challenge of the New Generation in Saudi Arabia.* London: Royal Institute of International Affairs, 2000.

———. *Cradle of Islam: The Hijaz and the Quest for an Arabian Identity.* London: I. B. Tauris, 2004.

Periodicals

«118 Years for Accused in Jeddah Flood Disaster.» *Arab News*: 1/12/2014.

Aarts, Paul. «Maintaining Authoritarianism: The Jerky Path of Political Reform in Saudi Arabia.» *Orient:* vol. 1, 2011.

Allam, Abeer. «Saudis Confront Yawning Divide between Expectations and Reality.» *Financial Times*: 22/2/2011.

Aluwaisheg, Abdel Aziz. «High Stakes of Energy Conservation in Saudi Arabia.» *Arab News*: 24/3/2013.

———. «Runaway Water Consumption Alarming for Saudi Arabia.» *Arab News*: 4/8/2013.

Arab News: 19/2/2014.

Bezhan, Frud. «The Rise of Al-Qaeda 2.0.» *The Atlantic*: 24/7/2013.

Blackwell, Robert D. and Meghan L. O'Sullivan. «America's Energy Edge: The Geopolitical Consequences of the Shale Revolution.» *Foreign Affairs*: vol. 93, no. 2, March- April 2014.

Carlstrom, Gregg. «In the Kingdom of Tear Gas.» *Middle East Report Online*: 13 April 2012.

«Cinema Green-lighted.» *Arab News*: 10/11/2014.

«Companies Misuse Nitaqat Concession.» *Arab News*: 1/12/2014.

Cooper, Helene. «Converging Interests May Lead to Cooperation between Israel and Gulf States.» *New York Times*: 31/3/2014.

Crooke, Alastair. «You Can't Understand ISIS If You Don't Know the History of Wahhabism in Saudi Arabia.» *Huffington Post*: 27/8/2014.

Dickey, Christopher. «The Fire That Won't Die Out.» *Newsweek*: 22 July 2002.

Dorsey, James. «Yemen Conflict and Arab Uprising: Regional Fissures and Repercussions.» *The World Post*: 4/8/2015.

Al-Dosari, Saad. «Is it Really Necessary to Curb Freedom on YouTube Productions?.» *Arab News:* 29/4/2014.

Escobar, Pepe. «Exposed: The US–Saudi Libya Deal.» *Asia Times*: 2/4/2011.

«Expert: Saudis Waste Eight Hours a Day on Internet.» *Arab News*: 27/12/2014.

Fakhreddine, Jihad and Travis Owen. «Lure of Government Jobs for Saudis.» *Business Journal:* 20 August 2015.

Fakkar, Galal. «Women Quit Jobs over Low Wages.» *Arab News*: 4/4/2014.

Financial Post: 18/7/2013.

Fotuhi, Vahid. «Concern over Saudi Arabia's Summer Diesel Consumption Surge.» *The National*: 5/7/2013.

Gause III, F. Gregory III, «Kings for All Seasons: How the Middle East's Monarchies Survived the Arab Spring,» Brookings Doha Center Analysis Paper, no. 8, September 2013.

———. «Saudi Arabia's Game of Thrones: King Salman Amasses Power.» *Foreign Affairs*: 2 February 2015.

Ghattas, Kim. «The Saudi Cold War with Iran Heats Up.» *Foreign Policy*: 15 July 2015.

Gladstone, Rick. «Online Chats between Sexes Denounced in Saudi Arabia.» *The New York Times*: 29/5/2014.

Gresh, Alain. «Gulf Cools towards Muslim Brothers.» *Le Monde diplomatique*: novembre 2012.

Al-Harthi, Zuhair. «Espionage Cells in Kingdom: The Iranian «Fifth Column».» *Arab News*: 26/3/2013.

Hearst, David. «Why Saudi Arabia is Taking a Risk by Backing the Egyptian Coup.» *The Guardian*: 20/8/2013.

Henderson, Simon. «After King Abdullah: Succession in Saudi Arabia.» *Policy Focus* (Washington Institute for Near East Policy): no. 96, August 2009.

________. «The Man Who Would be King.» *Foreign Policy*: 10 April 2012.

________. «Saudi Arabia's Family Feud.» *Foreign Policy*: 7 July 2014.

Husain, Syed Rashid. «Euphoria Over Shale Gas «Surge» Pointless.» *Saudi Gazette*: 27 July 2014.

Al-Ibrahim, Fouad. «Undermining the Sudairi Clan: The King Manages the Power Struggle.» *Al Akhbar English*: 16/5/2014.

Ignatius, David. «Reshuffling the House of Saud.» *Washington Post*: 3/2/2015.

Jiffry, Fadia. «Unemployment Rate among Saudi Women Hits 34%.» *Arab News*: 23/6/2014.

Johnson, Keith. «Running on Empty: Why Unbridled Oil Consumption in the Middle East Could Pose a Threat to the Region and Beyond.» *Foreign Policy*: 23 January 2014.

Karni, Yuval. «Lieberman: Israel Holds Clandestine Talks with Arab Countries.» *Ynet News*: 14/4/2014.

Kéchichian, Joseph. «Saudis Smooth Rough Succession Issues.» *Gulf News*: 2/4/2014.

Kerr, Simeon. «Saudi Arabia Calls on Region to Assist Egypt.» *Financial Times*: 3/6/2014.

«Kingdom Amending Laws to Monitor Social Media.» *Saudi Gazette*: 2 June 2014.

Knickmeyer, Ellen. «Idle Kingdom: Saudi Arabia's Youth Unemployment Woes Go Far Deeper than Most Realize.» *Foreign Policy*: 19 July 2011.

________. «Saudi Labor Market Overhaul Comes at a Cost.» *Wall Street Journal*: 3/2/2014.

«KSA Power Consumption 3 Times World Average.» *Arab News*: 8/7/2014.

Laccino, Ludovica. «Saudi Arabia to Deport One Million People in Anti-Immigration Crackdown.» *International Business Times*: 21/10/2014.

Lacroix, Stéphane. «Is Saudi Arabia Immune?.» *Journal of Democracy*: vol. 22, no. 4, October 2011.

Looney, Robert. «The Window is Closing for Riyadh.» *Foreign Policy*: 1 June 2012.

Mann, Charles C. «What If We Never Run Out Of Oil?: New Technology and a Little-Known Energy Source Suggest that Fossil Fuels May Not be Finite. This Could be a Miracle-and a Nightmare.» *The Atlantic*: 24/4/2013.

Mouline, Nabil. «Power and Generational Transition in Saudi Arabia.» *Critique internationale*: vol. 46, April–June 2010.

Murphy, Carlyle. «Shiite Bias Claims Laid Bare After Showdown.» *The National*: 26/4/2009.

________. «Young Saudis Embrace Internet Satire, Rejecting Ultraconservative Islam.» *Global Post*: 23/6/2014.

Naffee, Ibrahim. «Number of Saudi Students in US Reaches 111,000.» *Arab News*: 20/4/2014.

«Al-Naimi Welcomes Use of Shale Oil.» *Saudi Gazette*: 19 January 2014.

OPEC Bulletin: vols. 2–3, 2013, and vol. 4, 2013.

«The Propaganda War.» *The Economist*: 15 April 2015.

Al Qassemi, Sultan Saooud. «Assassination Attempt Improves Mohammed BinNayef's Fortunes.» *Gulf States Newsletter*: vol. 33, no. 863, 23 October 2009.

Raval, Anjli. «Riyadh's Gamble.» *Financial Times*: 10/3/2015.

Reddy, Sudeep. «Saudi Government's Break-Even Oil Price Rises $20 in a Year.» *The Wall Street Journal*: 31/3/2011.

Roberts, David B. «Breaking the Saudi Rules of Succession.» *The Washington Post*: 27/5/2015.
«Saudi America.» *The Economist*:15 February 2014.
«Saudi Arabia to Allow Girls to Play Sport at Private Schools.» *The Guardian*: 5/5/2013.
«Saudis Fear There Will Be «No More Virgins» and People Will Turn Gay If Female Drive Ban Is Lifted.» *The Daily Mail*: 1/12/2011.
Saudi Gazette: 17 March 2013; 30 March 2013, and 23 January 2014, and 28 October 2014.
«Saudi Grand Mufti Slams Popular Protests as Anti-Islamic.» *Daily News Egypt*: 28/11/2012.
Schanzer, Jonathan. «An Edge in the Desert.» *Foreign Policy*: 3 February 2014.
________. «Saudi Arabia is Arming the Syrian Opposition.» *Foreign Policy*: 27 February 2012.
«Second Bridge to Link Kingdom and Bahrain.» *Arab News*: 7/9/2014.
Al-Seghayer, Khalid. «It's Time to Listen to Saudi Youth.» *Saudi Gazette*: 5 February 2013.
Sfakianakis, John. «Oil Kingdom.» *Foreign Policy:* 7 August 2013.
________. «Reading the Runes of Saudi Oil Policy.» *Arab News*: 28/1/2015.
________. «Saudi Arabia's Essential Oil: Why Riyadh Isn't Worried about the US Gas Revolution.» *Foreign Affairs*: 8 January 2014.
«Shoura Council to Have 30 Women.» *Arab News*: 2/9/2012.
«Shoura to Tackle Problem of 5 Million Illegals in Kingdom.» *Arab News*: 11/11/2012.
Sowers, Jeannie. «Water, Energy and Human Security in the Middle East.» *Middle East Report*: vol. 44, no. 271, Summer 2014.
«There will be Blood.» *The Economist*: 4 July 2015.
Toumi, Habib. «Religious Scholars Dominate Most-Followed List.» *Gulf News*: 14/8/2013.
________. «Saudi Mufti Blasts Twitter as Evil.» *Gulf News*: 21/10/2014.
«US Embassy Cables: Saudi Oil Company Oversold Ability to Increase Production, Embassy Told.» *The Guardian:* 8/2/2011.
Weinberg David Andrew. «King Salman's Shady History.» *Foreign Policy*: 27 January 2015.
«We're Watching You.» *The Economist*: 16 July 2014.
Worth, Robert F. «Saudi's Lonely, Costly Bid for Sunni–Shiite Equality.» *New York Times*: 14/3/2014.

Electronic Studies

«10 Most Censored Countries.» <https://cpj.org/2015/04/10-most-censored-countries.php>.
Accenture. «International Development of Unconventional Resources: If, Where and How Fast?.» Accenture (2014), <http://www.accenture.com/SiteCollectionDocuments/PDF/Accenture-Energy-International-Development-Unconventionals.pdf>.
Alhajji, Anas F. «Shale Revolution has Direct and Indirect Impacts on OPEC.» *World Oil*: January 2014, <http://www.ngpenergycapital.com/news/article-detail?id=101>.
Allam, Abeer. «Saudi Arabia Cracks Down on Twitter.» Al-Monitor, 20 March 2014, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/03/saudi-twit-ter-crackdown-political-dissent.html#>.
Alnuaim, Mishary. «The Composition of the Saudi Middle Class: A Preliminary Study.» Gulf Research Center, October 2013, <http://www.isn.ethz.ch/Digital-Library/Publications/Detail/?lang=en&id=171150>.
«Ambassador's Farewell Call on Riyadh Provincial Governor Prince Salman.» <https://wikileaks.org/plusd/cables/07RIYADH651_a.html>.

«Arab Social Media Report 2014.» <http://www.arabsocialmediareport. com/home/index.aspx>.

Arnsdorf, Isaac. «Saudi Arabia's Risky Oil-Price Play.» Bloomberg Businessweek, 23 October 2014, <http://www.businessweek.com/articles/2014–10–23/oil-saudi-ara-bias-risky-price-play>.

Aziz, Jean. «Changes in Saudi Defense Ministry a Matter of Family Politics.» Al-Monitor, 27 May 2014, <http://www.al-monitor.com/pulse/ru/originals/2014/05/reshufflings-saudi-defense-ministry-abdullah.html>.

Al Barrak, Abdur Rahman Ibn Nasir. «The Islamic Far-Right in Britain.» <http://tifrib.com/abdur-rahman-ibn-nasir-al-barrak/>.

Bel-Air, Françoise de. «Demography, Migration and Labour Market in Saudi Arabia.» Gulf Research Center and Migration Policy Centre, Gulf Labour Markets and Migration (GLMM), vol. 1, 2014, <http://gulfmigration.eu/media/pubs/exno/GLMM_EN_2014_01.pdf>.

Berlinger, Joshua. «An Anonymous Twitter Account May Be Starting a Quiet Revolution in Saudi Arabia.» *Business Insider*: 22 October 2012, <http://www.businessinsider.com/mujtahidd-saudi-arabias-rebel-tweeter-2012–10?IR=T>.

«The Billionaire Prince Who Says Saudi Arabia is in Far Bigger Trouble than the other Royals Admit.» Quartz (29 July 2013), <http://qz.com/109505/the-billionaire-prince-who-says-saudi-arabia-is-in-far-big-ger-trouble-than-the-other-royals-admit>.

««Burkas for Babies»: Saudi Cleric's New Fatwa Causes Controversy.» Al Arabiya News, 3 February 2013, <http://english.alarabiya.net/articles/2013/02/03/264031.html>.

Carey, Glen. «Saudi Mufti Warns against Sectarian Strife in the Middle East.» Bloomberg Business, 15 May 2011, <http://www.bloomberg.com/news/articles/2011-05-15/saudi-grand-mufti-warns-against-sectarian-strife-in-middle-east>.

________. «Saudi Next Generation Has U.S. Imprint as King Picks Leaders.» Bloomberg, 6 March 2013, <http://www.bloomberg.com/news/articles/2013–03–05/saudi-next-generation-has-u-s-imprint-as-king-grooms-succes-sors>.

Carrington, Daisy. «Twitter Campaign Highlights Poverty in Saudi Arabia.» CNN, 6 September 2013, <http://edition.cnn.com/2013/09/05/world/meast/twitter-campaign-highlights-poverty>.

Central Intelligence Agency, <https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/sa.html>.

Colvin, Ross. ««Cut Off Head of Snake» Saudis Told US on Iran.» Reuters, 29 November 2010, <http://www.reuters.com/article/2010/11/29/us-wikileaks-iran-saudis-idUSTRE6AS02B20101129>.

Cordesman, Anthony. «The True Nature of the Saudi Succession «Crisis».» (Center for Strategic and International Studies, Washington, DC, 9 January 2015), <http://csis.org/publication/true-nature-saudi-succession-crisis>.

Al-Dakhil, Khaled. «Saudi Arabia Struggles to Find Role Amid Regional Changes.» Al-Monitor, 4 July 2013, <http://www.al-monitor.com/pulse/politics/2013/07/saudi-arabia-iran-arab-spring-regional-role.html>.

Darwish, Soraya. «What Is and Isn't Art in Saudi Arabia?.» Hyperallergic.com, 16 August 2012, <http://hyperallergic.com/55608/what-is-and-isnt-art-in-saudi-arabia>.

Deutsche Bank. «EM Oil Producers: Breakeven Pain Thresholds.» Deutsche Bank Research, 16 October 2014, <http://etf.deutscheawm.com/DEU/DEU/Download/Research-Global/2dd759fe-b80a-4f07-a51c-dd02f4d384e5/EM-oil-producers-breakeven-pain.pdf>.

Donaghy, Rori. «Anger in Saudi Arabia at Arrest of Popular Religious Preacher Mohammed al-Arefe.» Middle East Eye, 28 October 2014, <http://www.middleeasteye.net/news/arrest-popular-religious-preacher-saudi-arabia-prompts-wave-anger-twitter-2094231527>.

________. «Sunnis, Shiites Unite in Saudi Arabia at Huge Funeral for Victims of «Sectarian» Attacks.» Middle East Eye (7 November 2014), <http://www.middleeast- eye.net/news/sunnis-shiites-stand-together-saudi-arabia-huge-funeral-victims- sectarian-attack-1956146358>.

Diwan, Kristin. «Breaking Taboos: Youth Activism in the Gulf States.» Atlantic Council, 7 March 2014, <http://www.atlanticcouncil.org/publications/issue- briefs/breaking-taboos-youth-activism-in-the-gulf-states>.

«Energy Outlook Downloads.» <http://www.bp.com/en/global/corporate/about-bp/energy-economics/energy-outlook/country-and-regional-insights/us-insights.html>.

Farhat, Reine. «What are Users in the Arab World Watching on YouTube? [Infographic].» Wamda, 19 March 2014, <http://www.wamda.com/2014/03/what-did-users-in-the-middle-east-watch-on-youtube-this-year>.

Farouk, Yasmine. «More than Money: Post-Mubarak Egypt, Saudi Arabia, and the Gulf.» GRC Gulf Paper (Gulf Research Center): April 2014, <file:///C:/Users/User/Downloads/Egypt_Money_new_29-4-14_2576.pdf>.

Fatany, Samar. «Why the Participation of Saudi Women in Elections Gets My Vote.» Al Arabiya, 13 September 2015, <http://english.alarabiya.net/en/views/news/middle-east/2015/09/13/Why-the-participation-of-Saudi-women-in-elections-gets-my-vote-.html>.

«Fight or Flight?: Saudi Cleric Heads to London after Call for Jihad in Syria.» Al Arabiya News, 22 June 2013, <http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2013/06/22/Fight-or-flight-Saudi-cleric-heads-to-London-after-calling-for-Jihad-in-Syria.html>.

Fox, Zoe. «Just 11% of Americans Tweet Every Month.» Mashable: 16 November 2013, <http://mashable.com/2013/11/15/twitter-penetration-countries/>.

Gardner, Frank. «London 2012 Olympics: Saudis Allow Women to Compete.» BBC News, 24 June 2012, <http://www.bbc.com/news/world-middle-east-18571193>.

«Getting to Know Social Saudis: A Closer Look at the Behavior of Saudi Users on Social Networks.» The Online Project, December 2013. <http://theonlineproject.me/page/insights/20/getting-to-know-social-saudis>.

Ghallab, Ahmad. «Saudi Arabia Reiterates Full Support for Libya.» Al-Monitor, 16 November 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/politics/2014/11/libya-chaos-saudi-arabia-support-ansar-al-sharia-terrorist.html#>.

«Going Back in Time.» Saudiwoman's Weblog, 3 April 2011, <http://saudiwoman.me/2011/04/03/going-back-in-time>.

Greeley, Brendan. «Why Fuel Subsidies in Developing Nations are an Economic Addiction.» Bloomberg Businessweek, 13 March 2014, <http://http://www.bloomberg.com/news/articles/2014-03-13/why-fuel-subsidies-in-developing-nations-are-an-economic-addiction>.

Hamdan, Maha. «High Rates of Obesity in Saudi Arabia behind Diabetes and Heart Disease.» alarabiya.net, 26 August 2013,<http://english.alarabiya.net/en/life-style/healthy-liv-

ing/2013/08/26/High-rates-of-obesity-in-Saudi-Arabia-behind-diabetes-and-heart-disease.html>.

Al-Hatlani, Ibrahim. «Next Saudi Royal Generation Takes Lead.» Al-Monitor, 24 June 2015, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2015/06/saudi-arabia-future-challenges-king-salman.html>.

Hertog, Steffen. «Arab Gulf States: An Assessment of Nationalisation Policies.» (GLMM Research Paper; no. 1, Gulf Labour Markets and Migration Programme, Badia Fiesolana, Italy, 2014).

________. «Oil Prices: Eventually the Gulf States Will Run Out of Power.» The Conversation, 5 January 2015, <http://theconversation.com/oil-prices-eventually-the-gulf-states-will-run-out-of-power-35867>.

Hodson, Nathan. «Not a Saudi Succession Crisis.» Carnegie Endowment for International Peace, 18 June 2015, <http://carnegieendowment.org/sada/2015/06/18/not-saudi-succession-crisis/iarx>.

Hudson, David. «President Obama: «We Will Degrade and Ultimately Destroy ISIL».» White House, 10 September 2014, <http://www.whitehouse.gov/blog/2014/09/10/president-obama-we-will-degrade-and-ultimately-destroy-isil>.

Human Rights Watch. «Challenging the Red Lines: Stories of Rights Activists in Saudi Arabia.» 18 December 2013, <http://www.hrw.org/news/2013/12/17/saudi-arabia-activists-chal-lenging-status-quo>.

________. «Saudi Arabia: 15-Year Sentence for Prominent Activist.» <http://www.hrw.org/news/2014/07/07/saudi-arabia-15-year-sentence-promi-nent-activist>.

Haykal, Bernard and Daniel Kurtzer. «Middle East Frenemies.» Project Syndicate (13 December 2013), <http://www.project-syndicate.org/commentary/bernard-haykel-emphasizes-the-limits-to-saudi-israeli-cooperation-in-confronting-iran>.

Herb, Michael. «The Saudi Succession and Challenges Facing Saudi Arabia.» Norwegian Peacebuilding Resource Centre (NOREF) (August 2014), <http://www.peacebuilding.no/var/ezflow_site/storage/original/application/606cfa31b5e4c02fe414bfaa82d79152.pdf>.

International Crisis Group. «Tunisia: Violence and the Salafi Challenge.» *Middle East/North Africa Report*: no. 137, 13 February 2013, <http://www.crisisgroup.org/~/media/Files/Middle%20East%20North%20Africa/North%20Africa/Tunisia/137-tunisia-violence-and-the-salafi-challenge.pdf>.

International Monetary Fund. «World Economic Outlook Database.» (April 2014), <http://www.imf.org/external/pubs/ft/weo/2014/01/weodata/index.aspx>.

Investment Bank Sico. «GCC Economies: Impact of Nitaqat's Third Phase on the Private Sector.» 5 March 2015, <http://www.marketstoday.net/includes/download.php?-file=rr_05032015171346.pdf&lang=en&s=1791&m=research>.

Jawdat, Layan. «Laughing in the Kingdom: On Saudi YouTube Comedy.» Jadaliyya, 11 November 2014, <http://quickthoughts.jadaliyya.com/pages/index/17256/laughing-in-the-kingdom_on-saudi-youtube-comedy>.

Jones, Toby C. «Counterrevolution in the Gulf.» *Peace Brief* (United States Institute of Peace): no. 89, 15 April 2011, <http://www.usip.org/sites/default/files/PB%2089%20Counterrevolution%20in%20the%20Gulf.pdf>.

Kaplan, Robert D. «The Geopolitics of Shale.» Stratfor, 19 December 2012, <https://www.stratfor.com/weekly/geopolitics-shale>.

Kausch, Kristina. ««Foreign Funding» in Post-Revolution Tunisia.» FRIDE, 2013, <http://fride.org/download/WP_Tunisia.pdf>.

Khashoggi, Salah. «Saudi Arabia Still Has Time to Escape Dangerous Economic Woes.» Middle East Eye, 27 August 2015, <http://www.middleeasteye.net/columns/saudi-arabia-still-has-time-escape-dangerous-economic-woes-1969795924>.

King Abdullah University of Science and Technology (KAUST), <http://www.kaust.edu.sa/media-relations.html>.

Mahdi, Wael. «Alwaleed Warns Saudi Oil Minister of Waning Need for Oil.» Bloomberg, 28 July 2013, <http://www.bloomberg.com/news/2013-07-28/alwaleed-warns-saudi-oil-min-ister-of-waning-need-for-oil.html>.

________. «Saudi Arabia Must Review Its Oil Subsidies, Former Adviser Says.» Bloomberg, 27 December 2012, <http://www.bloomberg.com/news/articles/2012-12-27/saudi-arabia-must-review-its-oil-subsidies-former-adviser-says>.

Maisel, Sebastian. «The Resurgent Tribal Agenda in Saudi Arabia.» The Arab Gulf States Institute in Washington (2015), <http://www.agsiw.org/wp-content/uploads/2015/07/Maisel_Resurgent-Tribal-Agenda.pdf>.

«Major Saudi Cleric Defends Bin Laden on Al-Jazeera.» Al Arabiya News, 8 February 2013, <http://english.alarabiya.net/articles/2013/02/08/265035.html>.

«Mohammed bin Nayef: A King in Waiting.» Al Bawaba News, 27 January 2015, <http://www.albawaba.com/news/mohammed-bin-nayef-king-waiting-649420>.

Murphy, Carlyle. «A Kingdom's Future: Saudi Arabia through the Eyes of its Twenty-Somethings.» Wilson Center, 2013, <http://www.wilsoncenter.org/sites/default/files/kingdoms_future_saudi_arabia_through_the_eyes_twentysomethings.pdf>.

Nada, Garrat. «Twitter Sheikhs of Saudi Arabia.» Al-Monitor, 18 December 2013, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2013/12/twitter-sheikhs-saudi-arabia.html#>.

Nakamura, Satoru. «New Omnibalancing Theory and Tasks for Preventive Diplomacy: The Case of Saudi Arabian Foreign Policy during the Syrian Humanitarian Crisis.» Unpublished paper for the Gulf Research Meeting, Cambridge, UK, July 2013, <http://gulfresearchmeeting.net/index.php?pgid=MTg2&pid=NzY4>.

Nereim, Vivian and Donna Abu Nasr. «How Much Longer Can Saudi Arabia's Economy Hold Out against Cheap Oil?.» Bloomberg, 21 August 2015, <http://www.bloomberg.com/news/articles/2015-08-21/how-much-longer-can-saudi-arabia-s-economy-hold-out-against-cheap-oil->.

«OPEC Revenues Fact Sheet.» U.S. Energy Information Administration (EIA), 31 March 2015, <http://www.eia.gov/beta/international/analysis_includes/special_topics/OPEC_Revenues/opec.pdf>.

Ottaway, David. «Saudi Arabia's Race against Time.» Middle East Program, Occasional Paper Series (Wilson Center), Summer 2012, <http://www.wilsoncenter.org/publication/saudi-arabias-race-against-time-summer-2012>

Perlo-Freeman, Sam and Carina Solmirano. «Trends in World Military Expenditure, 2013.» SIPRI Fact Sheet, April 2014, <http://books.sipri.org/files/FS/SIPRIFS1404.pdf>.

«Profile of Prince Mohammed bin Salman bin Abdulaziz Al Saud.» Al Arabiya News, 27 January 2015, <http://english.alarabiya.net/en/perspective/profiles/2015/01/27/Profile-Prince-Mohammed-bin-Salman-bin-Abdulaziz-Al-Saud.html>.

Project Syndicate. «Has Iran Changed?.» 8 January 2014, <https://www.project-syndicate.org/commentary/turki-bin-faisal-al-saud-assesses-the-continuing-threat-of-iranian-influence-in-the-middle-east?barrier=true>.

«Prominent Saudis: Sheikh Mohammed Al Arefe.» Saudiwoman's Weblog, 13 September 2008, <http://saudiwoman.me/2008/09/13/prominent-saudis-sheikh-mohammed-al-arefe>.

«Prominent Saudis: Sheikh Salman Al Ouda.» Saudiwoman's Weblog, 22 August 2008, <http://saudiwoman.me/2008/08/22/prominent-saudis-sheikh-salman-al-ouda>.

««Prostitutes»: Saudi Cleric Insults Recently-appointed Female Shura Members.» Al Arabiya News, 24 February 2013, <http://english.alarabiya.net/articles/2013/02/24/268123.html>.

Al Qassemi, Sultan Saooud. «Gulf States Embrace Post-Brotherhood Egypt.» Al-Monitor, 10 July 2013, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2013/07/gulf-states-egypt-muslim-brotherhood.html>.

«Questions and Answers on the Olympics, Women and Sports in Saudi Arabia.» Human Rights Watch, 15 February 2012, <http://www.hrw.org/fr/node/105175>.

Rajendran, Giri. «2013's top Defence-spenders.» International Institute for Strategic Studies (IISS), 5 February 2014, <http://www.iiss.org/en/militarybalanceblog/blogsections/2014–3bea/february-f007/defence-spending-a132>.

Rashad, Marwa and Praveen Menon. «Huge Saudi Metro Projects Aim to Shift Economy beyond Oil.» Reuters, 30 July 2013, <http://uk.reuters.com/article/saudi-metro-economy-idUKL6N0FZ38O20130730>.

Riedel, Bruce. «Saudi King's Sons Well-Placed for Transition.» Al-Monitor, 30 May 2014, <http://www.al-monitor.com/pulse/tr/originals/2014/05/saudi-tran- sition-kings-sons-well-place.html#>.

«Saudi Arabia and the Game of Dominoes.» Conflicts Forum, 21-28 August 2015, <http://www.conflictsforum.org/2015/saudi-arabia-and-the-game-of-dominoes/>.

«Saudi Arabia Deports 800,000 Illegal Foreign Workers.» Al Arabiya News, 22 September 2013, <http://english.alarabiya.net/en/views/business/economy/2013/09/22/Saudi-Arabia-deports-800-000-illegal-foreign-workers.html>.

«Saudi Arabia Deports 370,000 Migrants Over 5 Months.» Business Standard: 20 March 2014, <http://www.business-standard.com/article/pti-stories/saudi-deports-370-000-migrants-over-5-months-114032000716_1.html>.

«Saudi Arabia Launches New Housing Scheme to Ease Shortage.» Reuters, 13 March 2014, <http://uk.reuters.com/article/2014/03/13saudi-housing-idUKL6N0MA17I20140313>.

«Saudi Arabia Median Age.» <http://www.indexmundi.com/saudi_arabia/median_age.html>.

«A Saudi Arabian Defense Doctrine: Mapping the Expanded Force Structure the Kingdom Needs to Lead the Arab World, Stabilize the Region, and Meet its Global Responsibilities.» Harvard Kennedy School: Belfer Center for Science and International Affairs (May 2014), <http://belfercenter.ksg.harvard.edu/files/Saudi%20Strategic%20Doctrine%20-%20web.pdf>.

«Saudi Expat Remittances up 18pc.» Trade Arabia Busniess News Information, 2 February 2014, <http://www.tradear-abia.com/news/BANK_251125.html>.

«Saudi Labor Minister Faces «Deadly Prayers» from Angry Clerics.» Alarabiya.net, 26 December 2012, <http://english.alarabiya.net/articles/2012/12/26/257217.html>.

«Saudi Mufti Says Women Driving Not in their Interest.» Riyadh Bureau, <https://riyadhbureau.wordpress.com/tag/grand-mufti/>.

«Saudi Officials Blame al-Qaeda for Deadly Anti-Shiite Attack.» <http://www.middleeasteye.net/news/saudi-blames-al-qaeda-deadly-anti-shiite-attack-559410559>.

«Saudi Prince Complains that Forbes Rich List Underestimates his Wealth.» ITV, 5 March 2013, <http://www.itv.com/news/topic/prince-al-waleed-bin-talal/>.

«Saudi Responses to the King's Decisions.» *Middle East Monitor*: 30 January 2015, <https://www.middleeastmonitor.com/20150130-saudi-responses-to-the-kings-decisions>.

«Saudi VIPs Clock up $720m in Unpaid Electricity Bills-Report.» arabianbusiness.com, 21 July 2014, <http://www.arabianbusiness.com/saudi-vips-clock-up-720m-in-unpaid-electric-ity-bills-report-558670.html>.

Sfakianakis, John. «Comprehensive Reform of the Labor Market in Saudi Arabia.» Saudi-US Trade Group, 26 January 2014, <http://sustg.com/comprehensive-reform-of-the-labor-market-in-saudi-arabia>.

________. «For Saudi Arabia, Change in Fiscal Policy Should Come Sooner than Later.» Saudi-US Trade Group, 28 December 2013, <http://sustg.com/for-saudi-arabia-change-in-fiscal-policy-should-come-sooner-than-later>.

________. «Is the Saudi Arabian Economy Productive?.» Saudi-US Trade Group, 21 February 2014, <http://sustg.com/is-the-saudi-arabian-economy-productive>.

________. «On Saudi Employment: The Numbers Do Not Lie.» Saudi-US Trade Group, 16 January 2014, <http://sustg.com/on-saudi-employment-the-numbers-do-not-lie>.

________. «Saudi Arabia's Non-Oil Export Figures are Just Numbers on Paper.» Saudi-US Trade Group, 3 February 2014, <http://sustg.com/saudi-arabias-non-oil-export-figures-are-just-numbers-on-paper>.

El-Shenawi, Eman. «Saudi Religious Police to Monitor Social Media?.» Alarabiya.net, 22 February 2014, <http://english.alarabiya.net/en/media/digital/2014/02/22/Saudi-columnist-urges-religious-police-to-monitor-social-media.html>.

«Shiite Saudi Clerics Warn against Anti-Govt. Violence.» Naharnet: 9 March 2014, <http://www.naharnet.com/stories/en/121838>.

Smith, Cooper. «These Are the Most Twitter-Crazy Countries in the World, Starting with Saudi Arabia(!?).» *Business Insider*: 7 November 2013, <http://www.businessinsider.com/the-top-twitter-markets-in-the-world-2013–11>

Tully, Andy. «Saudi Facing Largest Deficit in its History.» OilPrice.com, 29 December 2014, <http://oil- price.com/Energy/Oil-Prices/Saudi-Facing-Largest-Deficit-In-Its-History.html>.

Wehrey, Fredric. «The Forgotten Uprising in the Eastern Saudi Arabia.» Carnegie Endowment for International Peace, June 2013, <http://carnegieendowment.org/files/eastern_saudi_uprising.pdf>.

________. «Ominous Divide: Shiite Iran v Sunni Gulf.» United States Institute of Peace, The Iran Primer, 18 February 2014, <http://iranprimer.usip.org/blog/2014/feb/18/ominous-divide-shiite-iran-v-sunni-gulf>.

________. «Syria's Sectarian Ripples across the Gulf.» United States Institute of Peace, Peace Brief, no. 161, 15 November 2013, <http://www.usip.org/sites/default/files/PB161.pdf>.

«What Does the Gulf Think about the Arab Awakening?.» Introduction by Fatima Ayub, European Council on Foreign Relations (April 2013), <http://www.ecfr.eu/page/-/ECFR75_GULF_ANALYSIS_AW.pdf>.

«What Is Behind the Clerics Royal Court Protest.» Riyadh Bureau, 20 January 2013, <https://riyadhbureau.wordpress.com/2013/01/20/20131behind-clerics-royal-court-protest/>.

Woertz, Eckart. «The Domestic Challenges in the Saudi Energy Market and their Regional and Geopolitical Implications.» Norwegian Peacebuilding Resource Centre (NOREF), *Policy Brief*: November 2013.

Ydstie, John. «Will Renewables Suffer Because of U.S. Oil and Gas Boom.» NPR, 27 December 2013, <http://www.npr.org/2013/12/27/257654578/will-renewables-suffer-because-of-u-s-oil-and-gas-boom>.

Young, Angelo. «Saudi Arabia Feeling Pain of Oil Price Plunge, But It Has Enough Currency Reserve to Last for Years.» IBT, 25 December 2014, <http://www.ibtimes.com/saudi-arabia-feeling-pain-oil-price-plunge-it-has-enough-currency-reserve-last-years-1767238>.

Zelin, Aaron Y. «The Saudi Foreign Fighter Presence in Syria.» Combating Terrorism Center, West Point, 28 April 2014, <https://www.ctc.usma.edu/posts/the-saudi-foreign-fighter-presence-in-syria>.

———, Evan F. Kohlmann, and Laith al-Khouri. «Convoy of Martyrs in the Levant: A Joint Study Charting the Evolving Role of Sunni Foreign Fighters in the Armed Uprising against the Assad Regime in Syria.» Washington Institute, June 2013, <http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/convoy-of-martyrs-in-the-levant>.

Youtube and Videos

«Islam-Sheikh Arifi.» Youtube, 27 February 2012, <https://www.youtube.com/watch?v=LX-68g2fUh8s>.

«Mal3ob 3alena: Poverty in Saudi Arabia English Version.» Youtube, 18 October 2011, <http://www.youtube.com/watch?v=SISBqgW5xx0>.

«Manal Al Sharif: The Drive for Freedom.» Youtube, 10 May 2012, <https://www.youtube.com/watch?v=0PXXNK-3zQ4>.

«Monopoly Short Film.» Youtube, 13 September 2011, <https://www.youtube.com/watch?v=NMvCURQEhpM>.

«Saudi Woman Defies Religious Police: It Is None of Your Business If I Wear Nail Polish.» Youtube, 24 May 2012, <https://www.youtube.com/watch?x-yt-ts=1421914688&x-yt-cl=84503534&v=OpUUOYRLW3k#t=77>.

فهرس